بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلينا وعلى عباد الله الصالحين

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين

إمامة المفضول مع وجود الأفضل عند الزيدية وأهل السنة

﴿ شهادة الكفاءة في البحث العلمي ﴾

بحث قام به الطالب عبد القادر قحة

بإشراف الدكتور علي الشابي (رئيس قسم علم الكلام والتصوّف)

السنة الأولى والثانية لإعداد الحلقة الثالثة

سنة (1400 هـ-1401هـ/1979-1980م)

ملاحظة

وقع بعد هذا البحث إعداد دكتوراه الحلقة الثالثة حول "الإمامة السياسيّة" بعنوان (دراسة تأصيليّة مقارنة لنظريّة الإمامة أو السيادة لدى كلّ من الشيعة الزيديّة والشيعة الإثني عشرية وأهل السنّة) بإشراف نفس الدكتور علي الشابي، وكان النجاح بملاحظة حسن جدا (1407هـ/1979-1986م).

نوقشت هذه الرسالة لنيل شهادة الكفاءة في البحث العلمي المعروفة في الجامعة التونسية برمز:

"CERTIFICAT D'ABTITUDE DE RECHERCHE (CAR)"

وبإشراف الدكتور علي الشابي ومناقشة الأستاذين: الدكتور الحبيب الهيلة -رحمه الله- والدكتور عبد المجيد النجّار: الأساتذة بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين. وذلك بعد نجاح الطالب المذكور في الامتحان الكتابي بمقال "حول الرباط في الإسلام"، وهو سؤال كتابي من إعداد الأستاذ الحبيب الهيلة.

وبعد النجاح الكتابي المذكور ألقى الطالب درسا شفويّا بحضورهم في موضوع "أصول الدين عن آراء الفرق الإسلاميّة في العقيدة " ومنها "الفرقة البيانيّة" وصاحبها "البيان بن سبعان" حول ادّعائه المهرطق أنه المقصود بقول الله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران 138] ووقع في الآن ذاته مناقشتهم له في البحث المذكور، ونجح الطالب المذكور بملاحظة حسن جدّا، سنة 1401هـ/1980م.

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمدا وعلى آله وصحبه أجمعين وعلينا وعلى عباد الله الصالحين

مصطلحات

1/ [ ]: ما بين معقوفتين هو كلام أضفته من عندي

2/ السطر المستقيم المائل: ما وُضع قبله فهو رقم الجزء بالنسبة للمصدر أو المرجع، وما وُضع بعده فهو لرقم الصفحة، مثال: 75/2 معناه: ج2، ص75.

3/ كما استعملت نفس المصطلح للدلالة على التاريخ الموافق للهجري أو/ العكس بالعكس.

4/ كلّما اعتمدت الجزء الخامس من تاريخ الطبري فهو نسخة مطبعة الأستانة بالقاهرة، غالبا بتاريخ 1358هـ/1939م، وكلما اعتمدت الجزء الثامن أو التاسع فهو نسخة المطبعة الحسينيّة المصرية غالبا بدون تاريخ.

5/ اعتمدت نسختين من كتاب "الملل والنحل" للشهرستاني النسخة الأولى نشر مكتبة الحسين التجارية- القاهرة، ط 1368هـ/1948م اعتمدتها في الحديث عن زيد والزيدية عامة، ج1، والنسخة الثانية على هامش (الفصل) لابن حزم، ط1، مصر، ج1، مطبعة التمدّن 1321هـ اعتمدتها في الحديث عن فرق الزيدية، الجارودية والسليمانية والصالحيّة والبترية.

6/ ط = الطبعة

7/ اعتمدت نسختين من كتاب "تاريخ الكامل" لابن الأثير، النسخة الأولى في تاريخ قيام زيد على بني أميّة، وبهامشها "تاريخ مروج الذهب للمسعودي"، التّرديز، مصر، سنة 1303 هـ، ج5، والنسخة الثانية بهامشها "تاريخ الوذعي"، ط1، المطبعة الأزهرية المصرية، سنة 1301هـ، اعتمدتها في ذكر قصة سنة الشورى، الجزء الثالث.

8/ هـ: التاريخ الهجري، م: التاريخ الميلادي.

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمدا وعلى آله وصحبه أجمعين وعلينا وعلى عباد الله الصالحين

تمهيـــد

لا يُقصد من دراسة الماضي بما فيه من أحداث دينيّة وسياسيّة وعلميّة، الدراسة في حدّ ذاتها (بما فيها من متعة فكريّة ولذّة في البحث) وإنّما إلى جانب ذلك نقصد من دراسة الماضي إثراء الحاضر والمستقبل بكلّ التّجارب التي مرّ بها غيرنا ومحاولة الاستفادة منها وتطويعها كلّها أو جلّها لحياتنا ومستقبلنا ولذلك يرى بعضهم أنّ الغاية من دراسة التاريخ هي معرفة أنفسنا[1] وأيّ شيء أعزّ من معرفة نفس لا تزال لغزا محيّرا للإنسانيّة.

هذه الغاية التي ذكرتها هي التي دفعتني إلى اختيار البحث في الفرقة الزيديّة الشيعيّة وعلاقتها بالإمامة. وثمّة سبب آخر دفعني إلى اختيار هذا الموضوع هو أنّ الزيديّة من أكثر فرق الشيعة اعتدالا يظهر ذلك في شخص زعيمها زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (80هـ-122هـ) الذي يرى «جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل» فعليّ في نظره أفضل من الشيخين ومن كلّ الصحابة -رضي الله عنهم جميعا- ولكن المصلحة اقتضت أن يتولّيا الخلافة قبله وما داما قد عدلا وحافظا على عزّة العروبة والإسلام والمسلمين، واحترما عقائد أهل الكتاب فإمامتهما صحيحة.

وهكذا الشأن في كلّ إمام تدعو المصلحة إلى تقديمه على أحد أئمّة أهل البيت أو على من هو في المجال الديني أو الدنيوي، أي في الصّلاة أو في السّياسة. ولا تصحّ إمامة أحد أفراد آل البيت -في نظر زيد- إلا إذا خرج شاهرا سيفه على الحاكم الظالم، وكانت مصلحة

---

1) أستاذنا الدكتور محسن العايد في بعض محاضراته في الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين -رحمه الله-.

المسلمين في توليه الخلافة، دفاعا عن حرمة العروبة والإسلام وحرمة الأديان الكتابية الثلاثة.

من ذلك نلاحظ أن الزيدية تكاد تكون فرقة سنية أي من أهل السنة، فهي لا تبالغ في مدح آل البيت إلى حد التقديس ووصفهم بالعصمة، والمهدية، والرجعة، أو إلى اعتبارهم في مرتبة النبوة، أو إلى حدّ تأليههم عند المغالين المنحرفين من الشيعة، بل هي فرقة قامت على أساس طرح ثوب التقيّة جانبا وتطبيق مبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" لما رأت من ظلم بني أمية وخروجهم عن نمط الخلافة إلى نمط الملك، وما آل إليه أمرهم من السيطرة والتهتك، فقد أصبحت الخلافة الراشدة مُلكا عضوضا عندهم، كما جاء الأثر عن رسول الله ﷺ، وَذَكَرَهُ ابن خلدون في "المقدمة": وغاية الزيدية تظهر فيما رواه أبو الفرج الأصفهاني في كتابه "مقاتل الطالبيين" عن إمامهم زيد بن علي فقال: «حدّث البابكي قال: خرجنا مع زيد بن علي إلى مكّة فلمّا كان نصف اللّيل وامتوت الثّريا فقال: يا بابكي أما ترى هذه الثريا أترى أحدا يدنالها؟ قلت: لا، قال: والله لوددت أنّ يدي ملصقة بها فأوقع إلى الأرض أو حيث أقع فانقطع قطعة قطعة وأنّ الله أصلح بين أمّة محمد ﷺ »[1]؛ ولا يسعنا حيال هذه الشّهامة إلا أن نقول: إنّ التّضحية بالنّفس والنّفيس في سبيل عزّة العرب، وعزّة قيمهم وقيم الأديان الكتابيّة الثلاثة، يهون من أجل صلاح حال الإنسانيّة لتتعايش في سلم وتسامح ووئام واحترام بعيدا عن كلّ تعصّب، لأنّ في وحدة الإنسان وتنوّع البشر»، أوضح دليل على أنّ «الإنسان أخو الإنسان أحبّ أم كره» كما جاء في الأثر عن رسول الإسلام محمد ﷺ، الذي بُعث مصدّقا بكلّ الرّسل والأنبياء وقيمهم عليهم الصلاة والسلام جميعا.

وبعد هذا سنقدّم ترجمة إمام الزيدية (زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ).

---

1) أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، تحقيق السيّد أحمد الصقر، طبع بدار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، سنة 1368هـ/1949م، ص129 .

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمدا وعلى آله وصحبه أجمعين وعلينا وعلى عباد الله الصالحين

حيـــاة زيـــد بن علـــي

****

هو زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ، وبالنسبة لميلاده فلم يذكر المؤرّخون القدامى السنة التي وُلد فيها على عادتهم في عدم العناية بتواريخ ميلاد من يترجمون لهم لأنّ من يولد لا يسجّل قديما تاريخ ميلاده ولا تتّجه العناية إليه إلاّ لمّا تظهر شهرته فيسجّل تاريخ وفاته وما قام به من أعمال.

ونستطيع أن نصل إلى تاريخ تقريبي لميلاد زيد بحسب ما جاء في بعض المصادر والمراجع وذلك أنّ زيد بن علي قتل سنة 122هـ مثلما جاء في تاريخ الطبري[1] وتاريخ المسعودي[2] ودائرة المعارف الإسلامية[3]، وهذه الأخيرة تضيف التاريخ المسيحي لمقتله وهو سنة 740م.

ويذكر أبو الفرج الأصفهاني أنّ سنّ زيد بن علي يوم قتل كان اثنتين وأربعين سنة، فتاريخ ميلاده يكون حوالي 80هـ/698م بالمدينة المنوّرة. جدّه الأعلى لأمه فاطمة -رضي الله عنها- هو محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيئين، وجدّه لأبيه علي بن أبي طالب -كرّم الله

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 497/5، حققه نخبة من العلماء: مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة 1358هـ/1939م.

2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر: 217/1، مطبعة السعادة مصر، ط.2، سنة 1367هـ/1948م.

3) دائرة المعارف الإسلامية: 11/11، 12 مادة حرف الزاي، مطبعة الاعتماد بمصر، بدون تاريخ، تجد في الصفحة الأخيرة من هذا الجزء ابتداء تاريخ طباعة دائرة المعارف مترجمة إلى العربية من أول أكتوبر 1350هـ/1933م.

وجهه- ابن عمّ محمد عليه السلام.

فاجتمع لزيد بذلك النّسب الشريف لجدوده (محمد النبيّ وابنته فاطمة وابن عمه عليّ وابن بنته فاطمة وهو الحسين)، ولكن النبيّ ﷺ روي عنه في الأثر لبني هاشم: «يا بني هاشم لا يأتيني الناس يوم القيامة بالأعمال وتأتوني بالأنساب من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[1].

أبوه هو علي بن الحسين الملقّب بزين العابدين لما اشتهر به من التقوى وأداء الفروض والعمل الصالح حتى أحبّه الناس من الشيعة وغير الشيعة والسنّة، ومن الأمثلة على ذلك أنّ هشام بن عبد الملك حجّ بالناس في عهد أبيه وطاف بالبيت وحاول أن يصل إلى الحجر الأسود فلم يقدر لكثرة الزحام فنصب له كرسيّ جلس عليه ينظر إلى الناس ومعه جماعة من أعيان الشام، وبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فطاف بالبيت فلمّا انتهى إلى الحجر الأسود تنحّى له الناس حتى استلم الحجر، فقال رجل من أهل الشام: «مَنْ هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟»، فقال هشام: «لا أعرفه !» مخافة أن يرغب فيه أهل الشام، وكان الشاعر الفرزدق (641م-732م) -وله ميول نحو آل البيت- حجّ تلك السّنة وهو في العقد السابع من عمره فقال: أنا أعرفه! ثم اندفع فأنشد قصيدته في مدح علي زين العابدين نقتطف منها هذه الأبيات:

1- هذا الذي تعرف البطحاءُ وطْأتَهُ *** والبيْتُ يعرِفُهُ والحِـلُّ والحَـــرَمُ

2- هذا ابن خَيْـرِ عِبَـادِ اللهِ كلِّهِـمْ *** هذا التّقيُّ النّقيُّ الطّـاهِرُ العَلَمُ

3- هذا ابن فاطمةَ إنْ كنتَ تجْهَلُـهُ *** بجَدِّه أنْبيـاءُ اللهِ قَـدْ خُتِمُـوا

4- وليْسَ قولُكَ: مَنْ هذا؟ بضائِرِهُ *** العُرْبُ تعْرِفُ مَنْ أنكرْتَ والعجمُ

6- منْهُمْ الخليقةِ لا تُخْشَـى بوادِرُهُ *** يزينُهُ اثْنانِ: حسْنُ الخَلْقِ والشّيَمُ

---

1) وقال (ص) لابنته فاطمة كما جاء في الأثر أيضا: «يا فاطمة اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئا. رواه أحمد بن حنبل في مسنده عن أبي هريرة.

8- ما قـال: لا قـطُّ إلاّ في تـشهُّـدِهِ *** لولا التشهُّـدُ كانـت لاءهُ نعـمُ

10- إذا رأتْـهُ قريْـش، قـال قائلهـا *** إلى مكارِمِ هـذا ينتهـي الكـرَمُ

11- يُغضي حياءً، ويُغضى من مهابتِهِ *** فمـا يكلَّـمُ إلاّ حيـن يبتسـمُ

13- يكـادُ يمسكُهُ عرفـانُ راحتـه *** ركْنُ الحطيم، إذا ما جاء يستلِمُ

15- أيُّ الخلائقِ ليستْ في رقابِهـمُ *** لأوّليّـةِ هـذا، أوّلـهُ نعَـمُ!

16- مَنْ يشكُـرِ اللهَ يشكـرْ أوّليّـةَ ذا *** فالدّينُ مِنْ بيتِ هذا نالَهُ الأمـمُ

18- مَنْ جدُّهُ دانَ فضْـلُ الأنبيـاءِ لهُ *** وفضْلُ أمّتِهِ دانـتْ لهُ الأمَـمُ

21- مِنْ معْشَرٍ حُبّهُمْ دينٌ، وبغْضُهُمُ *** كُفْرٌ، وقُرْبُهُمُ منْجـى ومُعْتصَـمُ[1].

وغضب هشام بن عبد الملك وأمر بالفرزدق فحُبس في مكان بين المدينة ومكّة يُسمّى "عسفان" فهجاه بعيبه الخَلْقي – الحول- ثمّ أشفق عليه هشام فأطلقه[2]، ولعلّها ليست شفقة وإنّما أراد ألاّ يزيد في الدعاية لآل البيت خاصة والقصيدة تعبق بالإمتاع الأدبي والنّغم الشجيّ وهما شرطان كفيلان بسريانها بين الناس. وقابل الفرزدق الجميل بقصيدة طويلة مدح بها هشاما.

وروي أنّ عليّ بن الحسين لمّا بلغه مدح الفرزدق له بعث له بهدية تقدّر باثنتي عشر ألف درهم فلم يقبلها وقال: «إنّما قلتُ ما قلتُ لله عزّ وجلّ ونصرة للحقّ ولستُ أعتاض عن ذلك بشيء»، فأرسل إليه عليّ زين العابدين يقول: «قد علم الله صدق نيتك في ذلك، وأقسمتُ عليك بالله لتقبلنّها!» [3]، فقبلها منه.

---

1) المجاني الحديثة عن مجاني الأب شيخو: 121/2-123 في صدر الإسلام نظم فؤاد أفرام، المطبعة البستاني الكاثوليكية، ط2، بيروت، سنة 1962، عن مجاني الأب شيخو.

وقيل إنّ هذه القصيدة زيد فيها وليس في ديوان الفرزدق إلاّ ستة أبيات هي: 1، 2، 10، 13، 15، 16 حسب ترقيمها في هذا البحث.

2) المرجع نفسه: 123/2.

3) أبو زهرة: الإمام زيد، طبع دار الفكر العربي، مصر، سنة 1974، ص30.

هذا أبو زيد بن علي، أمّا أمّه: فهي أمة سنديّة قيل اشتراها المختار بن أبي عبيد الثقفي بثلاثين ألفا «فقال لها: أدبري فأدبرت، ثم قال لها: أقبلي فأقبلت، ثم قال ما أدري أحدا أحقّ بك من علي بن الحسين، فبعث بها إليه»، وولدت له زيدا وعمرا وعليا وخديجة[1].

وبأمّه هذه قصد هشام بن عبد الملك (105هـ-125هـ) إهانة زيد لمّا اجتمع به قائلا: «لقد بلغني أنك تؤهّل نفسك للخلافة وأنت ابن أمة»، قال: «ويلك مكان أمي يضعني! والله لقد كان إسحاق ابن حرّة وإسماعيل بن أمة فاختصّ الله عزّ وجلّ ولد إسماعيل فجعل منهم العرب فما زال ذلك ينمي حتى كان منهم رسول الله ﷺ» [2].

ولمّا كانت أمّ زيد سنديّة فقد اجتمع فيه ﷺ: تأمّل الهنود وتفكّرهم وإخلاصهم للمبدأ [3]، وذكاء جدّه عليّ بن أبي طالب -كرّم الله وجهه- صاحب الاجتهادات الفقهيّة حتى قال فيه عمر بن الخطاب ﷺ: « أقضيّة ولّيس لها أبو الحسن؟!». وَأَقْضِيَهُ وَلَا أَبُو حَسَنٍ لَهَا »

❖ نشأته

نشأ زيد بن علي بين علماء آل البيت وهو أحد أئمّتهم، فأبوه علي زين العابدين. تولّى الإمامة بوصيّة من جدّه (جدّ زيد) الحسين بن علي بن أبي طالب «وكان قد تسلّم وصيّته وكتبه وعلمه الروحي» [4]، وكان عالم كلام وفقه وحديث.

وأخو زيد الأكبر هو محمد بن علي الباقر ولُقّب بذلك لأنه بقر العلم وعاش في فترة

---

1) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص127. وأنظر كتاب الدكتور علي الشابي : مباحث في علم الكلام والفلسفة، ص110، ط1، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس -بدون تاريخ- وتاريخ مقدمة المؤلّف هو: 77/11/28؛ المختار بن عبيد الثقفي صاحب الثورة المختارية أو الكيسانية قتل سنة 67هـ/685م.

2) اليعقوبي: التاريخ الكبير : 56/3، دار الفكر، بيروت، سنة1376هـ/1956م.

- الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 263/8، ط1: بالمطبعة الحسينية المصرية -بدون تاريخ-.

- المسعودي: مروج الذهب: 218/1.

3)أبو زهرة: الإمام زيد، ص23.

4) الدكتور علي الشابي: الشيعة في إيران، الجامعة التونسية كلية الحقوق والعلوم السياسية والاقتصادية، مركز الدراسات والبحوث والنشر، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، أفريل 1980، ص84-86.

وعمّهما

(57هـ/676م – 114هـ/732م) وكان متكلّما وفقيها ومحدّثا، وكلاّ من الأب علي زين العابدين والأخ محمد الباقر كان أستاذا لزيد وشيخا ومعلّما. وقد توفّي علي زين العابدين سنة (96هـ/714م) [1]، وابنه زيد في السنة الرابعة عشرة من عمره، فكفله أخوه محمد الباقر.

وكان لمحمد الباقر ولدٌ في سنّ زيد هو جعفر الصادق المتوفى سنة (148هـ/765م)[2]، والمشهور بفقهه الجعفري[*3] والذي عدّ بفضله إمام المذهب الخامس بعد مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وإدريس الشافعي، واعترف الجميع من شيعة وأهل سنّة بفضل جعفر الصادق وعلمه وكرم خُلُقه، ورغم ذلك فقد روى عبد الله بن جرير قال: «رأيتُ جعفر [الصادق] بن محمد يُمسك لزيد بن علي بالركاب ويسوّي ثيابه على السّرج»[4]، ممّا يدلّ على تواضعه، ومكانة زيد في قومه.

ولم يقتنع زيد بالبقاء في المدينة فارتحل إلى العراق وقابل في البصرة واصل بن عطاء الغزّال رأس المعتزلة [5]، وكانت بينهما مذاكرة علميّة عدّها الشهرستاني تلمذة من زيد لواصل، واستفاد زيد وواصل من هذه المذاكرة، ولا يمكن إلاّ أن تكون كذلك لأنهما تربّيا ولدا سنة (80هـ/698م) تقريبا.

وقد تعمّد زيد السّفر إلى البصرة لأنها كانت مهد الفرق الإسلاميّة والاختلافات المذهبيّة، فأراد أن يضيف إلى علمه بالقرآن والحديث علم أصول الدين، وكان له ما أراد. وسافر زيد أيضا إلى مدينة الكوفة.

---

1) الدكتور علي الشابي: الشيعة في إيران، ص85.

2) المرجع نفسه، ص97.

*) اقتبست مجلة الأحوال الشخصيّة التونسيّة من مدوّنة الفقه الجعفري، جواز أن ترث البنت الوحيدة كامل التركة عن أبويها تأويلا للآية: ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف﴾ (سورة النساء، آية 11).

4) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص128–129.

5) الشهرستاني: الملل والنحل: 249/1، تحقيق أحمد فهمي محمد، ط1، مكتبة حسين التجارية، القاهرة، سنة 1368هـ/1948م.

– أبو زهرة: الإمام زيد، ص40.

وبذلك كانت نشأة زيد بن علي نشأة علميّة في بيت آل الرسول -عليهم السلام- متتلمذا لهم في المدينة المنوّرة، وفي البصرة والكوفة. تلقّى العلم عن غير آل البيت وذاكر البعض منهم حتى أصبح عالما ذا باع طويل، وقد اشتهر آل البيت بالعلم وذلك للظروف التي اكتنفتهم وجعلتهم محرومين من المشاركة في الحياة العمليّة، إذ عزلهم بنو أميّة عن السياسة وهدّدوهم بشتّى الأنواع من قتل ومسّ وإهانة ولعنة صبّوها على جدّهم علي بن أبي طالب -كرّم الله وجهه- على المنابر... ولصق الله مروالعنه.

فالحسن سمّمه معاوية، والحسين قتله يزيد بن معاوية بكربلاء، وزيد بن علي قتله هشام بن عبد الملك في الكوفة، فانكفأوا على أنفسهم يتدارسون القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة والفقه وعلم الكلام حتى اعتبروا عند البعض أوّل من وضع علم الكلام وأوّل المعتزلة، وبرعوا في ميدان العلم، ونالوا شهرة واسعة ظنّها بعض المتشيّعين لهم علما روحانيا إلهيّا خصّوا به دون سواهم، وورثه الأئمّة منهم بعضهم عن بعض، وتعمّد بعض المتشيّعين لهم نسبة العلم الإلهي لآل البيت لأسباب منها:

1. لجلب مزيد من الأنصار للشيعة في مواجهة أعدائهم بني أميّة؛ ولحبّهم الصّادق لآل البيت المقصود من الخصوم
2. أو لمحاولة إثارة الفتنة بين المسلمين كانتقام من القرن ضدّ العرب الذين غلبوهم سياسيّا وفتحوا قلوبهم للإسلام، فغلبوهم حضاريّا بتزاوج بديع بين الحضارة الفارسيّة وقيم الإسلام السّمحة.
3. أو لحبّهم الصادق لآل البيت انجرّ عنه تطرّف بعض أنصارهم وإغلاء من أحبّوهم بسبب ذلك، ودون قصد.

وقد قال الفرزدق في مدح علي زين العابدين:

مِنْ معشرٍ حبّهمْ دينٌ، وبُغضهُمُ *** كُفرٌ وقُربهمْ منجى ومُعتصمُ

وروي عن الإمام علي – كرّم الله وجهه- ما معناه: «دخل جهنّم قومٌ من شدّة بغضهم

لي ودخل جهنّم قوم من شدّة حبّهم لي»[1].

وشهرة آل البيت في العلوم شهرة ذاتجة في الواقع عن طول مثافنة لها، وعمق نظر فيها وتأمّل بسبب تفرّغهم نتيجة حرمانهم من الحياة السياسيّة، وهذه الدرجة التي وصلوا إليها في ميدان العلم يستطيع أن يصل إليها أو يفوقها كلّ من سار على دربهم أو زاد على ذلك اجتهادا وصبرا ومصابرة.

وإذا كان زيد قد تلقّى العلم عن آل البيت وغير آل البيت وذاكر فيه علماء أجلاّء وكانت له معهم جلسات علميّة، فإنه هو نفسه لمّا علا كعبه فيه لم يبخل بعلمه على طالبيه عملا بقوله ﷺ: «مَنْ كتم علما ألجمهُ الله يوم القيامة بلجام من نار»[2] –أو ما في معناه–.

ومن تلاميذه الذين أخذوا عنه: أبو حنيفة صاحب 'المذهب الحنفي'، والفقيه منصور بن المعتمر، وهو من رجال البخاري، ومسلم، وهارون بن سعد العجلي وهو من شيوخ الإمام مسلم، والفقيه المحدّث سليمان بن مهران الأعمش وغيرهم، وقد نقلوا علمه وفقهه إلى مختلف الأمصار الإسلاميّة.

أمّا العلماء الذين كانوا من طبقته: فأبو حنيفة النعمان أيضا (تلميذه ومن طبقته)، وسفيان الثوريّ، وعبد الرحمان بن أبي ليلى، وابن أخيه جعفر الصادق، وغيرهم، وكلّهم تلاميذ وعلماء أجمعوا «على علمه الفيّاض وفقهه الواسع»[3].

وأشهر تلاميذه أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي الذي روى كتاب 'المجموع'[4]

---

1) الشهرستاني.

2) رُوي بطرق مختلفة عن الإمام أحمد وأبي داود والحاكم عن أبي هريرة. ورواه الحاكم وابن حبّان عن عبد الله بن عمر بن العاص، وعلّق عليه الحاكم بأنه حديث إسناده صحيح. ورواه ابن ماجه من حديث أبي سعيد.

3) العلماء الذين تلقّى عنهم زيد: أبوه علي وأخوه الباقر وجابر بن عبد الله الأنصاري الصحابي ومحمد بن أسامة بن زيد. أنظر: أبو زهرة: الإمام زيد، ص222.

– ومن تلاميذه أيضا أبناؤه: عيسى ومحمد وحسين ويحيى. أنظر المرجع نفسه، ص226.

4) أبو زهرة: الإمام زيد، ص225.

– علي سامي النشار : نشأة الفر الفلسفي في الإسلام: 160/2.

المنسوب للإمام زيد بن علي ويُعدّ الأصل في الفقه الزيدي واليه يرجعون في أحكام ذلك المذهب، وهو كتاب الرواية فيه عن طريق آل البيت[1]. وقد اشتهر المذهب الزيدي بسبب كتاب "المجموع" انتشارا[2] كاد يعمّ جميع الأقطار الإسلاميّة بسبب:

1. انتشار تلاميذه في البلاد الإسلاميّة
2. بسبب ما لحق بإمامهم زيد من القتل والصّلب، به وبابنه يحيى بن زيد وبكلّ من قام على مذهبه كمحمد صاحب «صاحب النفس الزكيّة» في المدينة، وإبراهيم أخيه وعيسى بن زيد في البصرة على يد الخليفة العبّاسي أبي جعفر المنصور سنة 145هـ، فكان ردّ فعل الزيدية العمل على نشر المذهب الزيدي.
3. بسبب اعتدال المذهب الزيدي وتأقلمه مع كلّ عصر ومصر.

وقيل إنّ أوّل من صنّف الفقه ودوّن الحديث الإمام زيد بن علي -كما يدّعي الزيديّة- «مع اعترافهم بأنّ العصر لم يكن عصر تدوين»[3].

ومن كتب زيد:

- كتاب "تفسير الغريب".
- كتاب "الحقوق".
- إلى جانب كتاب "المجموع" وينقسم إلى قسمين:
  - أ- المجموع في الحديث
  - ب- المجموع في الفقه

وكتابا "المجموع في الحديث وفي الفقه" جمعهما -كما قلنا- تلميذه أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي وهو هاشميّ بالولاء لا بالنّسب لازم زيدا في حلّه وترحاله من المدينة إلى العراق،

---

1) أبو زهرة: الإمام زيد، ص225.

2) المرجع نفسه، ص478.

3) المرجع نفسه، ص229.

ولملازمته له استطاع أن يروي عنه أيضا كتابيه "تفسير الغريب" وكتاب "الحقوق". وروى عن الواسطي بعض أهل السنّة ومنهم من عدّله ومنهم من عَطَّله، وجرّحه الإماميّة لاختلافهم عن الزيديّة في المذهب[1]. وتوفي الواسطي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري[2].

1) أبو زهرة: الإمام زيد، ص230-231.

2) المرجع نفسه، ص230.

ثـــورة زيـــد بن علي

****

لزيد بن علي صفات أهلته أن يكون محطّ أنظار الشيعة وآمالهم لقلب نظام الحكم الأموي وإعلان مذهبه: 'إمامة المفضول مع وجود الأفضل'، ومن صفاته:

1/ علمـه:

فقد تتلمذ لأبيه زين العابدين وروى عنه، كما تتلمذ لأخيه محمد الباقر وروى عنه أيضا، وتتلمذ لقلّة من الصحابة منهم جابر بن عبد الله الأنصاري وكثرة من التابعين ومنهم: محمد بن اسامة بن زيد[1]، وذاكر واصل بن عطاء في علم الكلام رغم ما بينهما من اختلاف حول المشاركين في معركة الجمل، فواصل يرى أنّ أحد الفريقين كان على خطأ، إمّا عليّ وأنصاره، أو معاوية وأهل الشام وأصحاب الجمل[2]، بينما يرى زيد أنّ عليّا وأنصاره كانوا على صواب، ولم يمنعه اختلافه مع واصل من الصُحبة العلميّة، فتكوّن لديه زاد علميّ في القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشّريفة وعلم الكلام حتى عرف بحليف القرآن، من ذلك ما رواه أبو الجارود قال: «قدمتُ المدينة فجعلتُ كلّما سألت عن زيد بن علي قيل: ذلك حليف القرآن»[3]، حتى أحبّه المتكلّمون والعباد نظرا لاستقامة اخلاقه وورعه ونزاهته العلميّة واحترامه لآراء خصومه، وقد ذكر محمد بن أيّوب الرافقي فقال: «كانت المرجئة وأهل الشّك لا يعدلون بزيد أحدا»[4].

---

1) أبو زهرة: الإمام زيد، ص222.

2) الشهرستاني: الملل والنحل: 1/249.

3) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص130.

4) المصدر نفسه، ص128.

2/ فصاحته:

يمتاز زيد بن علي بفصاحة وتأثير في السّامع، وهي ميزة اتّصف بها أغلب آل البيت، وقد اعترف الخليفة الأموي" هشام بن عبد الملك بهذه الفصاحة في رسالته إلى واليه على العراق يوسف بن عمر الثّقفي طالبا منه طرد زيد من مدينة الكوفة لأنه قادر على جلب الأنصار بحلاوة منطقه وقدرته على صوغ الحجج الدامغة ممّا يُدلي به من قرابته لرسول الله ﷺ، لقوم آلوا على أنفسهم أن يخلصوا في محبّة آل البيت فينقادون إليه. ويقول هشام في هذه الرسالة: «فقد علمت بحال أهل الكوفة في حبّهم أهل هذا البيت، ووضعهم إيّاهم في غير موضعهم لأنهم افترضوا على أنفسهم طاعتهم... وقد قدم زيد بن علي على أمير المؤمنين في خصومة عمر بن الوليد ففصل أمير المؤمنين بينهما ورأى رجلا لسنا خليقا بتمويه الكلام وصوغه واجترار الرجال بحلاوة لسانه وبكثرة مخارجه في حججه، وما يدلي به عند لدد الخصام من السطوة على الخصم بالقوّة الحادّة لتيل الفلج، فأجعل إشخاصه إلى الحجاز ولا تُخلّه والمقام قبلك فإنّه إن أعاره القوم أسماعهم فحشاها من لين ألفاظه وحلاوة منطقه مع ما يدلي به من القرابة برسول الله ﷺ وجدهم مُيّلا إليه غير متّئدة قلوبهم ولا ساكنة أحلامهم ولا مصونة عندهم أديانهم»[1]. ثمّ يأمره أن يكون به رفيقا عند إخراجه من الكوفة وأن يتجنّب حقن الدماء لا حبّا فيه وإنّما حفظا لاستقرار حكمه[2].

وتظهر فصاحة زيد بن علي أيضا في خصومته حول صدقات فاطمة مع ابن عمّه جعفر بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، فكان زيد يدافع عن بني الحسين وجعفر يدافع عن بني الحسن، وكانا يتبالغان في الخصومة كلّ مبلغ «ثمّ يقومان فلا يعيدان ممّا كان بينهما حرفا»[3].

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 265/8.

2) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

3) المصدر نفسه.

وذكر الطّبري[1] أنه لمّا مات جعفر بن الحسن قال أخوه عبد الله: «مَنْ يكفينا زيدا قال: حسن بن حسن بن حسن: أنا أكفيكه قال: كلاّ إنا نخاف لسانك ويدك ولكنّي أنا، قال: إذن لا تبلغ حاجتك وحجّتك! قال: أمّا حاجتي فسأبلغها»، واقتحم عبد الله ميدان الجدال مع زيد فكانا ينثران ذرر البلاغة والناس من حولهما يدوّنون عنهما أقوالهما لتأثيرها في السّامع والقارئ[2]، ومن ذلك ندرك فصاحة زيد بن علي وقوّة حججه، إذ بمجرّد موت جعفر بن الحسن اجتمع الأخوة لاختيار من ينوبهم في خصومة زيد ابن عمّهم ولمّا عرض الحسن نفسه ليقوم بهذه المهمّة، قال له عبد الله: «إذًا نخاف لسانك ويدك»، ممّا يُفهم منه أنّ الحسن كان لاذعا مع خصومه يشتمهم ويسبّهم وإذا اشتدّ النزاع ربّما يمدّ يده لخصمه بالضرب، والجدال لا يقتضي هذا وإنما يتطلّب رجلا فصيحا عارفا باختيار الكلمة المناسبة للمعنى المناسب ولا يسبّ خصمه أو يعيّره أو يضربه وإنّما يقرعه بحججه الدامغة دونما مساس بكرامته فيكون الانتصار للحق وللحجّة لا انتصار سبّ ولعن ونيل أعراض، يلتجئ إليه العيي ومن تعوزه الأدلّة أو صاحب السلطة الظالم إذا واجه خصما له من الرعيّة لا حول له ولا قوّة إلاّ في حقه الواضح وضوح الشمس في رابعة النهار، مثلما فعل هشام بن عبد الملك عندما أهان زيدا بأمّه السنديّة متّهما إيّاه بطلب الخلافة والسّعي وراءها[3].

ورغم ما أخذه عبد الله على نفسه عندما تقدّم على أخيه الحسن من التزام الجدل الحق في خصومة زيد فقد انزلق إلى السبّ والشتم وتوجيه الإهانة للأخير بأمّه السنديّة أيضا[4]، ورغم ما كانا يتبالغان به فقد كانا ينهضان وكأنّ شيئا لم يكن بينهما ويسرع عبد الله إلى دابّة زيد ممسكا بها ومساعدا إياه على الرّكوب. قال صاحب "مقاتل الطّالبيين": «كان بين زيد بن

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 265/8.

2) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

3) اليعقوبي: التاريخ الكبير: 56/3.

– الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 263/8.

4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 262/8.

– ابن الأثير: التاريخ الكامل: 85/5، وبهامشه : مروج الذهب للمسعودي، مطبعة التحرير، مصر، سنة 1303هـ.

علي وعبد الله بن الحسن مناظرة في صدقات علي فكانا يتحاكمان إلى قاض من القضاة فإذا قاما من عنده أسرع عبد الله إلى دابة زيد فأمسك له بالرّكاب»[1].

وروى أيضا عن عبد الله بن جرير قال: «رأيت جعفر بن محمد يمسك لزيد بن علي بالرّكاب ويسوّي ثيابه على السّرج»[2].

3/ تديّنه:

كان زيد بن علي مخلصا لدينه فهو حليف القرآن، وهو الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر وهو الذي طرح ثوب التقيّة جانبا وواجه بني أميّة بالسّيف لظلمهم للرعيّة حتى استشهد في سبيل الحقّ، وهو العابد الذي تظهر على جبهته سمة السّجود خفيفة، وقد ذكر الأصفهاني راويا عن محمد بن الفرات قال: «رأيت زيد بن علي وقد أثّر السجود بوجهه أثرا خفيفا»[3]، لا أثرا متعمّدا لحاجة في النّفس كما يفعل بعضهم قديما وحديثا[4].

وإلى جانب ذلك كان زيد بن علي منتهيا عن المعاصي لم يهتك لله محرما طيلة حياته، وقد روى أبو قرة فقال: «خرجتُ مع زيد بن علي ليلا إلى الجبان، وهو مرخي اليدين لا شيء معه، فقال لي: يا أبا قرّة أ جائع أنت؟ قلت: نعم، فناولني كمثراة ملء الكف ما أدري أريحها أطيب أم طعمها، ثم قال لي: يا أبا قرّة أتدري أين نحن؟ نحن في روضة من رياض الجنّة، نحن عند قبر أمير المؤمنين علي [بن أبي طالب]، ثم قال لي: يا أبا قرة

---

1) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص129.

2) المصدر نفسه، ص129.

3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4) يتعمّد بعض النّاس قديما وحديثا وضع العقاقير أو الثوم على الجبهة وحكّها على مكان السّجود وإدامته، لا تعبّدا وإنما لإظهار سيماء السجود أمام الغير لحاجة في نفس يعقوب وتنطبق عليهم الآية الكريمة الواردة في هذا المعنى فتبدو العلامة أحيانا مشوّهة فيها أثر يد الصنعة البشريّة، والعلامة الطبيعيّة هي التي تظهر خفيفة وينطبق عليها قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح الآية 29].

والذي يعلم ما تحت ورد زيد بن علي، إنّ زيد بن علي لم يهتك لله محرما منذ عرف يمنيه من شماله، يا أبا قرة من أطاع الله أطاعه ما خلق»[1].

وكان من الذين تذوب أنفسهم حبًا في الله ويغشى عليه عند ذكره حتى يداخل الحاضرين الشكّ هل هو حيّ أم ميت؟ من ذلك ما رواه عاصم بن عبيد الله العمري قال: «رأيته بالمدينة وهو شابّ، يذكر الله عنده فيُغشى عليه حتى يقول القائل: ما يرجع إلى الدنيا»[2].

وقال محمد بن أيوب الرافقي: «كانت المرجئة وأهل النسك لا يعدلون بزيد أحدا»[3]، مما يدلّ على أنّ زيد بن علي كان يرى رأي مرجئة أهل السنّة في مرتكب الكبيرة حيث أرجئوا أمره إلى الله، لا مرجئة البدعة فهم الذين أطمعوا الفسّاق في عفو الله بدون توبة.

4/ فراسته:

إنّ كلّ الذين يتزعّمون القيادات السياسيّة أو العسكريّة لا بدّ أن تكون لهم قوّة فراسة لشمّ الأمور وإدراكها قبل وقوعها، وقد يصدق حدسهم فيما توقّعوا فيزدادون عظمة في نفوس أتباعهم، وقد لا يصدق، ولكنّه لا يحطّ من مكانتهم في نفوس أتباعهم باعتباره قد يتسبّب في خسارة معركة حربيّة أو خسارة معركة تنمويّة، وما دامت النية سليمة فخسارة معركة لا يعني خسارة الحرب من أجل المبادئ الصادقة.

وتتكوّن قوّة الفراسة من:

- قوّة العقل
- قوّة الإحساس
- كثرة التجارب

---

1) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص128.

2) المصدر نفسه، ص128.

3) المصدر نفسه، ص128.

وقد اجتمعت هذه الصفات في زيد بن علي فهو يمتاز بعمق الأفكار وقوّة التأمّل والذكاء الحادّ وهي صفات طبيعية ورثها عن أمه السنديّة وقد عُرف بها الهنود.

وورث عن آل أبيه العلم والاستقصاء والتقوى والعمل الصالح، ومن ذلك ما أدركه بفراسته عندما تخاذل عنه أهل الكوفة بعد أن بايعه منهم خمسة عشر ألفا –وقيل أربعين ألفا– فقرّر أنها حسينيّة ! (1)، ويعني أنّ مأساة جدّه الحسين –ﷺ– ستتكرّر معه. ولقائل أن يقول: لماذا لم يدرك بالفراسة والتجربة قبل المعركة –خاصة وقد نصحوه بعدم التعويل على الكوفيين– لأنّهم معروفون بنكث العهد وأنهم سيخونونه كما فعلوا مع جدّه علي بن أبي طالب وجدّه الحسين بن علي؟

وللجواب على ذلك نقول: إنّه كان مضطرّا إلى محاربة هشام بن عبد الملك وقد أدرك بفراسته حال اجتماعه به وإهانة الأخير له –(لأنّه بلغه عنه أنّه ينكر الخلافة ويتمناها بالرغم عن كونه ابن أمة)– أدرك بفراسته أنه يضمر له شرّا، وأنّه لا محالة قاتله غدرا ومكيدة على عادتهم مع خصومهم الذين يتوقّعون ثورتهم يوما ما، فقرّر أن يموت بشرف خير له من أن يموت جبانا، ومن يدري فلعلّه ينتصر فيقلب وجه التاريخ الإسلامي وتزول دولة الظلم، وذلك ما كان ينبغي، وقديما قال الشاعر:

وإذا لم يكنْ منَ الموتِ بدٌّ ** فمنَ العجزِ أنْ تموتَ جبانا

وقال آخر:

إذا غامرتْ في شرفٍ مَـروم *** فلا تَقْنَعْ بمـــا دونَ النّجـومِ

فطَعْمُ الموتِ في أمرٍ حقيـرٍ *** كطعْمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يثق زيد بن علي في القلّة من أتباعه على تحقيق

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 5/501؛ حقّقه نخبة من العلماء، مطبعة الأستانة، القاهرة، سنة 1358هـ/1939م، مقابلة على نسخة ليدن 1879.

– ابن الأثير: التاريخ الكامل: 5/89...90.

النصر على الكثرة من أهل الشام لأنهم على خطأ وهم على صواب، ولذلك عُدّ خروجه في قلّة من أتباعه كخروج جدّه محمد ﷺ في قلّة من أصحابه يوم بدر –والمثل الأعلى لرسول الله ﷺ[1].

5/ صبره:

كان زيد بن علي صبورا مصابرا ولا أدلّ على ذلك من نقشه الحكمة التالية على خاتمه: «اصبِرْ تُؤجَرْ، وتوقَّ تنجُ»[2]، ولذلك صبر وصابر وخاطب هشام بن عبد الملك: «يا أمير المؤمنين!» تقيةً.

وعندما أدرك أنّ بني أميّة استغلّوا خصومته مع ابن عمّه عبد الله بن الحسن حول صدقات فاطمة، قال للأخير: «لا تعجَلْ يا أبا محمد[3] أعتق زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبدا»، ثمّ التفت إلى والي المدينة قائلا: «يا خالد! لقد جمعتنا على شيء لم يكن يجمعنا عليه أبو بكر ولا عمر»، فاغتاظ الوالي وخاطب الحاضرين: «منْ لهذا السّفيه؟»، فتعرّض له أنصاري بالشتيمة قائلا: «يا ابن أبي تراب وابن حسين السّفيه أما ترى لوالٍ عليك حرمة»، فصبر زيد بن علي ولم يزد على أن قال له: «مِثْلي لا يردّ على مثلك!»، فقال: «فوالله إني لخيرٌ منك نفسا وأبا وأما»، فتضاحك زيد وتلك أيضا من علامة صبره وقال: «يا معشر قريش هذا الدين قد ذهب، أ فذهبت الأحساب، فوالله إنه ليذهب دين القوم وما تذهب أحسابهم»[4]، فتكلّم أحد أحفاد عمر بن الخطاب وهو عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر

---

1) أبو زهرة: الإمام زيد، ص60 (روى ذلك عن أبي حنيفة في مناقبه).

2) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص132.

3) هو عبد الله بن الحسن أبو محمد بن عبد الله المعروف بصاحب النفس الزكية، قُتل سنة 145هـ على يد الخليفة العباسي المنصور.

4) فلا تذهب وبنسبها النفس، ويقصد أنّ نسبه (أي نسب زيد) معروف ونسب الأنصاري معروف، وفي واقعا لأمر كلاهما نسبه شرف –حسب زيد ونسب هذا الأنصاري الذي نصر جدّه محمدًا ﷺ– ولكن جزى الله المصائب التي جعلت أمر المسلمين يؤول إلى هذه الحالة فيتشاتمون بإرساء للسلطة القائمة، ولئن كان زيد في هذه الخصومة عفيفا لم يقل من أنصارية الرجل وإنما دلّه يلطف في نسبه الاجتماعي، كأنه يقول: «أنا جدّي نبي وأنت من هو جدّك أليس أنصاريًا».

بن الخطاب وقد أخذته الحميّة للدفاع عن زيد، وقال: «والله لزيدٌ خيرٌ منك نفسا وأبا وأمّا» وتناوله بكلام كثير، ثم أخذ كفا من حصباء وضرب به الأرض غاضبا وقال: «والله ما لنا على هذا من صبر» [1]، ويذكّرنا موقف حفيد عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– مناصرا لزيد بغضبات جدّه عمر في الحقّ وكيف كان الرسول ﷺ يقابل غضباته بالصّبر والهدوء حتّى يقنعه بما فيه خير الإسلام والمسلمين.

ولا غرابة بعد هذا أن نجد زيد بن علي صبورا فهو الذي تخرّج من مدرستين ضربتا أروع الأمثلة في الصّبر... تخرّج من مدرسة جدّه محمد ﷺ وقد صبر وصابر مع الكفّار والمنافقين ولم يزد عن القول عندما آذوه: «اللهمّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون»، وتخرّج من مدرسة جدّه لأبيه علي بن أبي طالب –كرّم الله وجهه– وقد صبر على مدى ثلاثة خلفاء وهم أبو بكر وعمر وعثمان –رضي الله عنهم– وكان يظنّ مع آل البيت أنّ لهم في الأمر شيئا[2]، ولكنه لم يعيّن خليفة، ولم يرفع سيفا إلاّ لمّا علم أنّ خصمه معاوية قد حاد عن الصّواب وطلب الدنيا بسعيه وراء الخلافة، ويوم عيّن عبد الرحمان بن عوف عثمان بن عفّان خليفة من ضمن ستّة الشورى وكان هو من بينهم يرى نفسه أولى بها ويرى رأيه بقيّة الستّة لم يزد يومها على أن قال: «ليس هذا أوّل يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله

–كما ذلّه أيضا في نسبه القحطاني قبل الإسلام قائلا له –كما أورده الطبري–: «أسكت أيها القحطاني فإنا لا نجيب مثلك»، لأنّ القحطانيين من العرب العاربة وآل البيت من العرب المستعربة المنحضرة والحنيفة، وفي مرتبة ثالثة بعد محمد ﷺ وبعد المهاجرين ثم الأنصار، وازره ابن واكد حفيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قال للأنصاري «كذبت أيها القحطاني فوالله إنه لخير منك نفسا وأبا وأمّا وجدّا، يعني محمدا»، وتناوله بكلام كثير. [الطبري: 8/263].

ومن ذلك تفهم ما آل إليه أمر المسلمين من تنكّر لبنيهم، ولا أدلّ على ذلك من وصف أنصاريّ جدّه ناصر رسول الله ﷺ وانشد: "طلع البدر علينا" في الهجرة، وناصره مع المهاجرين، [illegible] هذا الأنصاري يصف عليا –رضي الله عنه– الذي ضرب أروع الأمثلة في الهجرة وعرّض نفسه للموت عندما نام في فراش ابن عمّه وصهره محمد ﷺ، يصفه بكنية تحقيرية قائلا: «يا ابن أبي تراب»، ويصف ابنه الحسين الذي استشهد في سبيل الحق ومثّل جدّه خاتم الأنبياء بـ«محسن السّقيه»، ولذلك علق زيد بأنّ دين القوم قد يذهب ولا تذهب أحسابهم، فقريتنكر المسلمون لذلك لدينهم ولا يمكن أن يتنكّروا لأحسابهم.

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 8/262–263.

2) الحافظ بن كثير: البداية والنهاية: 5/286، ط2، مكتبة المعارف، بيروت، سنة 1977م.

المستعان على ما تصفون»[1].

وبين هذا وذاك فقد نُسبت إليه أقوال مأثورة في الصّبر ومنها قوله: «إنْ ضيّعت نفذ أمرَ الله وأنتَ مأجور، وإن لم تصبرْ نفذ أمر الله وأنت موزور» [2].

6/ شجاعته:

ومن أهمّ صفات زيد بن علي التي أهّلته للثّورة شجاعته، فقد بايعه خمسة عشر ألفا وقيل أربعون ألف مقاتل وحلفوا له بالأيمان المغلظة أن ينصروه، ولمّا حان موعد الحرب لم يجد منهم إلا مائتين وثمانية عشر (218) رجلا، فقال زيد: «سبحان الله! أين الناس؟ » فقيل له: في المسجد محصورون فقال: « لا والله! ما هذا لمن بايعنا من عُذر!»[3]، وهي مكيدة دبّرها له والي العراق يوسف بن عمر الثقفي بأن حصر الكوفيين في المسجد حتى لا يتمكّنوا من القتال مع زيد في الموعد المحدّد.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ مبايعيه من الكوفيين تعمّدوا حصر أنفسهم في المسجد متظاهرين بأنّهم أُجبروا على ذلك لأنهم نكثوا بيعة زيد بن علي بسبب توليه للشيخين[4] وبعضهم من الشيعة المغالين كفّروا الشيخين وعثمان –هم– فلمّا لم ينلهم زيد بسوء –كما يريدون– تخلّوا عنه، والمتطرّفون قد يؤثرون في الأغلبيّة المعتدلة حسب غاياتهم وأهدافهم.

ويذكر الطبري مثالا لتراجع أحد هؤلاء في بيعته لزيد بن علي ولعلّه أحد القادة لأنه لا يمكن أن يتصل زعيم بأية ثورة بأربعين ألف رجل أو حتى خمسة عشر ألفا فردا فردا «وإنما يتّصل

---

1) ابن الأثير: التاريخ الكامل: 53/3. وبهامشه: تاريخ الودعي، المطبعة الأزهرية المصرية، سنة 1301هـ.

2) أبو زهرة: الإمام زيد، ص94.

3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 264/8؛ 499/5.

–ابن الأثير: التاريخ الكامل: 86/5–89.

4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 498/5.

الجماعة. وإذا تراجع القادة فيعني ذلك أنّ جنودهم لن يكونوا في المعركة، ولنا أن نتصوّر الحالة النفسيّة التي يكون عليها زعيم الثورة في مثل هذه الظروف. ويقول الطبري: «وانتهى زيد بن علي إلى باب دار رجل من الأزد يُقال له أنس بن عمرو وكان فيمن بايعه فنودي وهو في الدار فجعل لا يجيب، فناداه زيد: يا أنس! أخرج إليّ رحمك الله فقد جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا، فلم يخرج إليه، فقال زيد: ما أخلفكم! قد فعلتموها! الله حسيبكم!»[1]. يعني كرّرتم فعلتكم مع جدّي علي ضد معاوية، وجدّي الحسين ضدّ يزيد بن معاوية[*2].

ورغم تخلّي هذا العدد الضخم عن بيعة زيد بن علي ورغم الحالة النفسيّة السيّئة التي كان عليها فقد عزم على مواصلة الثورة لأنّ هشاما إذا كان سابقا ينوي قتله غدرا لأنه يخشاه رغم عدم إعلانه الثورة فإنه الآن سيقتله حتما بالغدر أو بالعلن لأنّ خروجه أصبح حديث الناس، ومع كلّ ذلك فقد مضى زيد في عدده القليل إلى مكان بالكوفة يقال له 'جبّانة الصائدين' فحمل على جماعة من أهل الشام هناك فهزمهم وعددهم خمسمائة ثم حمل على جماعة أخرى في مكان يقال له "الكناسة" (كناسة الكوفة) فهزمهم أيضا، وكان جلّ الذين ثبتوا معه في المعركة ولم يخونوه من الفقهاء[3] والعلماء والقرّاء الذين ألوا على أنفسهم أن يوفوا بالعهد، وعدم تراجعه في قتال الأمويين رغم كلّ الظروف الصّعبة التي أحاطت به، يدلّ على شجاعته.

ويتحدّث زيد بن علي عن نفسه عندما خرج على بني أميّة فقال: «والله ما خرجتُ ولا قمتُ مقامي هذا حتى قرأتُ القرآن وأتقنتُ الفرائض وأحكمتُ السنّة والآداب وعرفت التأويل

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 264/8؛ 499/5.

– ابن الأثير: التاريخ الكامل: 500/5.

*) هذا ما يُعرف في علم النفس الحديث، وعلم الجينات بقاعدة 'ذاكرة الجد' يعني أنّ الأحفاد قد يرثون عن أجدادهم الأعلين واللاّحقين صفاتهم أو بعضها والتربية والملازمة دور الإصلاح أو عكسه.

3) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص148.

كما عرفت التنزيل وفهمت الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والخاص والعام وما تحتاج إليه الأمة في دينها ممّا لا بدّ منه، ولا غنى عنه، وإني لعلى بيّنة من ربّي»[1]، ممّا يدلّ على أنّ زيد بن علي يشترط في الإمام الخارج على السلطان الجائر شروطا منها أن يكون عالما بلغ درجة الاجتهاد. إلى جانب إدراكه بأسرار الحرب والقتال، عالما بشؤون الدّين والدّنيا.

7/ صباحة وجهه:

صفات زيد بن علي المذكورة سابقا والتي أهّلته لقيادة الثّورة والخروج على بني أميّة هي صفات مكتسبة بما فيها صفة الفراسة لأنها تشمل عناصر وراثيّة وعناصر مكتسبة، وهي كثرة التجارب ولا تحصل إلاّ بالعمل والإقدام وعدم الخوف من الفشل. وكان إلى جانب صفاته الخُلُقيّة هذه له صفات خَلْقيّة –أو فطريّة إن شئنا– ومنها: صباحة وجهه أو الوسامة وحسن التقاطيع، وتناسق الخِلْقة البشرية وهي صفات تجعل الناظر إلى صاحبها يشعر نحوه بوداعة وميل وعدم الملل من مجالسته والنظر إليه والانسياق وراءه في طلباته وطاعته، وتعتبر من مكمّلات الشخصية، حتى أنّ بعض الرؤساء إن لم نقل جلّهم أو كلّهم، يحاولون الجمع بين الكفاءة والصفات الخَلْقيّة الطيّبة في اختيار وزرائهم، عدا البعض الذين كسبوا شخصياتهم بأعمالهم الشهيرة في قومهم فيصبح هؤلاء يحترمونهم رغم لباسهم المتواضع أو الشعبي أو رغم النّقص في صفاتهم الخَلْقيّة[2]، بينما العامّة من الناس تسعى إلى الظهور بمظهر لائق أمام الغير من أجل خلق شخصية محترمة.

---

1) ناجي حسن : ثورة زيد بن علي، مطبعة الآداب، النجف-بغداد، ط1، سنة 1386هـ/1966م، بحث تقدّم به صاحبه لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من جامعة بغداد، ص39.

2) فمن ينكر مثلا أن هشام بن عبد الملك الذي تولّى الخلافة ما يقرب من عشرين سنة(105هـ–125هـ) كان محترما ويتمتّع بشخصية وقّادة رغم حول عينيه. أنظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 252/8.

ومن ينكر أيضا أن الزعيم الهندي المعاصر غاندي كان يتمتّع بشخصية نفّاذة جعلت شعبه يقلّد إثبه بصفة عجيبة رغم لباسه المتواضع، وهو عبارة عن لباس شعبي هندي يجعل جزءا من جسم لابسه عاريا، ولو ظهر غير غاندي بهذا اللّباس لتعرّض على سخرية الناس واهتزاز كبير في شخصيته...

وعلى كلّ فصباحة وجه زيد بن علي جعلته محبوبا مأنوسا إليه وهي إحدى الصفات التي تشترطها فرقة زيديّة في الإمام وهي "الفرقة الصالحيّة والبتريّة"[1]، وقد ذكر صاحب "مقاتل الطالبيين" هذه الصفة قائلا: «كنتُ إذا رأيت زيد بن علي رأيت أسارير النور في وجهه»[2].

وإلى جانب صباحة وجهه كان زيد بن علي بدينا وهي الصفة الغالبة على أئمّة أهل البيت نتيجة حسن معيشتهم وراحتهم، وبدانة زيد هذه لم تعقه عن قيادة المعركة والانتصار في لقائين على جيوش الشام بالرغم عن كون البدانة تعيق صاحبها عن سرعة الحركة، والمطلوب في القادة الذين يديرون المعركة فكريّا وعمليّا ان يكونوا رشيقي الأبدان رغم أنفهم لكثرة حركتهم، لا القادة الذين يديرون المعارك نظريّا داخل مراكز القيادة، ومع كلّ ذلك فبدانة زيد بن علي لم تعقه -كما قلنا- عن المشاركة في المعركة بسيفه والانتصار في بدايتها رغم القلّة من جنوده وهي أيضا من ميزات شجاعته، وقد روى الطبري في صفته هذه ما نصّه: «لمّا قدم زيد بن علي على هشام بن عبد الملك أعلمه حاجبه فرقى هشام إلى علية ثم أذن له، وأمر خادما أن يتبعه قال: لا يرينّك واسمع ما يقول، قال: فأتبعته الدرجة وكان بادنا، فوقف في بعضها فقال: والله لا يحبّ الدنيا أحد إلاّ ذلّ»[3].

---

1) الشهرستاني: الملل والنحل: 217/1 على هامش كتاب "الفصل" لابن حزم، ط1، مصر، مطبعة التمدن سنة 1321هـ.

2) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص127.

3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 263/8.

- ابن الأثير: التاريخ الكامل: 85/5.

عصر زيد بن علي

****

الأسباب التي ذكرناها سابقا هي أسباب داخلة في شخصيّة زيد بما فيها من صفات فطريّة ومكتسبة ولذلك دعوناها أسبابا داخليّة .

أمّا الأسباب الخارجة عن شخصية زيد بن علي والتي ساعدت على قيام ثورته فهي أسباب تتّصل بالظروف التي عاشها والعصر الذي فرض عليه الخروج على بني أميّة بما فيه من متناقضات: ظلم، محاباة، وتهتّك ومجون، واستخفاف بالدّين...

والأسباب التي تتّصل بعصر زيد بن علي كثيرة ولكن نستطيع أن نقتصر على أهمّها وهي التالية –حسبما يبدو لي–

1. الأسباب الاقتصادية:

نقتصر فيها على ذكر محاباة بني أميّة الشاميين على العراقيين، وذلك أمر طبيعي بالنسبة إليهم لأنّ الشاميين هم الذين قامت الدولة الأمويّة على أكتافهم، ولذلك أجزل لهم بنو أميّة العطاء فكانت أعطياتهم تفوق أعطيات العراقيين بصفة عامّة، أمّا المشايعون منهم لآل البيت فقد حرموهم من تلك الأعطيات والويل لمن تثبت عليه صفة مناصرة آل البيت، حقّا أو باطلا أو ألصقت به إلصاقا نتيجة أغراض شخصيّة فإنّه يتعرّض إلى إنزال شتّى أنواع التعذيب به وربّما القتل، وحرمان أهله.

أضف إلى ذلك أنّ معاوية بن أبي سفيان نقل عاصمة الخلافة من الكوفة إلى دمشق بمجرّد انتصابه خليفة للمسلمين، وفي هذا ما فيه من ازدهار اقتصادي للعاصمة الجديدة وكساد للقديمة، وكان العراقيون يتمتّعون بامتيازات مالية كثيرة في عهد الإمام عليّ فأصبحوا تابعين لا متبوعين، وأثقل بنو أميّة كاهلهم بالضرائب، وخاصة بعد فشل ثورة يزيد بن المهلّب في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك (101هـ/719م–105هـ/723م)، وارتفاع الضرائب مع

غلاء الأسعار الفاحش يؤديان حتما إلى الثورة على النظام القائم، وقد صرّح بذلك والي هشام على العراق خالد القسري (105هـ-120هـ)[1] قائلا في إحدى خطبه على العراقيين: «تزعمون أنّي أغلي أسعاركم فعلى من يُغلّيها لعنة الله! »[2] ويقصد بلعنته هشام بن عبد الملك الذي ملك ضياعا خصبة كثيرة في العراق وأمر خالدا أن يزرع فيها الباكورات ويقدّمها للبيع قبل منتوجات الوالي نفسه، وقبل منتوجات الفلاحين والعراقيين فأصبحت بذلك الأسعار الغذائية غالية، وهذه إحدى الأسباب التي عجّلت بعزل خالد القسري عن العراق لأنه يزاحم الخليفة بضيعاته الفلاحية وبمنتوجاته الكثيرة.

2. الأسباب الاجتماعية:

نتعرّض في الأسباب الاجتماعيّة إلى: النّزاعات القبليّة لأنّ شخصيّة الرسول ﷺ كانت قويّة ونفّاذة كما كانت سياسته المرنة مع القبائل المتطاحنة والتي دخلت إلى الإسلام، سببا في انمحاء العصبيّات القبليّة كلّها أو جلّها أو على الأقلّ خمودها.

وكان لظهور الإسلام في بني هاشم ومنهم النبيّ ﷺ أن حسدهم بنو أميّة فعارضوا الدّين الجديد لأنه سيرفع من شأن مناقسهم -حسب مفهومهم الضيق للإسلام- .

وجاء فتح مكّة (سنة 8هـ/630م) فوضع حدّا لذلك الصراع العنيف الذي كان يدور بين بني هاشم وبني أميّة إذ بمجرّد دخول الجيوش الإسلامية الفاتحة إلى مكّة نادى المنادي بأمر من الرسول عليه السلام: «مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن»، ولذلك كلّه لم تظهر الخلافات القبليّة في عهد الرسول ﷺ ولا في عهد أبي بكر وعمر إذ أنّ كلاً من الشيخين لا ينتمي إلى عائلة بني هاشم أو بني أميّة، وكلا منهما استعمل بني أميّة في الأعمال المختلفة على النحو الذي

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 8/253-255.

- ابن الأثير: التاريخ الكامل: 5/82.

2) ابن الأثير : 5/87 نقلاً عن ناجي حسن: ثورة زيد، ص73.

سار عليه رسول الله ﷺ فلم يحاب هاشميّ على أمويّ أو أمويّ على هاشميّ وكذلك كان الشأن مع بقيّة القبائل، وظهرت بوادر الصراع بقتل عمر بن الخطاب ومبايعة عثمان بن عفان خليفة للمسلمين سنة (23هـ/643م) واستمرّ إلى سنة (35هـ/655م)، وكان ﷺ ضعيفا مع أقاربه مولعا بهم يُغدق عليهم الهدايا والمناصب، فمستشاره هو مروان بن الحكم[1]، ووالي الشام معاوية بن أبي سفيان، ووالي الكوفة الوليد بن عقبة (26هـ/646م- 30هـ/650م)، ووالي مصر عبد الله بن أبي سرح (25هـ/645م- 35هـ/655م)، وهذا ما كان متوقّعا من تسليط الأمويين على رقاب الناس وخاصة...، والمعروف عن عثمان بن عفّان أنه كان يقول: «لو أنّ بيدي مفاتيح الجنة لأعطيتها بني أميّة حتى يدخلوها آخرهم»، ولمّا كان يُلام على محاباته بَنِي أميّة كان يستشهد بالقرآن الكريم وبالسنّة النبويّة التي تحثّ على إكرام ذوي القربى وصلة الرّحم. ويعلم الجميع أنّه لما التصرّف في هذه الثروة الوافرة والباقية من الخمس، وبعد أن سعى لعامة المسلمين وخاصتهم من الجند والصحابة أعطياتهم- لما التصرّف بما يراه صالحا لأنه فلن يكون خليفة المسلمين

أضف إلى ذلك أنّ المسلمين ارتكبوا -حسبما يبدو لي- خطأ بتعيينهم عثمان بن عفّان خليفة وهو المعروف باللّين بعد عمر بن الخطاب وهو المعروف بالشدّة في الحقّ والانتقال المفاجئ من حالة إلى نقيضها تكون له عادة عواقب وخيمة[2]. والذي يحتمل عليه المسؤولية التاريخية هو الصحابي عبد الرحمان بن عوف الذي قدّم عثمان بن عفان للخلافة

ولمّا انتقل الحكم إلى بني أميّة وبالخصوص في عهد الخليفة عبد الملك وابنه هشام (105هـ-125هـ) بلغت الصراعات القبليّة أوجها إذ قضى الأمويون على ثورة يزيد بن المهلّب التي قامت سنة 102هـ كما قضوا عليه وعلى أسرته وجيء بنساء آل المهلّب فحُبسن في دمشق وعُرضن للبيع، وهو عمل مخالف للتقاليد الإسلاميّة التي لا تجيز استرقاق المسلم لأخيه المسلم، وهكذا ضرب الأمويّون عرض الحائط خدمة آل المهلب لهم في تثبيت ملكهم، فبالأمس القريب كان المهلّب بن أبي صفرة قائد الأمويين في القضاء على الخوارج وإجلاء البعض منهم وكسر شوكة البعض الآخر، واليوم تُباع نساؤه في السوق؛ ولمّا كان آل

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 125/5.

2) أنظر: نشأة التشيع، الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث.

المهلَّب يمانيين من قبيلة "أزد" فقد انضمّ إليهم في ثورة يزيد بن المهلب قبائل "ربيعة" و"تميم" وكلّ من كان يمانيا لأنّ ولاة بني أميّة كانوا قيسيين ضدّ اليمانيين وقد ضرب مسلمة بن عبد الملك (المتوفى سنة 120هـ/737م) وهو القائد الذي قضى على ثورة يزيد بن المهلب –رقاب عدد غير قليل من الأسرى[1]– وكان من نتيجة ذلك أن توتّرت العلاقات بين هذه القبائل وبين الامويين وفيما بين هذه القبائل بعضها البعض، ولم يجن الأمويون من كلّ ذلك إلاّ الحقد الذي ظهرت آثاره في ثورة خراسان على الحكم الأموي[2]، وجاء هشام بن عبد الملك ليتربّع على عرش قائم على الفوضى والاضطرابات فبدلا من أن يتّبع سياسة حكيمة تلطّف من الصراعات القبليّة ارتكب خطأ فادحا بعزله عمر بن هبيرة عن ولاية العراق (سنة 105هـ/723م) وتعيين خالد القسري عليها، ولمّا كان عمر بن هبيرة قيسيًا فقد أصبحت القبائل القيسيّة مع القبائل اليمانية ومع ربيعة وتميم... ضدّ الدولة الأمويّة، أضف إلى ذلك بُغض هشام للقبائل اليمانية[3]، مما جعله يواجه مشكلة هذه القبائل الخطيرة....

وسلك هشام أيضا سياسة التعيين والعزل بين ولاة إفريقية والأندلس مما أثار القبائل على بعضها البعض، ولم تكن له غاية في ذلك سوى جمع المال من الإمبراطورية الإسلاميّة الممتدّة الأطراف، والوالي الذي يبعث بالهدايا ويجمع الجزية والخراج بمقدار أكثر[4] من غيره يستمرّ في وظيفة أو يُعزل فيعيّن غيره وهو يعلم مسبقا الشروط الضمنيّة لتعيينه.

وكان التضامن القبلي بين القيسيين والكلبيين واليمانيين في إفريقية والمغرب على أشدّه[5] سببه التزاحم على منصب الولاية، وهذا أحد الشعراء الكلبيين يصف الحالة هناك في رسالة بعث بها إلى هشام بن عبد الملك فيقول:

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 145/8.

2) المصدر نفسه، 38/8

3) المصدر نفسه، 180/8.

4) اليعقوبي: التاريخ الكبير : 51/3.

5) ناجي حسن: ثورة زيد بن علي، ص82-83.

أقادتْ -بني مروان- قيسا دماءنا *** وفي الله لمْ تعْدلوا حكم عدْلِ

كأنكمُ لم تشْهدُوا مرج راهطٍ *** ولم تعلموا منْ كانَ ثم له الفضْلُ

تعاميْتُمْ عنّا بيوْمِ جُليّةٍ *** أنتُمْ كذا ما قدْ علمنا لنا فعْلُ

فلمّا وصل هذا الكتاب إلى الخليفة هشام بن عبد الملك استبدل عبيدة بن عبد الرحمان القيسي السّلمي (حيث طلب إعفاءه من الولاية فأعفاه، وهو الذي ولاّه هشام إفريقية والمغرب (سنة 110هـ) استبدله بعقبة بن قدامة النجيبي (سنة 114هـ) واستبدل الأخير بعبيد الله بن الحبحاب (سنة 116هـ-132هـ)[1]، وكان ابن الحبحاب قيسيا صعبا على اليمانيين إذ بدأ ولايته بعزل العمّال الكلبيين عن إدارة الدولة. ويقول اليعقوبي في هذا ما نصّه: «وكان بشر بن صفوان عامل المغرب فلمّا ولي هشام بعث إليه بأموال عظام وهدايا فأقرّه هشام على إفريقية، فلم يزل بها حتّى مات، فلمّا مات بشر بن صفوان ولّى هشام إفريقية عبيدة بن عبد الرحمان القيسي، ولم يزل بها، فأغزى الناس في البحر فغنم غنائم كثيرة فخرج إلى هشام بأموال جليلة وعشرين ألف عبد فاستعفاه فأعفاه وولّى مكانه عقبة بن قدامة النجيبي فلم يقم إلاّ يسيرا حتى عزل، وولّى عبيد الله بن الحبحاب فغزا غزوات كثيرة... ثمّ ولّى حنظلة بن صفوان الكلبي...»[2].

وإذا كان هذا شأن القبائل في إفريقية والمغرب فكذلك كان الشأن بالنسبة للأندلس فقد عمّتها العصبيّة القبليّة والتّراحم على الحكم بين الكلبيين والقيسيين، ففي سنة 103هـ عُيّن عنبسة بن سحيم الكلبي واليا على الأندلس واستمرّ إلى سنة 107هـ، ممّا يدلّ على أنّ هشاما أقرّه عليها لمّا بويع بالخلافة سنة 105هـ فذاقت القيسيّة صنوف الأذى على يدي عنبسة الكلبي، ولمّا ولي عبيد الله بن عبد الرحمان السّلمي القيسي على إفريقيّة والمغرب (سنة 110هـ-114هـ) عيّن عمّالا قيسيين على الأندلس أوّلهم حذيفة بن الأحوص (سنة

---

*) هو مجدّد بناء جامع الزيتونة في التاريخ المذكور، وقد كان كنيسة في العهد الرومانيّ.

2) اليعقوبي: التاريخ الكبير: 3/51.

110هـ) ثم محمد بن عبد الله الأشجعي القيسي (سنة 111هـ)، وبذلك انفجر حقد القبائل القيسية على القبائل الكلبية بقدر ما نالهم على أيديهم من عذاب[1].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ أسلوب هشام في الحكم أسلوب قبليّ يبدو فيه حبّ الانتقام وإشفاء الغليل والثّأر ولو بالسبّ والشتم والحطّ من الخصم، وهو أسلوب لا يلتجئ إليه إلاّ الضّعيف -رغم قوّته وسلطته أحيانا- ومن تعوزه الحجّة العقليّة المقنعة.

وشخصيّة هشام شخصيّة متعصّبة لبعض القبائل دون الأخرى، معتزّة بشرف بني أميّة الذي اكتسبوه بحكم المسلمين، وبشرفه القرشيّ، مهينة لغيرها ممن أقلّ منها شرفا ونسبا.

ولقد ذكر الطبري أنّه عزل واليه على العراق خالدا القسري (سنة 120هـ) لعدّة أسباب من بينها أنّ خالدا أمّه نصرانيّة، وأنه من قبيلة بجيلة، وأنه -قيل- كان يذكر هشاما فيقول: «ابن الحمقاء» وكانت أمّ هشام "تستحمق"، كما أنه كان يتباهى أمام جلسائه قائلا: «ما ولاية العراق لي بشرف»، فكتب إليه هشام غاضبا حاقدا في أسلوب تظهر فيه العصبيّة القبليّة جليّة قائلا: «قد بلغني أنك تقول: ما ولاية العراق لي بشرف! فيا ابن اللّخناء[2*] كيف لا تكون إمرة العراق لك شرفا، وأنت من بجيلة القليلة الذليلة أما والله إني لأظنّ أوّل من يأتيك صغير من قريش يشدّ يديك إلى عنقك»[3]، ونرى من خلال هذه القولة كيف يتعزّ هشام بنسبه القرشي مستصغرا قبيلة بجيلة محقّرا إيّاها بالذلّة والقلّة.

وأحيانا يشتم هشام واليه على العراق خالدا القسري بابن النصرانيّة بالرغم عن كونه لا يجهل أنّ الإسلام أحلّ الزواج بالكتابيّة ولو كان الله يعلم أنّ في ذلك تحقيرا لما أحلّه.

وقد ذكر اليعقوبي أنّ هشاما كتب إلى خالد قائلا: «أما بعدُ فقد بلغني مقالتك، وإنما

---

1) ناجي، حسن: ثورة زيد بن علي، ص83.

*) اللّخناء: لَخِنَ الرجل ولَخِنت المرأة: أنتنت أرفاغيما، فهو لخِنٌ، وألخنُ، وهي لخِنة، ولَخناء. والرجل: قبح كلامه، فهو ألخنُ، وهي لَخناء. (المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1379هـ/1960م).

3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 251/8.

أنت من بجيلة الذليلة الحقيرة، وستعلم يا ابن النصرانيّة أنّ الذي رفعك سيضعك»[1].

3. الأسباب السياسيّة:

من الأسباب التي تتّصل بعصر زيد بن علي الأسباب السياسيّة وتتمثّل في عدّة أخطاء ارتكبها بنو أميّة في حقّ المسلمين ومنها:

أ- قتل حجر بن عدي الصحابي الجليل ﷺ:

ب- جعلهم الخلافة وراثيّة مقصورة على بني أميّة دون سواهم، فقد ابتدع معاوية بن أبي سفيان بدعة جديدة فأوصى من بعده بالخلافة لابنه يزيد (سنة 65هـ/683م)؛ وليس غريبا أن يجعل معاوية بن أبي سفيان الخلافة وراثيّة وقد حُكي عنه -بعد تولّيه الخلافة واستقراره بدمشق كعاصمة لها- أنه كان مقبلا على مطالعة كتاب "التاج الفارسي"[2] بكلّ تمعّن لينظّم دواوين الدولة الإسلاميّة ويطوّرها بحسب ما كان عليه الفرس من نظام محكم في الإدارة والتسيير والإشراف. ولمّا كان نظام الحكم الفارسي وراثيّا فقد تأثّر معاوية بذلك وحوّل الخلافة الإسلاميّة إلى ملك وراثي... تعصّبا لبني أميّة وانتقاما من بني هاشم لاستئثارهم بالسّيادة والرّسالة والنبوّة، وقتلهم لصناديدهم في غزوة بدر الكبرى (2هـ/624م) ك(عتبة بن ربيعة) والد هند زوجة أبي سفيان وقتل ابنه وأخيه.

وأوصى يزيد بن معاوية من بعده إلى ابنه معاوية بن يزيد...[3] وهكذا حرم بقيّة المسلمين من هذا الحقّ المشاع بينهم لأنّ الخلافة الإسلاميّة شورى واختيار يقوم به المسلمون عن طواعية وبدون ضغط وليست وصيّة وراثيّة من سابق إلى لاحق.

ج- الثورات: وإذا أضفنا إلى ذلك التطاحن القبلي الذي ذكرنا جانبا منه، والمتسبّبون

---

1) اليعقوبي: التاريخ الكبير : 3/54.

2) أستاذنا الدكتور الشابي في بعض محاضراته.

3) معاوية بن يزيد من خلال الطبري واليعقوبي.

فيه هم خلفاء بني أميّة بعد سكونه وخموده في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين الأربعة (ر.ض) -إذا أضفنا كلّ ذلك- أدركنا أسباب قيام الثورات على بني أميّة.

والذي يهمّنا هنا هو قيام ثلاث ثورات في الفترة التي تولّى فيها هشام بن عبد الملك الخلافة (105هـ/723م-125هـ/743م)[1] هي ثورة خراسان، وثورة إفريقية والمغرب، إلى جانب ثورة المترجم له: زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهي ثورات هدّت أركان الدولة الأمويّة، وسارعت بتقريب أجلها وقيام الدولة العبّاسيّة.

❖ ثورة خراسان: ونبدأ بالحديث عن ثورة خراسان لأنّ البلاد الخرسانيّة لم تسلم أيضا من العصبيّة القبليّة إذ كان الصّراع بين تميم وربيعة على أشدّه، ثم دخلت قبائل الأزد هذا الصّراع فغدا التطاحن بين مضر وقيس وتميم من جهة وبين اليمن والأزد وربيعة من جهة أخرى [2]، وقد نجم عن هذا الصّراع نتائج خطيرة كانت سببا في تقويض أركان الدولة الأمويّة[3]، وهو صراع قبلي انتقل إلى فارس بانتقال بعض القبائل العربية إليها فحملوا معهم عصبيّاتهم وساعد الحكم الأموي على إبرازها من جديد بعدما حاول الإسلام القضاء عليها، مع العلم أنّ الدولة الفارسيّة قبل الإسلام لم تكن قبليّة لأنها دولة لها حضارة اندمجت في دين عظيم هو الإسلام الذي حرّم العصبيّة، ولكن جاء من أحياها من بعد وهم الأمويّون لغاية في نفس يعقوب: ﴿قَضَىٰهَا نَفْسُهُ﴾

ويظهر أنّ خراسان قد أفلتت من أيدي الأمويين في عهد هشام بن عبد الملك حتّى أنّ أسد بن عبد الله القسري (أخو خالد القسري والي العراق) حينما أعيد إليها عام 117هـ وجد نفسه لا يملك الأمور، كما توقّف العرب عن الفتوحات شرق خراسان بعد فشل الأصفح بن

---

1) ذكرت دائرة المعارف الإسلامية أن زيد بن عليّ قتل سنة 122هـ/740م، وبما أنّ هشام بن عبد الملك توفي سنة 125هـ فيكون التاريخ الميلادي الموافق 743م، وتاريخ تولّيه هو سنة 105هـ/723م لأنه بقي في الحكم حوالي 20 سنة. أنظروا دائرة المعارف الإسلامية: 11/11-12، مادة حرف الزاي.

2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 183/8.

3) المصدر نفسه: 91/9-92.

عبد الله الكلبي عامل سجستان[1] في مكان يدعى 'البينة' [2].

وتهيأ الجوّ للحارث بن سريج فأعلن الثورة على بني أميّة في بلخ (سنة 116هـ/734م) ودعا إلى كتاب الله وسنّة نبيّه والبيعة إلى آل البيت، وانضمّت إليه قبائل 'أزد' و'تميم' و'دهاقين' 'مرو الروذ'، حتى بلغ جنده ستّين ألفا استولى به على 'مرو' و'الجوزجان' و'الطالقان' فاضطرّ عاصم بن عبد الله الوالي الأموي (116هـ/734م–117هـ/735م) على خراسان إلى أن يستنجد بالخليفة هشام بن عبد الملك فأمدّه بجيش من الشام عدّته عشرة آلاف مقاتل، فاضطرّ الحارث بن سريج إلى التقهقر إلى الوراء والتّعاون مع خاقان الترك في حرب الأمويين واستمرّ في ضربهم طيلة خلافة هشام بن عبد الملك واستمرّ في محاربتهم بعده إلى سنة (128هـ/746م) تاريخ القضاء على ثورته[3].

وقد تحمّل هشام من خراسان مشاكل عديدة أقضّت مضجعه ولم يستطع عاملها أسد بن عبد الله القسري أن يملك أمرها فقد أفلتت من يده، إلى أن تولّى نصر بن سيار إمارتها (سنة 120هـ/738م) بعد وفاة أسد بن عبد الله القسري وذلك أنّ «هشام بن عبد الملك استشار أصحابه في رجل يصلح لخراسان فأشاروا عليه بأقوام، وكتبوا له أسماءهم... فأمّا عثمان بن عبد الله بن الشخير فقيل له: إنّه صاحب شراب، وقيل له: المجشر شيخ هرم، وقيل له: ابن حضين رجل فيه تيه وعظمة، وقيل له: قطن بن قتيبة موتور، فاختار نصر بن سيار، فقيل له: ليست له عشيرة، قال هشام: أنا عشيرته... وكان نصر شجاعا تولى الولاية في رجب سنة عشرين ومائة (120هـ/738م)، وقال فيه هشام تيمّنا: « إنّه نصرٌ وسيّارٌ »[4].

وعلى الرّغم من إخماد ثورة الحارث بن سريج فإنها عكّرت صفو الأمن على بني أميّة

---

1) اليعقوبي: التاريخ الكبير: 52/3.

2) البينة: قيل هي قرية بين هراة وكرمان، وقيل بلدة بين سجستان وأسفزار.

3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 42/9.

4) المصدر نفسه: 257/8–259.

وجعلتهم غير قادرين على مواجهة الأحداث الخطيرة التي قضت على الدولة الأموية ومهدت الطريق لقيام الدولة العباسية؛ ولم يحل عام 117هـ/735م حتى اضطرّ هشام بن عبد الملك إلى ضمّ خراسان إلى ولاية العراق وأصبحتا تحت إشراف وال واحد هو والي العراق، فقد كتب عاصم بن عبد الله إلى هشام بن عبد الملك ناصحا: «إنّ خراسان لا تصلح إلاّ أن تُضمّ إلى صاحب العراق فتكون مواردها ومنافعها ومعونتها في الأحداث والنوائب من قريب لتباعد أمير المؤمنين عنها وتباطؤ غياثه لها»[1].

❖ ثورة إفريقيّة والأندلس: ليس الشّيعة وحدهم المعارضون لبني أميّة فهناك أيضا الخوارج فقد ثاروا على الحجاج (سنة 76هـ/694م) بقودهم صالح بن مسرّح وكبّدوا الحجّاج خسائر في الأموال والرجال والعتاد، ثمّ قاموا بثورة أخرى بقيادة شيب بن يزيد الشيباني وأحرجوا مركز الحجّاج في العراق حتى اضطرّ إلى طلب النجدة في الشام.

وسبب تذمّرهم من الحجّاج بن يوسف هو قسوته وشدّته على الرعيّة إذ كان يخاطبهم: «لألحونكم لحو العصا ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل»، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كانت معاملته للموالي لا إنسانيّة من ذلك أنه نقش على يد كلّ مولى اسمه واسم قريته وأرغمهم على الرجوع إليها (إلى قراهم)، وهي سياسة يفضّلها بنو أميّة لأنهم عنصريون يفضّلون الجنس العربي على الجنس الأعجمي، رغم ادّعائهم أنهم حماة الدين، والإسلام لا يفرّق بين جنس وآخر إلاّ بالتّقوى والعمل الصالح، وكثيرا ما وجد المستشرقون الاستعماريون والعنصريون أيضا في هذا المنفذ مطعنا على الإسلام بدعوى العنصريّة، وهو طعن مردود لأنّ تصرّف بعض المسلمين ليس هو الإسلام، ولأنّ تحاملهم على الإسلام هو استمرار للحروب الصّليبيّة من العصور الوسطى إلى حياتنا الحاضرة في أشكال متعدّدة ومتنوّعة.

أمّا سبب نقمة بني أميّة على الشيعة هو لأنهم أقضوا مضاجعهم بمناصرتهم لآل

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 222/8.

البيت، وبوقوفهم وراء كلّ ثائر عليهم، ومن البديهي أن يقف القرّاء والفقهاء موقف المعارض من بني أميّة لسياستهم العنصرية التي تتناقض ومبادئ الإسلام، وهذا ما مهّد لثورة عبد الرحمان بن الأشعث الذي قتل سنة 83هـ، وهزّت ثورته أركان الدولة الأموية وشغلت الخليفة عبد الملك بن مروان ولم يستطع القضاء عليها إلاّ لمّا حشد لها أعدادا كبيرة من خيرة جنود أهل الشام.

ولمّا وجد الخوارج أنفسهم مهزومين في المشرق انتقلوا بمبادئهم وقلوبهم الموتورة إلى المغرب لأنهم وجدوا فيها أرضا خصبة لبث معتقداتهم وآرائهم، ونجحوا إلى حدّ ما بسبب السياسة غير الحكيمة التي اتّبعها الولاة الأمويون هناك، وأخذت الأمور تسير من سيّء إلى أسوأ خاصة بعد سنة 104هـ، فقد ظلّت مشاكل البربر في إفريقية والمغرب بلا حدّ إذ كانوا يشتكون من عدّة مظالم أهمّها:

- تقديم البربر في المواجهات الحربيّة على العرب ليتعرّضوا -قبل غيرهم- إلى الموت، القتل.
- حرمانهم من المغانم الحربيّة وهم أحد عناصر الانتصار.
- تُبقر شياههم من أجل الحصول على الفراء البيض لأمير المؤمنين.
- الاعتداء على حرمات البربريّات الجميلات بالسّبي لإهدائهن إلى الخليفة والأمراء والقوّاد.

وهذه المظلمة الأخيرة لم يستطع البربر السكوت عنها مثل المظالم الأخرى ولذلك قرّروا أن يسافر وفد بربري في هذا الغرض إلى الشام لمقابلة الخليفة هشام بن عبد الملك، وكان يقود الوفد ميسرة المدغري الخارجي... ولكنهم لمّا وصلوا إلى دمشق لم يستطيعوا الظفر بتلك المقابلة لعرض شكواهم حتى نفدت أموالهم، فتقدّموا عند ذلك إلى حاجبه الأبرش وقالوا له يانسين وفي عبارة تنذر بالخطر والثورة -وقد أعذر من أنذر-: «أبلغ أمير المؤمنين

أن أميرنا يغزو بنا ويجنده فإذا أصاب نفلهم دوننا، وقال هم أحق منّا، فقلنا هو أخلص لجهادنا ولا نأخذ منه شيئا إن كان لنا فهم في حلّ، وإن لم يكن لنا نردّه، وإن حاصرنا مدينة، نردّه قالوا تقدموا وأخر جنده، فقلنا تقدموا فإنّه أزيد في الجهاد، ومثلكم كفى إخوانه، فوقيناهم بأنفسنا، ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا يبقرون عن السّخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد، فقلنا ما أيسر هذا الأمر فاحتملنا ذلك وخلّيناهم، وذلك أنهم سامونا أن يأخذوا كلّ جميلة من بناتنا فقلنا لم نجد هذا في كتاب الله ولا سنّة نبيّه ونحن مسلمون فأحببنا أن نعلم عن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا»[1]؟

وهكذا أصاب البربر نوع من اليأس، ووجدوا في دعوات الخوارج لهم للثورة على بني أميّة أذنا صاغية فأعلنوها عليهم بقيادة ميسرة المدغري الخارجي وبايعوه خليفة للمسلمين (سنة 123هـ/741م) وذلك بعد مقتل زيد بن علي بعام، ممّا يدلّ على أنّ سياسة بني أميّة شقّت طريقها نحو الإفلاس. وهكذا كلّما تقلّص العدل، وُجد التطرّف مدخلا إلى قلوب بعض العامّة المعتدلين.

وبلغت ثورة ميسرة –حين نصّب خليفة– ذروتها، وشتّت جند الشام إثر معركة ضارية عرفت بـ"غزوة حقل الأصنام" على مقربة من مدينة القيروان تكبّدت فيها القوات الشامية خسائر فادحة وقتل القائد الأموي كلثوم بن عياض القيسي.

ومن الطبيعي أن تتأثّر علاقة العرب بالإفرنج من جرّاء هذه الحوادث وأن يتوقف الزّحف العربي الإسلامي في أوروبا، بقتل القائد العربي عبد الرحمان الغافقي (سنة 114هـ/732م) في معركة "بلاط الشهداء" وفي منطقة "بواتيي"[2] بفرنسا.

وانتقلت عدوى الثورة البربرية في إفريقية والمغرب إلى الأندلس فثار أهلها أيضا ضدّ الوالي الأمويّ عقبة بن الحجاج وعزلوه ثم أعيد إليها وبقي حتى عام (121هـ/739م) حين

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 5/49–50؛ المطبعة الحسينية المصرية.

2) بواتيي: مدينة واقعة على نهر "اللوار" بفرنسا. ناجي حسن: ثورة زيد بن علي، ص88–89. وهي في وسط غرب فرنسا وتبعد حوالي ٥٥٥كلم عن باريس في الشمال الغربي و١٥٥كم عن مدينة (ليموج) في الجنوب الشرقي، و٥٥٥كم عن بوردو في الجنوب الغربي وحوالي ١٥٥كم عن نانت في الشمال الغربي Poitiers

خلعه عبد الملك بن قطن الفهري وتولى الأمور بدلا منه. ولم يقف الأمر على العرب أنفسهم بل إنّ برابرة الأندلس اتّحدوا هناك في وجه العرب وبدؤوا بطردهم من البلاد حتّى اضطرّوهم إلى النزوح إلى وسط الأندلس[1].

والأدهى من ذلك كله أنّ الخليفة معاوية بن أبي سفيان قد سنّ سنّة ذميمة وهي لعنة علي بن ابي طالب -كرّم الله وجهه- والبراءة منه على المنابر في المساجد وخاصة في الكوفة حيث يكثر أنصاره الذين تألّموا لما حلّ بهم وبإمامهم من معاملة قاسية على يد بني أميّة وتأثّروا للكنية (أبي تراب) التي أصبحت تحقيريّة بعدما كانت شرفا لعليّ بن ابي طالب على ما رواه البخاري: «أنّ رجلا جاء إلى سهل بن سهر فقال: هذا فلان -لأمير المدينة- يدعو عليا عند المنبر قال: فيقول ماذا؟ قال: يقول له أبو تراب، فضحك وقال: والله ما سمّاه إلاّ النبيّ ﷺ وكان له اسم أحبّ إليه منه، فاستطعمتُ الحديث سهلا، وقلتُ: يا أبا عبّاس كيف؟ قال: دخلي عليٌّ على فاطمة ثم خرج فاضطجع في المسجد فقال النبي ﷺ: أين ابن عمّك؟ قالت: في المسجد، فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره وخلص التراب إلى ظهره فجعل يمسح التراب عن ظهره فيقول: اجلس يا أبا تراب مرتين»[2]. ولم يقبلوا قطّ أن يُلعن ويُحقّر صحابيّ جليل لم يسجد لصنم أبدا، وأبلى في سبيل الإسلام البلاء الحسن وهو من الصحابة العشرة الذين بشّرهم الرسول ﷺ بالجنّة. ولعن الله من لعنه وسنّ هذه السنّة القبيحة

ولم تتوقّف اللّعنة والشّتم والتّحقير على عليّ وإنّما نالت أيضا آل البيت وقد رأينا الأنصاري يخاطب زيد بن عليّ شاتما ومحقّرا فيقول: «يا ابن أبي تراب! وابن حسين السّفيه أما ترى لوالٍ عليك حرمة»[3].

---

1) ناجي حسن: ثورة زيد بن علي، ص94-96.

2) ابن حجر: فتح الباري شرح البخاري 7/8 باب مناقب علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي أسلم في السابعة من عمره وقيل في العاشرة على الأرجح.

3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 262/8.

- الطبري: تاريخ الرسل والملوك: 253/5-270، طبعة دار المعارف بمصر .

ولمّا أنكر الصحابي الجليل حجر بن عديّ على والي الكوفة لعن الإمام علي والبراءة منه سنة 51هـ تعرّض إلى القتل صبرا في الشام هو ومن معه وقد حُفرت قبورهم وأحضرت أكفانهم وهم ينظرون، واعتبرت الكوفة مقتلهم استشهادا في سبيل الله وذلاً جديدا نزل بهم لما عُرف به من الورع والتقوى والجهاد في الحق. رضي الله عنهم وأرضاهم ولعن من عذّبهم وقتلهم (رضي الله عنهم وأرضاهم)

وقد ندم معاوية على قتله أشدّ الندم من ذلك أنّ عائشة أمّ المؤمنين لما لامته قائلة: «يا معاوية أين حلمك عن حجر؟ قال لها: يا أمّ المؤمنين لم يحضرني رشيد» ؟

وأخبر ابن سيرين أنّ معاوية لما حضرته الوفاة «جعل يغرغر بالصوت ويقول: يومي منك يا حجر يوم طويل»[1].

4. الأسباب الدينيّة:

كان حكّام بني أميّة مستخفّين بأمور الدّين إلى درجة أثارت أهل التّقوى والورع إلى جانب تهتّكهم ومجونهم العلني، وأوّل من أعلن ذلك منهم الخليفة الأموي يزيد بن معاوية وهو أقرب خليفة إلى عهد رسول الله ﷺ يجاهر بفسقه وعبثه، حتى إنّ ابنه معاوية بن يزيد لمّا تولّى الخلافة بعد أبيه -وكان ذا عاطفة دينيّة ورأى الحياة الماجنة التي كان يحياها أبوه يزيد وعلم الدور الذي لعبه جدّه معاوية في افتكاك الخلافة من علي وسمّه لابنه الحسن- هاله الأمر وأحسّ أنّ ولاية أمور المسلمين لا يجب أن تكون بأيدي بني أميّة، فتنازل عن الخلافة وقال في خطبته للمسلمين: «إنّا قد بُلينا بكم وابتُليتم بنا وإنّ جدي معاوية قد نازع الأمر من كان أَوْلى به».

وقيل إنه تنازل عن الحكم لأنه كان رجلا عليلا وذلك ربّما يُفهم من خطبته في أهل الشام في أواخر أيّامه: «فإنّي قد ضعفتُ عن أمركم فابتغيتُ لكم مثل عمر بن الخطاب فلم

---

1) ناجي حسن: ثورة زيد، ص64.
- الطبري: 257/5.

أجد فابتغيتُ ستّة الشورى فلم أجدهم فأنتم أوْلى بأمركم فاختاروا من أحببتُمْ»[1]. فاجتمعت إليه بنو أمية لكي يعيّن في الخلافة واحدا منهم ولكنه رفض، وقيل إنه أغلق باب داره على نفسه وتغيّب، وقيل إنه مات مسموما، ويذهب آخرون إلى أنه طُعن[2].

ولكن الأمر الذي يبقى غير واضح: لماذا لم يعيّن للمسلمين خليفة صالحا؟ وهل الأمر كما ذكر -إن صحّت نسبة القول إليه- من عدم وجود أمثال أبي بكر وعمر وستّة الشورى أو من يقاربهم؟ لا أظنّ ذلك صحيحا لعدم خلوّ عصر من العصور من أهل الصلاح والتقوى والورع ولو كانوا قليلين، وهم قليلون بطبعهم في كلّ عصر ومصر كما تصرّح بذلك الآية القرآنية الكريمة (إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم)[3].

ويخامرني الأمر نفسه بالنسبة لعمر بن عبد العزيز (99هـ/717م-101هـ/719م) الذي إعتُبر خامس الخلفاء الراشدين وهو: لماذا لم يعهد لخليفة من بعده يكون من الذين يثق فيهم تقوى وعدلا ولن يجرّح أحد في هذا التعيين، ثمّ إنّ تقاليد الخلافة أقرّته من عهد أبي بكر الصدّيق ﷺ إلى عمر بن الخطّاب ﷺ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان باستطاعته أن يعيد الخلافة إلى ما بدأت عليه -بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرّفيق الأعلى- وهي خلافة بالشورى والاختيار، ولكنه لم يفعل والسّبب -حسبما يبدو وهو صالح أيضا لامتناع معاوية بن يزيد عن ذلك- يرجع إلى أمور:

أوّلها: أنه إذا عيّن فسوف يعيّن رجلا صالحا من غير بني أميّة وهو لا يريد أن تخرج منهم لأنّ تعهّد للخليفة[4] سليمان بن عبد الملك وابن عمّه بأن يُعيّن ابنه يزيد الثاني الذي

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 34/7، المطبعة الحسينية.

2) المصدر نفسه: 34/7، المطبعة الحسينية.

3) سورة ص الآية: 24.

4) لأنّ الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بن مروان هو الذي عيّن ابن عمّه عمر بن عبد العزيز بن مروان، والسبب كما يُروى أنه رأى أنّه الأصلح للأمر، والواقع كما يبدو هو أن ابنه يزيد الثاني (ابن الخليفة سليمان بن عبد الملك بن-

كان صغيرا خليفة بعد عمر بن عبد العزيز بن عبد الملك بن مروان، لكن كان عليه أن يعمد إلى اختيار بالشورى أو تعيين من غيرهم ليضمن عدم رجوع الخلافة إلى النظام الوراثي الملكي.

ثانيها: الخوف من تحمّل المسؤولية أمام الخالق إذا ما حاد الذي عيّنه خليفة للمسلمين عن الحق، وهو في واقع الأمر لا يتحمّل نتيجة خطأ من عيّن لأنه اختاره بالتّعيين أو بالشورى بما ظهر من فضله -ونحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وهو تعالى القائل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1] أي لا تتحمّل نفس ذنب أخرى- ولكنها حساسيّة دينيّة[2] مرهفة نجدها عند الطيّبين، وهذا هو الرأي الأقرب إلى الصّواب في إمساك معاوية بن يزيد وعمر بن عبد العزيز عن تعيين خليفة للمسلمين أو اختياره بالشورى، وهي معضلة واجهت الكثير من الخلفاء الصالحين أمثال عمر بن الخطاب.

ثالثها: أنّ عمر بن عبد العزيز بايع سليمان بن عبد الملك على من يتولّى الخلافة بعده وكتب (أي سليمان) اسمه واسم من يتولّى بعده هذا في ورقة وضعها في ظرف وختمها، وكان الاسم الأول اسم عمر بن عبد العزيز دون أن يُعلمه لأنّه يخشى رفضه لتقواه، ويخشى امتناع إخوته يزيد وهشام عن المبايعة، بينما في حالة عدم معرفة اسم الخليفة المنتظر يظنّ كلّ من إخوته أنّ الخلافة له فيبايع، وفي هذه الحالة كيف يتراجع عمر عن بيعته ليزيد بعده وقد حلف بالله على ذلك وهو التقيّ؟

بن عبد العزيز

والذي يبدو لي أنّ عمر كان يدرك أنّ أبناء عمّه يكرهونه لحكمه العادل وعملوا على سمّه -إن صحّت الرواية- لأنه سوّى بين الأمراء في الأعطيات وفي الحكم مع الرعيّة،

-مروان)، كان -وقت التّعيين ومرض أبيه- صغيرا يخاف عليه من الطّامعين في الخلافة ويعلم أنّ عمر بن عبد العزيز رجل صالح وتقيّ ووفيّ، وأنه سيسلّم الخلافة عند أوانها الى يزيد الثاني المذكور وتعود الأمانة إلى صاحبه.

1) سورة فاطر ، آية 18.

2) هذه الحساسيّة الدينيّة المرهفة خشية الوقوع في الخطأ يسمّيها علماء النفس بـ"عقدة الذّنب" وقد تصل بصاحبها أحيانا إلى درجة الهوس إذا كانت أسبابها غير دينيّة.

وارجاعُ الحكم إلى هؤلاء يعني رجوع المسلمين إلى الظلم والفساد خاصّة وقد بدا له تهافت أبناء عمومته على الحكم طمعا في السلطة والمال والجاه، وكما قيل "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" وإذن فلا طاعة لما قطعه على نفسه من عهد لسليمان بن عبد الملك، ولم يبق إلاّ اليمين التي حلفها له في المبايعة، وهذه مغفورة له أيضا لأنه سيكفّر عنها في سبيل المحافظة على كليات الإسلام: (المحافظة على الدين والنّفس والعقل والنّسب والمال)، ولأنّ الله عزّ وجلّ لا ينظر إلى أعمالنا وإنّما ينظر إلى قلوبنا وعمر بن عبد العزيز –رحمه– قدوة المسلمين بعده في هذا ولكن:

ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه *** تجري الرياح بما لا تشتهي السّفنُ

وقال الله عزّ وجلّ: (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)، وهو رأي أقرب إلى الصّواب أيضا فيما يخصّ عمر بن عبد العزيز رحمه الله. والقضاء والقدر هو الأمر الحسم في هذا الصّدد. والخير فيما اختاره الله لعمر رضي الله عنه وأراح المسلمون منذ ذلك العهد إلى اليوم.

وبموت يزيد بن معاوية، الذي اعتُبر نشازا بعد أبيه يزيد في عُرف بني أميّة، عاد خلفاؤهم إلى التهتّك والمجون، فالخليفة يزيد بن عبد الملك (101هـ–105هـ) الذي جاء بعده الخليفة هشام بن عبد الملك (105هـ–125هـ)، يزيدُ هذا كان مثالا للتهتّك أُغرم بجارية تُدعى "سلاّمة" إلى حدّ العبادة وأمر معبد بن وهب فحلّ المغنّين بالمدينة وأحسن النّاس غناء وأجودهم صنعة (توفي في سنة 126هـ/744م) أن يعلّمها الغناء، ويظهر أنّ منزلة الجواري في عهد يزيد بن عبد الملك ارتفعت كثيرا حتى أنّ واحدة منهنّ أخذت بمجامع قلبه فسألها يوما: «أ لَكِ قرابة ليحسن إليهم؟» فأجابته ألاّ قرابة لها،ولكن في المدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاتها تحبّ أن ينالهم خير بسببها، «فكتب إلى عامله بالمدينة في أشخاصهم وأن يعطي كلّ رجل منهم عشرة آلاف درهم»[1].

---

1) ناجي حسن: ثورة زيد بن علي، ص77.

وقيل في الخليفة يزيد بن عبد الملك «إنه غلب عليه اللّهو واستخف بأبين المملكة وأذن للنّدمان في الكلام والضحك والهزل في مجلسه»[1]، حتى أنّه تعلّق بجارية تُدعى 'حبابة' وكان يوما وإيّاها على سطح تغنّيه بشعر، فقال لها: «مَنْ يقول هذا الشّعر؟» فلم تعرف فأرسل إلى المحدّث والحافظ ابن شهاب الزهري ﷺ وهو في منتصف اللّيل فأتي به فجاء مُروّعا فقال له يزيد: «لم ندعُ إلاّ لخير، إجلسْ، من يقول هذا الشعر؟، قال الأحوص»[2].

فلمّا مات يزيد وخلفه هشام بن عبد الملك كانت الصّورة التي علقت بأذهان النّاس عن بني أميّة صورة الخلفاء الماجنين الظّالمين وأصبحوا لا يثقون فيهم لأنّه عاجزون عن كبت غرائزهم وشهواتهم كما يفعل السّاسة الأتقياء أو على الأقلّ كما يفعل أولو الأمر الذين لا يجاهرون بالصّغائر ويمتنعون عن الكبائر[3].

والأدهى من ذلك أنّ هشام بن عبد الملك اعتبر مرتبة الخليفة في أهله خير من مرتبة النبيّ في أمّته،ممّا أثار الأتقياء والفقراء عليه، ولمّا بلغت هذه القولة زيدا قال: «لو لم أكن إلاّ أنا وابني لخرجتُ عليه»[4]، أضف إلى ذلك أنّ هشاما كان صاحب شراب أيضا فقد خصّص لذلك يوما في الأسبوع[5].

ويظهر استخفاف بني أميّة بالدّين في عدم وفائهم بالعهد والحال أنّ الإسلام جاء محرّضا على ذلك في عدّة آيات منها قوله تعالى: (وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسؤولا) [6]، وأوّل تطبيق لهذا هو أن يكون الخليفة وولاّته وعمّاله وكلّ أولي الأمر المساعدين له ملتزمين لحدود الله مع أنفسهم ومع الرّعيّة عادلين غير قاسطين محافظين على سلوكهم وسمعتهم في قومهم، وكلّ

---

1) ناجي حسن: ثورة زيد بن علي، ص78.

2) المرجع نفسه، ص78.

3) ابن حزم: الفصل : 177/4، ط1، مطبعة التمدّن 1321هـ، وبهامشه الملل والنحل لابن حزم، مصر .

4) ناجي حسن: ثورة زيد بن علي، ص103.

5) المرجع نفسه، ص78.

6) سورة الإسراء، الآية: 34.

تجاوز لذلك يُعدّ خيانة للعهد سواء أكان من قبل المسؤول أم كان من قبل من ينوبه على الرعيّة.

وقد تجلّى نكث بني أميّة للعهد في عدّة مناسبات منها:

▪ أنّ الخليفة يزيد بن عبد الملك (101هـ/719م-105هـ723م) لمّا قامت ثورة يزيد بن المهلّب (102هـ/720م) وآزره العراقيون لقلب نظام الحكم الأمويّ أرسل لهم الخليفة يزيد رجالا إلى الكوفة يُسكنونهم ويَعدونهم الزيادات والعمل وفق كتاب الله وسنّة نبيّه، وانخدع الناس لهذه الوعود ولم يعرفوا أن المسؤول الذي يعترف بعدم العمل بكتاب الله ويعد بالعودة إليه لا يمكن تصديقه مهما ادّعى.

ونتيجة لهذه الوعود الكاذبة لم يقف الناس مع ثورة يزيد بن المهلب وقفة حازمة وخانوه مثلما خانوا زيدا بن علي من بعده، ففشلت الثورة وقُضي على القائمين بها، وعوض أن يفي الخليفة بوعوده فإنه أثقل كاهل العراقيين بالضرائب[1].

▪ أمّا الخليفة الذي جاء بعد يزيد بن عبد الملك فهو هشام بن عبد الملك ومن صفاته أنه كان لا يتقيّد بالعهود والمواثيق، وكان كسلفه يعد بتحسين حال الرعيّة ثم يطالب الولاّة بمزيد من الهدايا والأموال وإلاّ فإنّ مناصبهم غير مضمونة[2].

وفي عهده ارتفعت الأسعار ارتفاعا مهولا لأنّ حياة العراقيين تقوم على الفلاحة[3] وهشام وخالد يحتكرانها، وقد كان خالد يعرض حاصلات ضياعه في السوق في الوقت الذي تُعرض فيه حاصلات ضيعات الخليفة، فانخفضت الأسعار وغضب هشام لذلك وكتب إلى خالد: «لا

---

1) ناجي حسن: ثورة زيد بن علي، ص71.

2) اليعقوبي: التاريخ الكبير: 51/3.

- الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 253/8-255-256.

3) يصف الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى أهوال حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان موولا نتائجها -قصد تحويفهم لغرض سلمي- بأنها كثيرة كثرة إنتاج أراضي العراق الخصبة.

فتُعْرِكْ لكم ما لا تُغِلّ لأهلها *** قرى بالعراق من قفيز ودرهمِ

شبعنّ من الغلاق شيئا حتّى تُباع غلات أمير المؤمنين»[1]، ولمّا كان النّاس ينتظرون تحسين حالهم فقد ضجّوا وانتقدوا الوالي مرّا وعلنا من أجل ارتفاع الأسعار بعد أن كانت منخفضة، قال لهم إحدى خطبه معرضا بالخليفة هشام: «زعمتُمْ أنّي أُغلي أسعاركم فعلى من يغلّيها لعنة الله»[2]، وكان ذلك أحد الأسباب في عزله عن ولاية العراق سنة (120هـ/738م).

هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد نقض هشام وصيّة أخيه يزيد بن عبد الملك الذي أوصى بالخلافة بعد هشام لابنه الوليد بن يزيد، غير أنّ هشاما حاول إرغام الوليد على أن يخلع نفسه ويبايع لابنه (ابن هشام) مسلمة، فلمّا رفض ذلك حرمه ممّا كان له ولمواليه من العطايا والهبات[3].

5. الأسباب الشخصيّة :

ونعني بها الصفات الخاصة بشخصيّة هشام بن عبد الملك وقد ذكرنا بعضا منها في الأسباب الدينيّة ونحاول ذكر أهمها فيما يلي:

أ- الإخلاف بالعهد: وقد ظهر جليّا في محاولة إرغام ابن أخيه الوليد بن يزيد على خلع نفسه لتولية ابنه مسلمة مكانه ووعوده للعراقيين بتحسين حالهم، وإذا به يكون السّبب في ارتفاع الأسعار بمنع عرض غير محصولاته في سوق الباكورات .

ب- البخل: وقد علّمتنا التجارب أنّ كلّ حريص على المال يكون بخيلا، نهما على جمعه، وقد كان هشام كذلك رغم النّعيم الذي يرفل فيه، وقد روى الحافظ بن كثير أنه كان يستعمل لفراشه قباء فتك أخضر احتفظ به قبل أن يلي الخلافة وبعدها، ولمّا سُئل أجاب: «والله الذي لا إله إلاّ غيره هو ذلك ما لي قباء غيره وما ترون من جمعي لهذا المال وصونه

---

1) الأغاني: 59/19 نقلا عن ناجي حسن: ثورة يزيد، ص56-57.

2) ابن الأثير : التاريخ الكامل: 87/5، المطبعة الكبرى، القاهرة، سنة 1290هـ.

3) الأصفهاني: الأغاني: 99/6 نقلا عن ناجي حسن: ثورة زيد، ص96.

إلاّ لكم»، ثمّ يصرّح الحافظ بن كثير راويا عن عقال قوله: «وكان هشام محشوًا بخلا»[1]، فلو كان هشام صادقا في ادّعائه لعلّق ابن كثير على ذلك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ أقدم مؤرّخ شيعي –حسب رأي عليّ سامي النشار[2]– هو اليعقوبي يذكر لهشام صفات متناقضة كالقسوة وعدم الرحمة والبخل والرجولة والحزم والغلظة والظلم وطول اللّسان[3].

ج– طول اللّسان: ويتجلّى ذلك في إهانته لزيد بن علي بأمه السنديّة لمّا بلغه عنه أنه يحدّث نفسه بالخلافة ويتمنّاها[4]، وإهانته لواليه على العراق خالد القسري (105هـ/120هـ): «بابن الحناء»[5]، و«بابن النصرانيّة»[6]، مع أنّ القرآن يبيح للمسلم الزواج من الكتابيّة سواء أ كانت يهوديّة أم نصرانيّة، ولذلك كانت أمّ خالد نصرانيّة، واتّهم بأنه بنى من أجل ذلك كنيسة لها وللنصارى، وهذا الأمر إن صحّ يدلّ على تسامح الإسلام والمسلمين، كما اتّهم أيضا بأنه كان للنّصارى في عهده نفوذ ممّا أغضب المسلمين[7]. وهذا ليس تهمة من حيث التّسامح مع الرّعية من مسلمين وكتابيين واعتماد بعضهم مستشارين دون الإضرار بالدّولة الإسلاميّة.

د– ورغم بعض الصفات الحسنة التي اتّصف بها هشام بن عبد الملك وذكرها ابن قتيبة: «وذكروا أنّ هشاما صارت إليه الخلافة سنة ستّ ومائة، فكان محمود السيرة ميمون النقيبة وكان النّاس معه في سكون وراحة ولم يخرج عليه خارج ولم يقم عليه قائم إلاّ ما كان

---

1) الحافظ بن كثير: البداية والنهاية: 353/9.

2) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: 152/2، ط.3، سنة 1347هـ/1965م: دار المعارف: الفصل الثامن: الزيديّة.

3) اليعقوبي: التاريخ الكبير : 58/3.

4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 251/8.

5) المصدر نفسه: 251/8.

6) اليعقوبي: التاريخ الكبير: 54/3.

7) الأصفهاني: الأغاني: 59/19 نقلا عن ناجي حسن: ثورة زيد، ص57.

من قيام زيد بن علي بن الحسين في بعض نواحي الكوفة»[1]، ثم يذكر ابن قتيبة أنّ هشاما تأثّر لقتله تأثّرا شديدا، ويوافقه في رواية التأثّر لقتل زيد الحافظ بن كثير فقد ذكر: «وكان هشام من أكره الناس لسفك الدماء، ولقد دخل عليه من مقتل زيد بن علي وابنه يحيى أمر شديد وقال: وددتُ أنّي افتديتهما بجميع ما أملك»[2].

والذي يبدو لي أنّ رواية ابن قتيبة لا يمكن أن تكون صائبة لأنّها تتعرّض إلى مدح هشام فقط بينما المؤرخ المنصف هو الذي يذكر المحاسن والمساوئ، ولا يخلو منها إنسان باختلاف من شخص إلى آخر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ دائرة المعارف الإسلاميّة ترجّح أن يكون كتاب "الإمامة والسياسة" كتبه في حياة ابن قتيبة رجل مصريّ أو مغربيّ[3]، وبما أنّ ابن قتيبة أديب فقد كان الأسلوب في هذا الكتاب أسلوبا أدبيّا أكثر منه تاريخيّا أو علميّا، ولعلّ الكاتب الذي صنّف الكتاب ونسبه لابن قتيبة –إن صحّ ما ادّعاه 'دغوي' في دائرة المعارف الإسلاميّة– عمد إلى هذا الأسلوب حتّى لا يشكّ في نسبة الكتاب إلى ابن قتيبة أحد.

أمّا ما ذكره الحافظ بن كثير بأنّ هشاما دخل عليه من قتل زيد وابنه يحيى أمر شديد، فهو إن كان صحيحا يدلّ على أنّ هشاما يكره سفك الدماء لأنّ بني أميّة لم يستقرّ لهم قرار منذ قامت دولتهم فكانت الثورات تلاحقهم من عبد الله بن الزبير، إلى الحسين بن علي، إلى المختار بن عبيد الثقفي صاحب الثورة المختاريّة والكيسانيّة، فثورة يزيد بن المهلب، وثورة الخوارج في المشرق وفي إفريقية والمغرب... إلى ثورة زيد بن علي في عهد هشام بن عبد الملك، فثورة بني مسلم الخرساني –التي قضت على الدولة الأمويّة وأقامت الدولة العبّاسيّة– كلّ ذلك يجعل الأخير –أي هشام بن عبد الملك– يوقف سفك الدماء غصبا عنه

---

1) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة: 199/2، تحقيق محمد محمود الراقعي، مطبعة نيل مصر، سنة 1322هـ/1904م.

2) ابن كثير: البداية والنهاية: 352/9.

3) دائرة المعارف الإسلامية: 261/1، العدد الأول –مادة ابن– 1352هـ/1933م.

بناءً على ما تقدّم وبناء على وصيّة من أحد خلفاء بني أميّة ينصح فيها من سيأتي بعده بعدم قتل آل البيت لأنّ قتل بني أميّة لهم ألحق بهم الشؤم والنكد –بحسب التجارب التي مرّت بهم–.

وإذا أضفنا إلى ذلك أنّ الحافظ ابن كثير توفي سنة 774هـ –وهو الوحيد من المصادر التي بين يديّ– الذي يروي أنّ يحيى قُتل في عهد هشام[1]، بينما مؤرّخون أقدم منه رووا جميعا أنّ يحيى قُتل في عهد الخليفة الوليد بن يزيد وفي سنة 125هـ، وهي السنة التي توفي فيها هشام وتولّى فيها الوليد، فاليعقوبي توفي سنة (284هـ أو 292هـ/897م)[2]، وتوفي الطبري سنة (310هـ/922م)[3]، وابن الأثير توفي سنة (630هـ/1232م أو 1234م)[4].

هؤلاء جميعا اتّفقوا على أنّ يحيى بن زيد قُتل في عهد الوليد بن يزيد بخراسان بمنطقة تُدعى "الجوزجان"، وانفراد الحافظ بن كثير عنهم برواية قتل يحيى بن عهد هشام يجعلنا نقدّم غيره في هذه الرواية وفي رواية أنّ هشاما يكره سفك الدماء، وقد بيّنا أنه يكره ذلك لا عن طيبة وإنما خوفا على الحكم الأمويّ عامّة وحكمه خاصّة من السقوط، وعدمُ ترجيحنا لروايتي الحافظ بن كثير يعود إلى سببين –حسبما يبدو لي–:

1. أنّ اليعقوبي والطبري وابن الأثير أقدم منه وأقرب إلى الأحداث ولذلك فالمنطق يرجّحهم على الحافظ بن كثير في هذه الرواية وفي غيرها ما لم تكن هناك حجّة واضحة تقدّمه وتؤخّر بعضهم أو كلّهم[5].

2. أنّ هؤلاء كثرة متّفقون وهو روا واحد منفرد والأكثريّة مقدّمة على الأقليّة الضعيفة، وبالأحرى القصوى ولا أقلّ من واحد، ثم إنّ التواتر يفيد القطع وهؤلاء جميعا تواتروا

---

1) الحافظ بن كثير: البداية والنهاية: 352/9.

2) اليعقوبي: التاريخ الكبير: 61/3.

3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 538/5.

4) المسعودي: مروج الذهب: 219/1.

5) ابن الأثير: التاريخ الكامل: 99/5، 100.

على خبر واحد، وإن صحت نسبة الحديث الشريف التالي إلى النبي محمد ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة» (رواه ابن ماجة في السنن والطبراني وغيرهما) تتفق أمتي على خطأ» -أو كان- وكانت هذه حجة أخرى لفائدة الرواة المذكورين وضدّ رواية ابن كثير.

ونعود الآن إلى قولة اليعقوبي التي جمعت صفات هشام المتناقضة وهي: «كان هشام من أحزم بني أمية وأرجلهم، وكان بخيلا، حسودا، قظّا، غليظا، ظلوما، شديد القسوة، بعيد الرّحمة، طويل اللّسان»[1]، ويعتبره الطبري رجلا محشوا عقلا[2] وذكر أنّ تنظيمه لدواوين الدولة كان مثالا يُحتذى به في الدقّة والإتقان[3]، واعتُبر السياسيّ المحنّك الثالث بعد معاوية بن ابي سفيان وعبد الملك بن مروان[4].

هذه روايات مختلفة تصوّر شخصيّة هشام بن عبد الملك، ولا ننكر أنّ تأثير الأهواء والميول فيها غير مستبعد نظرا لشعور المسلمين قديما وحديثا بعدم الميل لبني أميّة لما ارتكبه بعض خلفائهم من أخطاء، أضف إلى ذلك أنّ هشاما عمّر في الحكم طويلا وبقي يسوس المسلمين حوالي عشرين سنة (من 105هـ إلى 125هـ)[5]، وهي مدة طويلة جعلت الرعيّة تملّه وتتمنّى تجديد العهد مع خليفة آخر لأنّ لكلّ جديد طربه"، ولأنّ الصّفات الذّميمة التي وُصف بها هشام فيها جانب لا يُستهان به ينطبق عليه، ولأنّ طول الحكم يهزّي السلطة ويُعرّضها لكراهيّة الرّعيّة.

والدّليل على كراهية النّاس له حتى من بني أميّة أنّه لمّا مات هشام لم يجدوا له إناء لتسخين الماء ليغسل ولم يجدوا له كفنا، فقام بالأمر حاجبه الأبرش، لأنّ الخليفة الجديد الوليد بن يزيد استولى على خزائن الدولة وخزائن هشام وأمر بإغلاقها، انتقاما منه لأنه حاول

---

1) اليعقوبي: التاريخ الكبير: 58/3.

2) الطبري : تاريخ الأمم والملوك: 284/8.

3) المصدر نفسه: 285/8.

4) نجي حسن: ثورة زيد بن علي، ص96.

5) اليعقوبي: التاريخ الكبير : 59/3.

إرغامه على عزل نفسه من الخلافة ليعهد بها إلى ابنه مسلمة بن هشام، فلمّا امتنع حرمه وحرم مواليه من أعطياتهم؛ فهشام بن عبد الملك كان غريبا ومتناقضا في صفاته وفي سلوكه مع الرعيّة وحتى مع أقربائه.

وكانت وفاة هشام بن عبد الملك في يوم الأربعاء التاسع (19) من شهر ربيع الأول سنة 125هـ وهو ابن ثلاث وخمسين (50) سنة، وفي هذا يقول اليعقوبي: «ومنع وكلاء الوليد بن يزيد من الخزائن فلم يوجد له كفن حتى كفنه خادم له، وقيل بل كفنه الأبرش الكلبي فصلى عليه العبّاس بن الوليد، وقيل بل الأبرش الكلبي، ودفن بالرّصافة»[1].

(ولي يزيد ولي العهد)

أمّا ابن قتيبة فيقول: «فمات هشام والوليد[7] غائب فأتاه موته فأمر بقفل الخزائن فلم يجدوا لهشام ما يكفنونه واستُؤذن الوليد في إقباله فلم يدفن هشام حتى قدم الوليد وذلك في ثلاثة أيّام»[2].

(ولي العهد الوليد بن يزيد)

ويذكر الطّبري في نفس الموضوع: «...فلمّا مات أغلق[7] الخزائن والأبواب فطلبوا قمقما يسخّن فيه الماء لغسله فما وجدوه حتى استعاروا قمقما من بعض الجيران، فقال بعض من حضر ذلك: إنّ في هذا لعبرة لمن اعتبر، وكانت وفاته بالذّبحة، فلمّا مات صلى عليه ابنه هشام وكان غير معروف بكثرة اللّهو»[3].

وإذا كان عمر هشام لما توفّي ثلاثا وخمسين سنة وبقي في الحكم حوالي عشرين سنة فإنّ ولادته تكون حوالي سنة (72هـ)[4]، وهو لذلك مقارب من حيث السنّ لزيد بن علي الذي

---

1) اليعقوبي: التاريخ الكبير : 59/3.

2) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة: 207/2.

3) الطبري : تاريخ الأمم والملوك: 514/5.

4) نجد في حديث المسعودي تناقضا عن عمر هشام لما توفي حيث يصرّح أنه كان ثلاثا وخمسين سنة ويضيف أنه تولّى الخلافة وعمره ثمان وثلاثون سنة أو أربعون سنة، وبقي في الخلافة حوالي عشرين سنة أو تسع عشرة سنة وسبعة أشهر؛ فإذا أضفنا عمره حالة توليه إلى مدة خلافته يصبح سنّه عند وفاته 58 سنة أو 60 سنة، وكل المصادر اتفقت على أن عمره عند وفاته كان 53، ولم يذكر عمرا أقصى إلاّ الطبري فقد أورد رواية بـ55 سنة وأورد أخرى بـ52 سنة. [المسعودي: مروج الذهب: 216/1.

ولد حوالي سنة 80هـ/وإذا كان زيد ينتمي إلى آل البيت الذين نالوا حبّ الناس جميعا أو أغلبهم، وكان هشام معروفا بالحسد، فلا غرو أن يتعرّض إلى مضايقته لأنه كما قال الرسول ﷺ –أو ما معناه–: «إستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإنّ كلّ ذي نعمة محسود»، وهذا ما كان، فقد ضايق هشام زيدا بن علي إلى حدّ الإحراج مما اضطره إلى الخروج عليه سنة 122هـ.

الأسباب المباشرة لقيام ثورة زيد بن علي

****

ذكرنا في كلامنا السّابق الصّفات التي تحلّى بها زيد بن علي وأهلته للقيام بالثورة على بني أميّة عامّة وعلى الخليفة هشام بن عبد الملك خاصّة، وسمّينا هذه الأسباب بالأسباب الداخليّة.

ثمّ تعرّضنا إلى ما دعوناه بالأسباب الخارجيّة لقيام هذه الثورة وهي حالة العصر المتوتّر الذي عاشه الإمام زيد في العراق وما صاحبه في بقيّة أرجاء البلاد الإسلامية شرقا وغربا، وقسّمنا ذلك إلى أسباب اقتصاديّة واجتماعيّة وسياسيّة ودينيّة وإلى أسباب متّصلة بشخصية هشام المتناقضة، فمن دقّته في تنظيم دواوين الدولة واعتباره رجلا محشوّا[1] عقلا إلى فظاظته وغلظته وحسده وبخله وقسوته على الرعيّة وحتى على بني أميّة أحيانا وعدم رحمته بالجميع أحيانا أخرى.

وكلّ ما أتينا عليه في حديثنا الماضي نستطيع أن ندعوه بأسباب غير مباشرة لقيام ثورة زيد بن علي. وبقي أن نفصّل القول في الأسباب المباشرة لاندلاع هذه الثورة، وسمّيناها أسبابا مباشرة لأنها متّصلة اتّصالا وثيقا بخروج زيد على الحكم الأموي، ومن أهمّها، أنّه يرى:

1. أفضليّة علي وأحقيّته بالخلافة دون سائر الصحابة لكن المصلحة اقتضت تعيين غيره.
2. استعمال بني أميّة أساليب التّفرقة والفتنة بين آل البيت واستغلال قضيّة صدقات فاطمة في ذلك.
3. اتّهام زيد ومن معه بتسلّم أموال من والي العراق خالد القسري كهدايا وودائع.

1/ الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 8/284].

1. أفضليّة علي وأحقيّته بالخلافة دون سائر الصحابة لكن المصلحة اقتضت تعيين غيره :

وهو المبدأ الذي قام عليه المذهب الزيدي وعُرف بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل، فعليّ أفضل من كلّ الصحابة –رضي الله عنهم جميعا– لكن المصلحة اقتضت تعيين أبي بكر وعمر قبله لأنه (علي)، قريب العهد بقتال المشركين وسيفه لا يزال ملطّخا بدمائهم، ولقد أصبح أبناؤهم مسلمين، فكيف سيرضون –والحالة تلك– بخليفة قتل آباءهم[1]! أو كيف سيطيعونه وهو المسؤول عن جمع كلمة المسلمين؟ هل سيساعدونه على ذلك، أم سيعملون على إثارة الفتنة والشغب لياخذوا ثأرهم منه. ولهذا وجدنا من يمتنع عن مبايعة علي متذرّعا بأنه وتَرَهُم في آبائهم في غزوة بدر الكبرى (2هـ/624م)، وفي غيرها من الغزوات واشترطوا عليه شروطا مقابل مبايعتهم له[2]. ومنها أنّه أخطأ إلى حدّ أنهم كفّروه لأنّه قبل التحكيم مع معاوية بن أبي سفيان الذي خادعه ليفتك منه الخلافة بالزّور والبهتان وعليه أن يُجدّد إسلامه ليحاربوا معه وهم الخوارج المعروفون بهذا التشدّد. فرفض علي لأنه أسلم صبيا قبل الحلم ولم يسجد لصنم قطّ، فقالوا: "لا حكم إلاّ لله". فأجابهم: "كلمة حقّ أريد بها باطل".

وعلي اعتبر نفسه أوْلى بالخلافة وهذا يُفهم منه شعوره بالأفضليّة لأنه تأخّر عن بيعة أبي بكر وعمر ثمّ بايع خوف الفتنة[3] على المسلمين، ولكن بعد أبي بكر وعمر مرّت فترة زمنيّة كافية –حسب رأي آل البيت– ليتولّى الخلافة عليّ فلمّا عيّن عبد الرحمان بن عوف عثمان بن عفّان خليفة للمسلمين (29هـ/643م–35هـ/655م) إثر التداول بين ستّة الشورى الذين عيّنهم عمر بن الخطاب، قال عليّ غاضبا: « ليس هذا أوّل يوم تظاهرتم فيه علينا

---

1) الشهرستاني: الملل والنحل: 251/1.

2) اليعقوبي، التاريخ الكبير.

3) ابن الأثير: التاريخ الكامل: 36/3، وبهامشه تاريخ الواقدي، قيل إنّ عليّا لم يتأخّر عن مبايعة أبي بكر وإنما بايعه بيعتان: بيعة مصالحة وذلك بعد وفاة فاطمة –رضي الله عنها– وبعد ستة أشهر من التولي . [أنظر: البداية والنهاية لابن كثير: 285/5- 286].

بيعة أولى

فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون»، فقال له عبد الرحمان: «يا عليّ لا تجعل على نفسك حجّة وسبيلا»، فخرج عليّ وهو يقول: «سيبلغ الكتاب أجله»[1].

2. استعمال بني أميّة أساليب التّفرقة والفتنة بين آل البيت مستغلّين قضيّة صدقات فاطمة :

وكان المتخاصمون في هذا الظرف آل الحسن بن علي بن أبي طالب وينوبهم عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وآل الحسين وينوبهم زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب –رضي الله عنهم جميعا–.

وصدقات فاطمة[2] –رضي الله عنها– هي عبارة عن حيطان سبعة كانت على ملك اليهودي 'مُخَيْرِيق' وهو حبر من بني النظير أسلم وقاتل مع المسلمين في غزوة أحد حتّى استشهد، وكان أوصى بها (أي بهذه الأراضي) إلى رسول الله ﷺ وأوقفها النبيّ على ابنته فاطمة وهي غير داخلة في موضوع أرض 'خيبر" و'فدك' اللتين طلبتهما السيدة فاطمة من أبي بكر لأنهما كانتا على ملك الرسول عليه السلام في حياته، فامتنع (أبو بكر) مستدلاً بقوله ﷺ: «[نحن معشر الأنبياء] لا نورث، ما تركناه صدقةٌ»[3]، والوصيّة أو الوقف غير الميراث، وأوقفت فاطمة هذه الأراضي السّبع على زوجها عليّ بن أبي طالب قبل وفاتها وجاء في نصّ الوصيّة: «هذا ما أوصت فاطمة بنت رسول الله ﷺ بحوائطها السّبعة: الحسنى والصافية والدلال والعوان والبرقة والميثب وما لأمّ إبراهيم، إلى عليّ بن أبي طالب ومن بعد علي فإلى الحسن، ومن الحسن فإلى الحسين فإلى الأكبر من ولدي»[4]، وقد أثارت قضيّة الصدقات هذه –كما قلنا– الخصومة بين آل البيت، واستغلّها الأمويّون لزيادة

---

1) ابن الأثير: التاريخ الكامل: 53/3 وبهامشه تاريخ الواقدي.

2) تُعرف بـ'صدقات فاطمة' و'صدقات الرسول' 'ووقوف علي'... وتقع قرب المدينة.

3) الحافظ بن كثير: البداية والنهاية: 285/5–291.

4) ناجي حسن: ثورة زيد، من ص49 إلى 55.

الفرقة بينهم عملا بالمبدأ المعروف حاليا "فرّق تسُدْ"[1]، ومن ذلك ما وقع من خصام زمن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب لما حاول عمر بن علي بن أبي طالب انتزاع ولاية الصدقات لنفسه، ولا يُستبعد أن يكون ذلك بإيعاز من الحجّاج بن يوسف لإثارة الفتنة بين آل البيت لأنّ الحسن بن الحسن بن علي توفي سنة (90هـ/708م) في عهد الحجّاج الذي تولى العراق سنة للمسلمين (694م–718م)، ولكن عبد الملك بن مروان تدخل لصالح الحسن بن الحسن بن علي بعد أن تمّ له ما أراد من إثارة القلوب على بعضها بين آل البيت مدّعيا أنّ الحقّ إلى جانب الحسن باعتبار أنّ وصية فاطمة صريحة في كونها إلى الأكبر من أولاد علي منها وعمر بن علي من زوجة أخرى غيرها.

وفي عهد خلافة سليمان بن عبد الملك للمسلمين (96هـ/714م–99هـ/717م) تولّى الصّدقات زيد بن الحسن الذي توفي سنة (120هـ/738م) فنازعه أبو هاشم محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفيّة قائلا: «قد جعل علي هذه الوصيّة في صدقته إلى ذوي الفضل من أكابر ولده وأنا أكبر منك وأعلمُ بالله وكتابه وسنّة رسوله فلا تجوز هذه المكرمة دوني وإنّما الوصيّة لعليّ لا لفاطمة»[2]، وتدخّل سليمان بن عبد الملك بعكس ما تدخّل به أبوه (عبد الملك) فوقف إلى جانب من لم تكن جدّته فاطمة وإنّما هي امرأة أبيه، وهو أبو هاشم محمد بن الحنفية، وخالف صريح الوصيّة قصد زيادة شقّة الخلاف بين آل البيت.

ولمّا تولّى الخلافة عمر بن عبد العزيز العادل (وُلد سنة 60هـ/682م وتوفي سنة

---

1) ما يُعرف بالسّياسة "الميكيافلية" نسبة إلى السياسي الإيطالي "ميكيافلي" صاحب كتاب "الأمير"، ويعتمد على الخبث والدّهاء والكيد، ومن أقواله: «إذا أردت أن تكون سياسيًا محنكا فعليك أن تقدم على قتل أبيك إذا لزم الأمر»، كما أنّ اليهودي البريطاني "دزرائيلي" الذي وصل إلى رئاسة الحكومة الأنجليزيّة في القرن 19 في عهد المستعمرات يسير في اتّجاه ميكيافلي السّياسي ومن أقواله: «فرّق تسد» و«جوّع كلبك يتبعك» و«أكذب وأكذب حتّى يصبح الكذب حقيقة على الدّوام وعلي أيضا» و«إذا تقاتل الذباب ضمنت لنفسك نوما هانئا ولكن احذرْ أن يكون وجهك ميدانا للقتال»...

2) ناجي حسن: ثورة زيد، ص50–53.

102هـ/720م) أعاد ولاية الصدقات إلى زيد بن الحسن.

واستمرّت الصدقات تثير المشاكل بين آل البيت إلى عهد هشام بن عبد الملك (105هـ/724م-125هـ/743م) الذي لاحظ أنّ زيد بن علي بن الحسن يستقطب الشيعة حوله ويخشى منه أن يزاحمه على الخلافة فلا يستبعد أن يكون أوصى لواليه على المدينة خالد وإبراهيم بن هشام أن يسعى لتوسيع شقّة الخلاف بين زيد ممثّل آل الحسين وجعفر ثم عبد الله ممثلي آل الحسن، وكان زيد وجعفر يتبالغان « بين يدي الوالي إلى كلّ غاية ثم يقومان فلا يعيدان ما كان بينهما حرفا»[1]. ولمّا مات جعفر تولّى الأمر بعده أخوه عبد الله بن الحسن بن الحسن فتنازعا إلى والي المدينة إبراهيم بن هشام وقيل هو خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم، ومن تحريضه على الفتنة بينهما أنّ عبد الله انفلت به لسانه في لحظة غضب فأهان ابن عمّه زيدا بأمّه الهندوكيّة الأمة، فأجابه زيد بالمثل، ولكن بأسلوب فيه أدب كثير باعتبار أنّ أمّ زيد لم تتزوّج بعد وفاة علي أبيه، بينما أمّ عبد الله فاطمة والحرّة تزوّجت بثان بعد وفاة زوجها الحسن بن الحسن وندم زيد على ما فرط منه لأنّه ثلب عمّته وبقي مدّة لا يزورها وأحست الأخيرة بذلك فعذرت زيدا من جهة وعاتبته لعدم زيارته لها من جهة أخرى، ورأت من المنطق أن يدافع زيد عن أمّه، لأنّ عبد الله ابنها كان البادئ بالإهانة، ويقول الطبري في هذا: «وقيل إنّ فاطمة أرسلت إلى زيد إن سبّ عبد الله أمّك فاسبُبْ أمّهُ، وإنها قالت لعبد الله: أقلت لأمّ زيد كذا وكذا، قال: نعم، قالت: فبئس والله ما صنعتَ أما والله لنعم دخيلة القوم كانت» [2].

أمّا ابن الأثير فذكر رواية شبيهة برواية الطبري وتارة ينقل عنه نقلا حرفيا أو بالمعنى لأنّ الأخير أقدم من الأول [3]، ويقول ابن الأثير في نفس المعنى: «واستحيا [زيد] من

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 262/8.

2) المصدر نفسه: 262/8.

3) توفي الطبري سنة 310هـ/922م أمّا ابن الأثير فتوفي سنة 630هـ/1232 أو 1234م.

فاطمة وهي عمّته فلم يدخل عليها زمانا فأرسلت إليه: يا ابن أخي إنّي لأعلم أنّ أمّك عندك كأمّ عبد الله عنده، وقالت لعبد الله: بئس ما قلت لأمّ زيد أما والله لنعم دخيلة القوم كانت»[1].

وأدرك زيد بعد هذه الشتائم أنه ما كان من حقّهما أن ينزلقا إلى هذا المستوى وصمّم ألاّ ينال من ابن عمّه كلّفه ذلك ما كلّفه، رغم أنّ والي المدينة قال لهما -لزيادة الفتنة-: «أغدوا علينا فلستُ لعبد الملك إن لم أفصل بينكما»[2].

وباتت المدينة تغلي كالمرجل يقول قائل: قال زيد كذا ويقول الآخر: قال عبد الله كذا، من شامت مشّاء بالنّميمة لأنه من أذناب الأمويّين، إلى معجب بفصاحتهما، حتّى وصل الأمر بهؤلاء إلى أن يدوّنوا عنهما أقوالهما ويتذاكرونها ويحفظونها عن بعضهم البعض حتى لا تفوتهم قولة لم يتمكّنوا من تدوينها لسرعة النقاش.

وممّا يظهر سوء نية الوالي وتعمّده إثارة الفتنة بين زيد وعبد الله قولة الطبري التالية: «فلمّا كان الغد جلس خالد في المجلس في المسجد واجتمع الناس فمن شامت ومن مهموم فدعا بهما خالد وهو يحب أن يتشاتما»[3]، وبنفس العبارة تحدّث ابن الأثير مع تغيير طفيف[4].

وإحساس زيد بسوء نية الوالي دفعه إلى ألاّ يجاري ابن عمّه عبد الملك في كلامه قائلا له: «لا تعجل يا أبا محمد[5] إعتق زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبدا»، والتفت إلى خالد وقال: «لقد جمعتْ ذريّة رسول الله ﷺ لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر»، واستنجد الوالي بالحاضرين طالبا منهم أن يردّوا على زيد واصفا إيّاه بالسّفيه، فانبرى رجل

---

1) ابن الأثير: التاريخ الكامل: 85/5.

2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 262/8.

3) المصدر نفسه: 262/8.

4) ابن الأثير: التاريخ الكامل: 85/5.

5) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 262/8-263، هو محمد الملقب بصاحب النفس الزكية.

من الأنصار فقال لزيد: «يا ابن أبي تراب! وابن حسين الشفيه! أما ترى لوال عليك حقا ولا طاعة؟»، فقال زيد: «أسكت أيها القحطاني[1] فإنا لا نجيب مثلك»، قال: « ولم ترغب عني فوالله إني لخيرٌ منك وأبي خير من أبيك وأمي خير من أمك»، فتضاحك زيد وقال: «يا معشر قريش هذا الدين قد ذهب أفذهبت الأحساب، فوالله إنه ليذهب دين القوم وما تذهب أحسابهم»، فتكلّم عبد الله بن واقد بن عمر بن الخطاب فقال: «كذبت والله أيها القحطاني فوالله إنه لخير منك نفسا وأبا وأما ومحتدا» وتناوله بكلام كثير، قال القحطاني: «دعنا منك يا ابن واقد»، فأخذ بن واقد كفا من حصى فضرب بها الأرض ثم قال له: «والله ما لنا على هذا من صبر »[2].

ولنا أن نتصوّر من خلال هذه الرواية ما وصلت إليه حالة المسلمين من استخفاف بالدين والدنيا فالشتائم تتبادل في المسجد وهو لم يُجعل إلاّ للصلاة وقراءة القرآن وذكر الله، وورد في الحديث الشريف ما معناه: أنّ أيّ كلام يخرج عن ذكر الله في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

ويتّفق كلّ من الطبري[3] وابن الأثير[4] على أنّ زيدا بن علي توجّه إثر ما لحقه من الإهانة إلى الخليفة هشام بدمشق وليس غرضه أن يشتكي مما ناله لأنه يعلم أنّ بني أمية هم المتعمدون لذلك، وإنما ليطلب من الخليفة التدخّل لفضّ نزاع الصدقات بين آل الحسن وآل الحسين وهو يعلم –حسبما يبدو لي– أنّ الذي تعمّد إثارة الفتنة بينهم بواسطتها لا يُستبعد أن يتعمّد تركها بدون حلّ لمزيد من الاستغلال، ولكنه مضطرّ للذهاب إليه حتى لا يقول له يوما ما: إنك لم تتّصل بي في هذا الغرض فحكمتُ لفائدة أبناء الحسن، ولعلّ اتّصاله بهشام هو تقيّة من زيد حتى يقول له بطريق غير مباشر: إنني أعترف بك أميرا

---

1) عيّره بالقحطاني: لأنه من العرب العاربة وآل البيت من العرب المستعربة اتّصالا بالرسول ﷺ.

2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 263/8. وابن الأثير : التاريخ الكامل: 85/5.

3) المصدر نفسه: 85/5.

4) المصدر نفسه.

للمؤمنين وقد خاطبتك بذلك وها أنا أشكو إليك قضيتنا مع أبناء عمومتنا ولا تحدّثني نفسي بالخلافة ولا أتمناها، ولكن هشاما أبى أن يأذن لزيد بالدخول عليه، وهذا ما يؤيد ما قلناه سابقا من أنّ هشام بن عبد الملك يرمي إلى إبقاء المشكلة بدون حلّ، وهذا من شأنه أن تمتدّ له ألسنة أبناء الأعمام على بعضها البعض، وأن تنقلب فيه الأعراض ويتّسع فيه الخرق بالرغم من أنّ عبد الله لمّا مات أخوه جعفر تقدّم على أخيه الحسن بدعوى أنّ الأخير قد ينال زيدا بيده أو بلسانه، ولكنه انزلق فيما توقعه لأخيه من نيل بلسانه فحسب، ومع ذلك كان عبد الله يحترم ابن عمّه فقد ذكر الأصفهاني أنهما كانا يتخاصمان فإذا ما قاما أسرع عبد الله إلى دابّة زيد ليساعده على الرّكوب[1].

ولمّا ألحّ زيد على مقابلة هشام أمره الأخير أن يلحق بأميره أجاب زيد: «والله لا أرجع إلى خالد أبدا وما أسأل مالا وإنما أنا رجل مخاصم»[2]، وأخيرا أذن له بالمثول بين يديه وأوصى خادمه أن يتبعه بحيث لا يراه وعليه أن يسمع ما يقول -ولست أدري كيف سيتكلّم زيد وهو وحده؟ هل كان هشام متحقّقا من كلامه مع نفسه كما يفعل بعض المرضى النفسانيين؟ لا أظنّ ذلك صحيحا وإلاّ لكان ذكره الطّبري وبعده ابن الأثير- والذي يبدو لي أنها رواية فيها تزيّد حتى يقع إخراجها مع قولة زيد: «ما أحبّ الدنيا أحدٌ إلاّ ذلّ»[3] لمّا كان يصعد المدرج فاستراح في إحدى الدرجات لأنه كان بدينا وقال تلك القولة، والقولة في حدّ ذاتها لو وردت صدفة من زيد وسمعها الخادم فبلّغها إلى سيّده هشام لكان الأمر مقبولا أمّا عدا ذلك فهو غير معقول وصعب الوقوع. ولعلّ زيدا قصد بتلك القولة أنه في سبيل صدقات فاطمة وهي من حطام الدنيا سيذلّ، أو أنّ المقصود بها الخلافة لأنها تمثّل الدنيا والآخرة؛ وأذن هشام لزيد بالدخول عليه وأهانه بأمّه السّندية زاعما أنّ نفسه تمنّيه بالخلافة وهو ابن

---

1) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص129.

2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 263/8.

3) المصدر نفسه: 263/8.

-ابن الأثير : التاريخ الكامل: 85/5.

أمة، فردّ عليه بأنّ الأمّهات لا يقعدن بالرجال عن نيل المكرمات، وحجّته في ذلك أنّ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام كان رسولا وابن أمة هي هاجر ومنه جاء أعظم نبيّ في البشريّة هو جدّه محمد ﷺ: «وما على أحد من ذلك إن كان جدّه رسول الله وأبوه علي بن أبي طالب ما كانت أمّه» قال هشام: أخرج، قال: «أخرجْ ثم لا تراني إلاّ حيث تكره» (1).

ويُفهم من القولة أنّ زيدا رغم خروجه المشروع يرى أنّ السّياسيّ مهما كانت تقواه معرّض للخطأ، والحكمُ سلطة وشهوة وعدل ويُخشى أن يكون في خروجه يبتغي الدنيا رغم وضوح السّبب ومن يحبّ الدنيا يتعرّض للمذلّة ولذلك قال: «ما أحبّ الدنيا أحد إلاّ ذلّ»، وها هو حفيد رسول الله وحفيد ابنته فاطمة وحفيد ابن عمّه علي بن أبي طالب –عليهم السلام– يذلّه هشام بن عبد الملك فيتحرّك فيه شرفه ونخوته ويردّ ردّ المهدّد على هشام، ولكن الأخير تظاهر بعدم إعارة التهديد أيّة أهميّة.

3. الرواية الثالثة في سبب خروج زيد هي تهمة الأموال التي تسلّمها ومن معه من خالد القسري:

ذكر اليعقوبي أنّ هشاما أخبر زيدا حالة اتّصاله به أنّ التّهمة الموجّهة إليه هي أموال وودائع سلّمها له خالد القسري والي العراق السابق (724هـ–738هـ) وتتمثّل في ستمائة ألف درهم حسبما(2) بلغه من والي العراق الجديد يوسف بن عمر الثقفي (738هـ–743هـ). أمّا ابن الأثير فيذكر أنّ هذه التّهمة تتمثّل في أنّ «خالدا ابتاع من زيد أرضا بعشرة آلاف دينار ثم ردّ الأرض عليه»(3).

ويظهر أنّ زيدا ومن معه قدموا على الوالي الجديد يوسف بن عمر الثقفي وهم: محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وداود بن عوف الزهري، وأيوب بن سلمة بن عبد الله بن

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 263/8.

2) اليعقوبي: التاريخ الكبير: 56/3.

3) ابن الأثير: التاريخ الكامل: 84/5.

الوليد بن المغيرة المخزومي[1].

ويظهر أنّ زيدا وهؤلاء قدموا على والي العراق خالد القسري قبل عزله فأجازهم، فلمّا عُزل وشى به خليفته يوسف بن عمر الثقفي (738هـ-743هـ) إلى هشام مدّعيا الأموال والودائع والأرض المذكورة.

وقد تكون القضيّة صحيحة ولكن الوشاية لفّقتها باعتبار الإحن الناشئة بين السياسيّين خاصة إذا كان الخلف جاء إثر عزل السّلف، أو تكون ملفّقة لأنّ هشاما عزم على عزل خالد والانتقام منه لعدّة أسباب منها:

- إثراء خالد الفاحش وامتلاكه لضيعات كثيرة زاحمت في إنتاجها ضيعات الخليفة هشام، وكلّ ذلك بسبب الوجاهة التي نالها من تولّيه على العراق[2].
- بسبب تعرّض خالد لهشام بالذمّ وكونه ابن الحمقاء وأنّ ولاية العراق ليست له بشرف[3].
- بسبب إغضابه لقرشيّ، هو من آل عمرو بن العاص الذي عضّه خالد بلسانه فاشتكى القرشي إلى هشام بكتاب بعثه إليه كان له وقع شديد على الأخير خاصة وآل عمرو بن العاص لهم دالّة على بني أميّة لا تُنكر في تركيز دولتهم حتى أنّه عاقب خالدا بالمسير إلى القرشي ماشيا على قدميه وأن ينتظر أمام بيته ولو سنة حتى يأذن له فإن عفا عنه، وإلاّ فما يراه من عقاب كالجلد أو العزل ينفّذه[4]، ولذلك أمر هشام يوسف بتعقّب خالد وعمّاله وإلحاق الإذاية بهم واسترجاع الأموال التي جمعوها أثناء قيامهم بوظائفهم[5].

ولمّا سأل هشام زيدا ومن معه عن تهمة الأموال المودعة أقرّوا بالجائزة وأنكروا ما

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 260/8.
ابن الأثير: التاريخ الكبير: 84/5.
2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 249/8-250.
3) المصدر نفسه: 251/8.
4) المصدر نفسه: تاريخ الطبري: 250/8-251.
5) المصدر نفسه: 254/8.

سوى ذلك[1] من الودائع والأرض التي ابتاعها خالد من زيد وأعادها له بدون استرجاع ثمنها منه؛ وكان لطريقة مكافحتهم بخالد القسري إهانة لزيد ومن معه، فقد أشخصهم هشام إلى الكوفة ليستنطقهم الوالي الجديد يوسف بن عمر الثقفي، وكان زيد قد رجا هشاما ألاّ يبعثه إلى هذا الوالي خشية أن يعتدي عليه[2] لما عُرف به من الصّلف والخشونة والنقمة، فطمأنه هشام وبعث معهم أحد الحرس ورسالة إلى يوسف بن عمر الثقفي ليعجّل بالبتّ في قضيّتهم، ولمّا كوفحوا ببعضهم قال زيد وصحبه: «لم يستودعنا [خالد] مالا ولا له قِبلنا حقّ»[3].

وأورد ابن الأثير أنّ يوسف بن عمر الثقفي قال لزيد بن علي: « إنّ خالدا زعم أنه أودعك مالا، قال: كيف يودعني وهو يشتم آبائي على منبره، فأرسل إلى خالد فأحضره في عباءة فقال: هذا زيد قد أنكر أنّك قد أودعته شيئا، فنظر خالد إليه وإلى داود وقال ليوسف: أتريد أن تجمع مع إثمك فيّ، إنّما في هذا، كيف أودعه وأنا أشتمه وأشتم آباءه على المنبر، فقالوا لخالد: ما دعاك إلى ما صنعت؟ قال: شدّد عليّ العذاب فادّعيتُ ذلك وأملت أن يأتي الله بفرج قبل قدومكم فرجعوا، وأقام زيد وداود بالكوفة»[4].

ورُوي أنّ يزيد بن خالد القسري هو الذي ادّعى المال وديعة عند زيد ليخفّف العذاب عن أبيه الذي تمسّك بالإنكار، أو لم يقل إلاّ الحقيقة وهم يريدون توريطه، فلمّا كوفحوا أنكر يزيد بن خالد القسري اعترافه السابق قائلا: «ما لي عندهم قليل ولا كثير!، قال يوسف: أتهزأ بي أم بأمير المؤمنين؟ فعذّبه يومئذ عذابا كاد يهلكه»[5].

وإذا علمنا أنّ يوسف بن عمر الثقفي –في الرواية الأولى– عذّب خالدا وعذّبهم جميعا

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 8/260.

2) المصدر نفسه: 8/260.

3) المصدر نفسه: 8/261.

4) ابن الأثير: التاريخ الكامل: 5/84.

5) المصدر نفسه: 5/84.

وبسط عليهم الطعام[1]؛ عدا زيد بن علي فإنه لم يستطع أن يناله بأذى لمكانته في نفوس المسلمين وآل البيت فإنّ ما شاهده زيد من إهانة غيره حزّ في نفسه وزاده نقمة على بني أمية واقتناعا بالخروج عليهم.

ولم يكتف يوسف بن عمر الثقفي بذلك إذ أن رسالة الخليفة هشام له تأمره إن أنكروا أن يستحلفهم إثر صلاة العصر فحلفوا أنّ خالدا لم يودعهم مالا.

وقد تحمّل زيد ومن معه كلّ هذا إلاّ واحدا منهم فإنه لم يسافر معهم وهو أيوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي لأنه قريب هشام قرابة خؤولة من ناحية أمّ هشام بنت هشام بن إسماعيل بن الوليد بن المغيرة المخزومي[2].

كلّ ذلك من شأنه أن يزيد الإحن في القلوب والإحساس بأنّ الحكم الأمويّ حكم جائر قائم على المحاباة والقرابة، وأين هذا من عدل الرسول ﷺ وعدل الخلفاء الراشدين -رضي الله عنهم-؟

ولا نستغرب بعد ذلك إذا رأينا زيدا بن علي يخرج على بني أميّة ويواصل إشعال نار الثورة عليهم رغم قلّة من بقي معه في المعركة ممّن آثروا الوفاء على الخيانة.

وقد أحسّ هشام بما يعتمل في صدر زيد من ثورة مكبوتة وأحسّ بتهديده[3] إياه لمّا أهانه بأمّه السنديّة وأطرده من مجلسه، أو حتّى لمّا أمره بالمسير إلى يوسف بن عمر الثقفي لمكافحة خالد، فقال له زيد: «ما آمنُ إن بعثتني إليه ألاّ نجتمع أنا وأنت حيّين أبدا، قال: لا بدّ من المسير إليه»[4].

---

1) ابن الأثير: التاريخ الكامل: 84/5.

2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 261/8.

3) المصدر نفسه: 263/8.

- ابن الأثير: التاريخ الكامل: 85/5.

4) المصدر نفسه: 84/5-85.

ويعني هذا التهديد أنه سيخرج عليه فإن انتصر زيد قُتل هشام والعكس بالعكس وبذلك لن يكتب لهما أن يجتمعا حيّين؛ ومع ذلك فقد تظاهر هشام بعدم فهم التهديد أو بعدم إعارته أهميّة، ودلّ على حنكة سياسيّة في هذه الحادثة وعلى جهل بالسياسة في آن واحد لمّا أمر إليه يوسف بن عمر الثقفي بعدم إبقاء زيد بالكوفة لأنها شيعيّة تناصر آل البيت وترقّب من يقودها لقلب نظام الحكم الأمويّ، ولأنّ ذلك من شأنه أن يشجّع زيدا على الثورة ويُشعره بعلوّ مكانته لدى غيره ويزداد ثقة بنفسه عندما يعلم أنّ أنظارهم مسلّطة عليه، فأثاروا الفتنة بينه وبين آل الحسن بسبب الخصومة الناشبة حول صدقات فاطمة -رضي الله عنها- فلمّا لم يفلحوا استغلّوا قضيّة تهمة الأموال المنسوبة إليه، فلمّا لم يفلحوا أيضا قرّروا طرده من الكوفة.

وتحدّث اليعقوبي عن هذا بما نصّه: «فأقبل يوسف على زيد وقال له: إنّ أمير المؤمنين أمرني أن أُخرجك من الكوفة ساعة قدومك، قال: فأستريحُ ثلاثا ثمّ أخرُجُ قال: ما إلى ذلك سبيل، قال: فيومي هذا، قال: ولا ساعة واحدة فأخرجه مع رسل من قبله، فتمثّل عند خروجه بهذه الأبيات»[1]:

مُنْخَرِقَ الكَفَّيْنِ يشكو ألْوَجى *** تنكّبَهُ أطرافُ مَرْوٍ حِـــذادِ

شَـــرَّدَهُ الخَـوْفُ وأزرى بـــهِ *** كذاكَ مَنْ يكْرَهُ حَـرُّ الجِلادِ

قدْ كان في الموْتِ له راحـةٌ *** والموْتُ حَتْمٌ في رِقابِ العِبادِ

ومن هذا الاستشهاد ندرك أنّ زيدا بن علي يرى في الموت له راحة من المذلّة التي ألحقها بهم حكم بني أميّة الجائر.

والسّياسي الداهية هو الذي يسكت عند هذا الحدّ، ولا يكشف طريقة مراقبته لخصمه وإنّما يبعث عيونه وراءه يترصّدونه وهو مطمئنّ لعدم التتبّع فإذا ما صدر عنه ما يهدّد نظام الحكم الذي يسهر عليه ألقى عليه القبض بالتّهمة المنسوبة إليه مع وضوح القرائن، ولكن هشاما شجّع

---

1) اليعقوبي: التاريخ الكبير: 3/56-57.

زيدا على الثورة من حيث لا يشعر وكانت الثورة وكان استشهاد زيد –رض– يوم الجمعة في صفر سنة 740م بكناسة الكوفة وبها صُلب عريانا وعلّق رأسه بدمشق[1] حسب أمر هشام ووالية على العراق يوسف بن عمر الثقفي، ونشأت حول قتله وصلبه إرهاصات وكرامات روى بعضها أبو الفرج الأصفهاني في "مقاتل الطالبيين" عن الرسول ﷺ وعن أبيه علي زين العابدين وعن غيرهما من ذلك ما رواه سماعة قال: «أرأيت زيدا بن علي مصلوبا بالكناسة؟ فما رأى أحد له عورة، استرسل جلد من بطنه من قدامه ومن خلفه حتى ستر عورته»[2].

وأرسل يوسف بن عمر الثقفي والي العراق رأس زيد إلى هشام ليُصلب في دمشق وحمل الرأس زهرة بن سليم فأصيب بالفالج في الطريق فانصرف وأتته جائزة من عند هشام[3]. ولو كان هشام دخله همّ من قتل زيدا لما بعث بالجائزة لحامل الرأس كما إدّعى ابن كثير وابن قتيبة، ولرفض ابن سليم الجائزة، مثلما استطاع يزيد بن معاوية أن يقوم بدور تمثيلي بارع عندما قُتل الحسين، وجيء له برأسه فلم يعط شيئا لحامله وسبّه وسبّ قائده ابن زياد في قتله للحسين قائلا: «لعن الله ابن سمية»[4*]، أما هشام فلم يملك نفسه عن الفرح ولم يمنّ وبعث للمفلوج جائزة[5]. أضف إلى ذلك كلّه أنّ زيدا بن علي لم يتراجع رغم خيانة الكوفيين له ونكثهم بيعته، واستمرّ يقاتل بمائتين ونيف (209) من جلّة القراء والفقهاء بعضهم

---

1) المسعودي: مروج الذهب: 219/1.

– الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص143–144.

– الشهرستاني: الملل والنحل: 252/1.

2) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص 130–131، 140.

3) المصدر نفسه: ص143.

*) وروي عكس هذا، أن يزيد بن معاوية لعنه الله فرح بقتل الحسين وعبث برأسه بعصا الملك في يده مترجلا شعرا:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا ••• جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِن وَقْعِ الأَسَلْ

فَعَلَتْ فَرَحٍ يَـا يَزِيـدُ وَلاَ تَشَلْ

انظر: الفتنة الكبرى، كتاب ملء حسين: علي ومعاوية، ج 1، و(علي وبنوه ج 2).

5) أ– ابن قتيبة: الإمامة والسياسة: 199/2.

ب– تاريخ الأمم والملوك: الطبري، تحقيق دار المعارف بمصر، 5/...

ج– الحافظ بن كثير: البداية والنهاية/ 352/9.

خرج معه بسيفه والبعض الآخر أزره بما له ووقف إلى جانبه أدبيًا، فقد روى الأصفهاني عن الفضل بن الزبير قال:« قال أبو حنيفة: من يأتي زيدا في هذا الشأن [شأن خروجه على بني أميّة] من فقهاء الناس؟ قال: قلت سلمة بن كهيل، ويزيد بن أبي زياد، وهرون بن سعد وهاشم بن البريد، وأبو هاشم الرمّاني، والحجّاج بن دينار وغيرهم، فقال لي: قل لزيد لك عندي معونة وقوّة على جهاد عدوّك فاستعن بها أنت وأصحابك في الكراع والسّلاح، ثم بعث معي ذلك إلى زيد فأخذه زيد»[1].

وقال في ذلك أحد العلويين: « رحم الله أبا حنيفة لقد تحقّقت مودّته لنا في نصرة زيد بن علي»[2].

وقال الزمخشري في "الكشاف": « وكان أبو حنيفة يفتي سرّا بوجوب نصرة زيد بن علي وحمل المال إليه والخروج معه على اللّصّ المتغلّب المتسمّي بالإمام والخليفة»[3]، ونال أبو حنيفة من جرّاء ذلك التعذيب ولكنه استمرّ بعد مقتل زيد مؤزرا للزيديّة في شخص الإمام محمد بن عبد الله بن الحسن صاحب «صاحب النفس الزكيّة» الذي خرج على الخليفة العبّاسي أبي جعفر المنصور بالمدينة وخرج إبراهيم أخوه بالبصرة صحبة عيسى بن زيد واستطاع المنصور أن يقتل هؤلاء وأن يزجّ بأبي حنيفة في السّجن حتى مات في حبسه.

هذه ترجمة لزيد بن علي الحسين ﷺ في ثورته على بني أميّة، والآن نفسح المجال للحديث عن آرائه الشرعيّة، ومنها إمامة المفضول مع وجود الأفضل.

---

1) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص146-147.

2) المصدر نفسه، ص145-146.

3) أحمد أمين: ضحى الإسلام، 3/273-274، ط3، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة 1362هـ/1943م.

إمامـــة المفضول مع وجود الأفضـــل

****

وإذا أردنا أن نتحدّث عن جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل -وهو رأي زيد والزيدية من بعده في الإمامة- وجب علينا أن نضيف إلى الأسباب المباشرة في خروجه على بني أميّة سببا آخر هو:

1- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو سبب هامّ إلى درجة أنه يطغى طغيانا واضحا على الأسباب المذكورة، وقد أجّلتُ الحديث عنه لارتباطه بآراء زيد في أصول الدين التي لم تبق في حدود النظريات، بل خرجت إلى حيّز التطبيق، وأعني بها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد وجب على كلّ مسلم القيام به كما جاء في الآية القرآنية الكريمة: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) [1].

وكما جاء في قوله ﷺ: «مَنْ رأى منكُمْ مُنكرا فلْيُغيّرْه بيده فإنْ لم يستطعْ فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان» [2].

وهو مبدأ من مبادئ المعتزلة وأصل التوحيد عندهم (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وقد ثبت في بعض المصادر كـ'الملل النحل' للشهرستاني أنّ زيدا بن علي التقى بواصل بن عطاء الغزال زعيم المعتزلة وأخذ عنه بعض الآراء التي توافق مذهبه كمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخالفه في البعض الآخر كرأيه في أنّ أحد الفريقين في واقعة الجمل فريق علي وأصحابه وأهل الشام ومن معهم كان على خطأ يوجب الفسق لأنه مرتكب لكبيرة، قال الشهرستاني في هذا الموضع ما نصّه: « أراد زيد أن يحصّل الأصول والفروع

---

1) سورة آل عمران الآية: 110.

2) أو ما معناه.

حتى يتحلّى بالعلم فتلمذ في الأصول لواصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة مع اعتقاد واصل بأنّ جدّه علي بن أبي طالب في حروبه التي جرت بينه وبين أصحاب الجمل وأصحاب الشام، ما كان على يقين من الصّواب وأنّ أحد الفريقين كان على الخطأ لا بعينه، فاقتبس منه الاعتزال وصارت أصحابه كلّها معتزلة» [1].

ومرتكب الكبيرة –في رأي المعتزلة– في منزلة بين المنزلتين، فلا هو مؤمن ولا هو كافر، وهو رأي مقتبس من الطريقة الإسلامية التي تعتمد الدرجة الوسطى كحلّ بديل بين الإفراط والتفريط[2]، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[3].

ويبدو أنّ المعتزلة قالوا بهذا الرأي لأنهم أرادوا أن يداروا السلطة الحاكمة سواء أكان ذلك في عهد بني أميّة أم في عهد بني العبّاس وقد عايشوا الدولتين وسالموهما حتى اعتنق بعض الخلفاء كالمعتصم (177هـ/795م–224هـ/842م) مذهب الاعتزال، ونكّل بأهل السنّة. أما ابنه الخليفة المتوكل فقد نهى عن الخوض في خلق القرآن وناصر أهل السنة وعادى المعتزلة (247هـ/861م) في عهد حكمه

ممّا سبق نفهم أنّ المعتزلة أهل علم ونظر لا أهل علم وعمل كزيد والزيدية بصفة عامّة ولذلك خرج زيد على بني أميّة.

وأراد المعتزلة بهذه التقيّة أن يداروا أيضا آل البيت فلا يسبّونهم بالخطأ المباشر وهم الذين يجدون لهم في أنفسهم كلّ محبة وتقدير.

~~رأي تحسن برأي لا أجد له دليلا~~، وقد يبدو لي ~~ضلالا~~ وهو أن واصلا قال بهذا الرأي خوفا من بطش بني أميّة لأنه يعلم أنّ أهل الشام هم الذين كانوا على باطل وليس غريبا أن

---

1) الشهرستاني: الملل والنحل: 250/1.

2) الدكتور علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة، ص132–133، ط1، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، بدون تاريخ، تاريخ مقدمة المؤلف : 77/11/28.

3) سورة البقرة الآية: 142.

يكون صرّح لزيد سرّا بهذا ورجاه عدم إفشائه كما نفعل نحن أحيانا إذا وجّهنا كلاما بحضور من يكره هذا الرأي الذي نسوقه فيه فنلتجئ إلى توجيه هذا الرأي وجهة ثانية، فنخرج في الحكم على من يكرهه وعلى من هو بريء منه، وقد نشير للبريء تلميحا أو تصريحا بذلك حتى لا يؤاخذنا فيما نسبناه إليه، وهو أسلوب التقية المعروف قديما وحديثا لدى كلّ من أراد أن يوجّه نقدا مسموعا أو مكتوبا للسّلط الحاكمة أو لغيرها إذا وقع حيادهم عن الطريق السويّ وكان يخشى بطشهم، وهذا هو السرّ -حسبما يبدو لي- في عدم انفصام عرى الصّداقة بين زيد بن علي وواصل بن عطاء رغم حكم الأخير على جدّه علي أو على أهل الشام ومن معهم بالخطأ، ورغم لوم أخيه محمد الباقر وابن أخيه جعفر الصادق له على هذه الصداقة بسبب الحكم السابق ويراه الشيعة جائرا على عليّ بن أبي طالب.

وقد يكون زيد تحمّل اللّوم وحفظ على الصداقة، لأنّه وفيّ بعهده فلم يفش رأي صديقه من ناحية ولأنه رجل علم وعمل لا يفصم عرى الصداقة بسبب مخالفة في الرأي، وقد رأيناه يخاصم ابن عمّه عبد الله بن الحسن بن الحسن حول صدقات فاطمة، ومع ذلك فلم ينقطع ما بينهما من صلة الرحم، حتى أنّ عبد الله ابن عمّه كان يقوم إثر الحديث الذي يتبالغان فيه كلّ مبلغ وينثران فيه درر البلاغة على الحاضرين، كان يقوم على دابّة زيد ويساعده على الرّكوب [1].

ممّا سبق نستنتج أنّ زيدا بن علي ثار على بني أميّة تطبيقا لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أخلص له رغم الحالة التي وجد عليها نفسه في المعركة وقد تركه أصحابه بعد أن بايعوه، وقد بلغوا في رواية الطبري أربعين ألفا[2] وفي رواية ابن الأثير خمسة عشر ألفا[3]، وترك الكوفة مطرودا بعد المكافحة التي أجراها والي العراق يوسف بن

---

1) الأصفهاني: مقاتل الطالبين، ص129.

2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 265/8.

3) ابن الأثير: التاريخ الكامل: 86/5.

عمر الثقفي بين زيد ومن معه وبين سلفه خالد القسري، وبعد الطرد مباشرة شعر بالإهانة واستجاب بسرعة لطلب الكوفيين للثورة رغما عن كونه يعلم شهرتهم بإخلاف الوعد، ذلك أنّ الشيعة لحقت بزيد عند مكان يُدعى "الغديب"[1] وعرضوا عليه مائة ألف رجل من أهل الكوفة يضربون دونه بأسيافهم إذا خرج على بني أمية وهوّنوا من شأن جنود الشام واعتبروا أنّ قبيلة واحدة من قبائلهم كافية للقضاء على عدوّهم كقبيلة همدان أو تميم أو بكر وقالوا له: «فنشدك الله لما رجعت فلم يزالوا به حتّى ردّوه إلى الكوفة»[2]، «وأعطوه المواثيق والأيمان المغلظة فجعل يقول إني أخاف أن تسلّموني وتخذلوني كفعلكم بأبي وجدّي فيحلفون له»[3]، وقد حذّره من ذلك ابن عمّه داود بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وابن عمه محمد بن علي بن أبي طالب –اللذان اتُّهما بنفس تهمة زيد (الودائع والأموال)– من غدر أهل الكوفة [4]، كما حذّره قريبه سلمة بن كهيل[5]، وبعث له عبد الله بن الحسن الذي كان خصم زيد حول صدقات فاطمة –في نفس الموضوع– رسالة تدلّ على بلاغته التي أسلفنا الحديث عنها، وهذا نصّها: «يا ابن عمّ إنّ أهل الكوفة نفخ العلانية خور السّريرة هرج في الرّخاء جزع في اللّقاء تقدمهم ألسنتهم ولا تشايعهم قلوبهم، لا يبيتون بعدة في الأحداث ولا ينأون بدولة مرجوّة، ولقد تواترت إليّ كتبهم بدعوتهم فصممتُ عن ندائهم وألبست قلبي غشاء عن ذكرهم يأسا منهم وإطّراحا لهم، وما لهم مثلٌ إلاّ ما قال علي بن أبي طالب: إنْ أهملتم خُضتم، وإن حوربتم خسرتم، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم وإن أحييتم إلى مشاقة نكصتم»[6].

ووفاء لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزيادة في التأكيد لعدم النكوص طلب

---

1) الغديب: مكان يقع على بعد 21 ميلا من مدينة الكوفة باتجاه الحجاز [اليعقوبي: التاريخ الكبير: 57/3].

2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 264/8.

3) المصدر نفسه: 264/8.

4) المصدر نفسه: 265/8-266.

5) المصدر نفسه: 265/8.

6) المصدر نفسه: 265/8.

زيد من أنصاره أن يبايعون على قلب نظام الحكم الأموي بصيغة جامعة مانعة هي التالية: « إنّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم هذا الفيء بين أهله بالسّواء وردّ الظالمين، وإقفال المجمّر، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقّنا، أتبايعون على ذلك؟»، فإذا قال القائل: نعم، وضع يده على يده ثم قال: «اللهمّ إشهد!» (1).

وإذا أردنا أن نستخرج ما في هذه البيعة، من بنود جامعة لكلّ ما يمكن أن يفكّر فيه قائد محنّك عالم بالدين والدنيا، ومانعة لكلّ ما من شأنه أن يكون خارجا عنها، وداعيا للتأوّل والنكوص نجد ما يلي:

- الحكم الذي سيسوس به زيد الناس في صورة انتصاره على بني أميّة يعتمد على كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيّه ﷺ.
- جهاد الظالمين ويقصد بني أميّة.
- العدل بين المسلمين كافّة سواء أ كانوا عربا أم أعرابا أم أعاجم أم آل بيت رسول الله ﷺ، وأغلب هؤلاء مستضعفون محرومون من الأعطيات المغدقة على بني أميّة خاصة وأهل الشام عامة من بيت مال المسلمين.
- العدل في قسمة الغنائم بين المسلمين جميعا.
- إقفال المجمّر وهو ما وعد به زيد عند انتصاره على بني أميّة ويقصد به عدم إرسال الجند إلى القتال ووضعهم في الثّغور لمدّة طويلة وهو عمل انتقامي لجأ إليه الحجاج بن يوسف ضد العراقيين، فكان يجمّرهم في البعوث ويرسلهم إلى شرق المملكة الإسلامية في الفتح مع ما فيه من مشقّة ومفارقة لذويهم وأهليهم(2)، وبذلك يحقّق غايتين بوسيلة

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 492/5.

2) المصدر نفسه: 8/8.

واحدة وهما: الانتصار وما يتبعه من فتح واتّساع رقعة الإمبراطورية الإسلامية وغنائم لا تحصى ولا تعدّ، أو الهزيمة وموت العراقيين في ساحة الحرب واستراحة الدولة الأموية من ثوراتهم المتكرّرة.

- نصرة أهل البيت والذود عنهم وهو البند الذي جلب به زيد أنصارا عديدين من الشيعة أو ممن لهم ميول شيعيّة.

وخوفا من نكث الكوفيين العهد وغدرهم فقد قدم زيد في البيعة وعوده البرّاقة في البنود الستّة المذكورة وختمها بالعهد المغلّظ بينه وبينهم هو عهد الله وميثاقه وذمّته وذمّة رسوله ﷺ ليفينّ بالبيعة وليقاتلنّ عدوّهم ولينصحنّ له في السرّ والعلانية، فإذا قال المبايع: نعم! ممسح يده على يده ثم قال: اللهمّ فاشهدْ!. وبعد هذا فقد ظنّ زيد أنه لن يبقى لمبايع تراجع إلاّ إذا كان من طينة غير إسلاميّة.

وممّا يدلّ على تمسّك زيد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقرّرا الخروج على بني أميّة، ردّه على ابن عمّه داود بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب لمّا حذّره من غدر الكوفيين -وهو يعلم في قرارة نفسه أنه محقّ في تحذيره- ومع ذلك فقد قال زيد لداود: «إنّ عليّا كان يقاتله معاوية بدهائه ونكرانه بأهل الشام وإنّ الحسين قاتله يزيد والأمر عليهم مقبلٌ»، فقال له داود: «إنّي أخاف إن رجعت معهم ألاّ يكون أحد أشدّ عليك منهم وأنت أعلم»، ومضى داود إلى المدينة ورجع زيد إلى الكوفة (1).

وتحليل زيد لأسباب فشل عليّ بدهاء معاوية، وفشل الحسين بإقبال الأمر عليهم يعني أنّ الخلافة كانت مقبلة عليهم بسبب نجاح طريقة معاوية ومؤامرة عمرو بن العاص له وهو تحليل كأنه أراد منه أن يقول: أمّا الآن فأمر الخلافة مُدْبِرٌ على بني أميّة، والدليل على ذلك كثرة الثورات: ثورة خراسان وثورة إفريقية والمغرب وثورة زيد بن علي التي هي في طور

مُدْبِرٌ

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 265/8.

الإعداد آنذاك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فبنو أميّة كانوا شاعرين بتحرّك ضدّهم ظنوه علويا وهو في الواقع تحرّك عباسي لم يكشف أمره إلاّ بعد أن قضى أبو مسلم الخراساني على الدولة الأمويّة، وانتقم لآل البيت ونبش قبور بني أميّة مثلما نبشوا قبر زيد ومثّلوا به وصلبوه عريانا وصلبوا الحسين وسمّوا الحسن ولعنوا عليّا على المنابر ولقّبوه 'أبا تراب' كنية تحقيريّة... [1].

وقد تفطّن أحد شعرائهم (شعراء بني أميّة) إلى وجود هذا التحرّك السرّي الذي ينذر بالثورة ونار الحرب التي ستشنّ على ملكهم وهو نصر بن سيّار وهو أحد ولاّة بني أميّة على خراسان. فقال منبّها إيّاهم إلى ما تغافلوا عنه:

أرى خَلَلَ الرّمادِ وميضَ نارٍ *** ويوشكُ أن يكونَ لها ضرامُ
فإنّ النارَ بالعودين تذكَى *** وإنّ الحربَ أوّلها الكلامُ

وقال الشاعر ابن سيار لبني أميّة في هذا الغرض أيضا وفي نفس القصيد وقد شعر بوجود استعداد لتحطيم ملكهم:

أقولُ من التّعجُّبِ ! ليتَ شِعْري *** أ أيقاظٌ أميّةُ أمْ نيامُ
فإنّ يكُ قومُنا أضحوا نيامًا *** فقُلْ قومُوا ففد حانَ القيامُ!
فقُمْ قُومُوا فقُلْ عن رحلتِكْ ثم قولي *** على الإسلام والعربِ السّلامُ!

وكان زيد في الواقع يحسن بصدق ابن عمّه داود بن علي في نصحه وتحذيره، لأنّ زيدا نفسه نبّه الكوفيين إلى وجوب الوفاء بالعهد إن هم خرجوا معه على بني أميّة، مذكّرا إيّاهم بغدر أسلافهم بجدّيه عليّ والحسين -رضي الله عنهم- [2]، وكان زيد في إقدامه وتحذيره واقعا بين أمرين:

---

1) اليعقوبي: التاريخ الكبير : 3/51-58-61 . والمسعودي: مروج الذهب: 1/219. وأبو زهرة: الإمام زيد، ص46.
2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 8/264.

أولهما: خوفه من غدر الكوفيين وتاريخهم في ذلك مع الأئمة مشهور.

ثانيهما: إقدامه على المعركة رغم كلّ الاحترازات وفاء لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذا ما كان آخر الأمر، فلم يخش الموت، وقد سُمع آنذاك وهو في خضمّ التردّد والتحذير يتمثّل بقول الشاعر:

بكرتْ تخوفني المنون كأنني *** أصبحتُ عن عرض الحياة بمعزل

فأجبتُها إنّ المنيّة منهل *** لا بدّ أن أُسقى بكأس المنهل

إنّ المنيّة لو تمثّلتُ مثّلتْ *** مثلي إذا نزلوا بضيق المنزل

فاقني حياءك لا أبا لك واعلمي *** إنّي امرؤ سأموت إنْ لم أُقتل [1].

ولمّا قربت ساعة الثورة على بني أميّة وشعر الكوفيون باستعداد والي العراق يوسف بن عمر الثقفي، بجيش مدرّب على قمع الفتن والانتفاضات وهو المعروف بشدّته –والشيء من مأتاه لا يُستغرب!– أو ليس هو وريث الحجّاج بن يوسف في القسوة والفظاظة؟ إنه يحمل نفس لقبه! إنه ابن عمّه! لعنهما الله، ولعلّ هشام بن عبد الملك –وهو الفظّ القاسي–، لعنه الله، أراد أن يجدّد العهد مع وال صعب المراس يرمي به على العراق المعروفة بميولها العلوية وحبّها للفتن وصعوبتها على الخليفة في دمشق، وليس غريبا أن يكون الدواء أحيانا من جنس الداء، كما قال أبو نواس: "وداوني بالتي هي الداءُ"، لذلك كلّه أحسّ الكوفيون بالخوف فتراجعوا عن البيعة، وكانت هزيمة زيد رغم استبساله في القتال بمائتين وثمانية عشر [2] من القرّاء والفقهاء لم ينكثوا البيعة لأنهم علموا فعملوا ولم يتراجعوا حتى استشهد واستشهدوا.

---

1) ابن الأثير: التاريخ الكامل: 86/5.

2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 499/5 - والأصفهاني : مقاتل الطالبيين، ص137.

وكان لهزيمة زيد بن علي أسباب أهمّها:

1. الخوف الذي دبّ في نفوس الكوفيين مما جعلهم ينكثون العهد .

2. تعجّل زيد في الخروج قبل حلول الأجل المضروب بينه وبين أنصاره الكوفيين والبصريين والخراسانيين وأنصاره في الموصل وفي المدائن والريّ وجرجان لأنه تخوّف أن يأخذ عليه يوسف بن عمر الطريق لمّا فشا امر ثورته قبل قيامها، وكان قد «واعد أصحبه ليلة الأربعاء أوّل ليلة من صفر سنة اثنتين وعشرين ومائة [122هـ/740م]»[1] على الخروج، ولكنه خرج قبل الأجل بيوم، وتعجيل الخروج من شأنه أين يجعل تنفيذ الخطط مضطربا.

3. لجوء يوسف بن عمر الثقفي إلى حيلة شيطانيّة وتتمثّل في حصر [2] أغلب الكوفيين في المسجد الجامع وغلق أبوابه عليهم، وغلق دروب السوق وهذد كلّ من يوجد خارج المسجد بقطع عنقه وذلك لمّا بلغه تاريخ خروج زيد، «فبعث [يوسف بن عمر] الحكم بن الصلت يأمره أن يجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم فيحصرهم فيه فبعث الحكم إلى العرفاء والشرط والمذاكب والمقاتلة فأدخلوهم المسجد، ثم نادى مناديه أيّما رجل من العرب أدركناه في رحبة المسجد، فقد برئت منه الذمّة، أتوا المسجد الأعظم فأتى الناس يوم الثلاثاء قبل خروج زيد...».

ولمّا أحسّ زيد بغدر الكوفيين قال: «سبحان الله! أين الناس؟» قيل هم محصورون في المسجد فقال: «لا والله! ما هذا لمن بايعنا بعذر!» [3] وأدرك أنهم فعلوها حسينية [4] وعلويّة أي أعادوا معه ما وقع لجدّيه الحسين وعلي –رضي الله عنهما– وعلّق زيد على ذلك قائلا:

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 499/5 .

2) المصدر نفسه: 499/5 . والأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص136. وابن الأثير: التاريخ الكامل: 89/5. والأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص137.

3) المصدر نفسه: 499/5 .

4) المصدر نفسه: 501/5.

«وما أخلفكم! قد فعلتموها! الله حسيبكم!»[1].

4. سبب ظاهره مذهبي وباطنه محاولتهم تبرير نكث بيعة زيد بن علي: لمّا رأوا أنّ يوسف بن عمر الثقفي قد شدّد على زيد وعليهم الخناق وجهّز لهم جيشا من الرماة مدرّبا على قمع الثورات فأحسّوا بالخطر، وعندها اتّصلوا بزيد وسألوه في تهرّب ظاهر قائلين: «ما قولك في أبي بكر وعمر؟» قال زيد: «رحمهما الله وغفر لهما ! ما سمعت أحدا من آل بيتي يتبرّأ منهما ولا يقول فيهما إلاّ خيرا»، فأجابوه: «فلماذا تطالب بدم أهل البيت إلاّ أن يكونوا نزعوا سلطانكم واستأثروا به دونكم»، فقال لهم زيد: «إنّ أشدّ ما أقول فيما ذكرتم إنّ أحقّ بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين، وإنّ القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا وقد ولّوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنّة»، قالوا: «فلم يظلمك هؤلاء إن كانوا أولئك لم يظلموك فلم تدعو إلى قتال قوم ليسوا لك بظالمين ؟»، فقال: «إنّ هؤلاء ليسوا كأولئك إنّ هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم، وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه وإلى السّنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ، فإن أجبتمونا سعدتم وإن أنتم أبيتم فلستُ عليكم بوكيل»[2]. وأضاف فيما معناه: وليس هذا الأمر هو وقت الجدال الآن، وإنّما الغاية من إثارته هروبكم من قتال الظّالمين ونكث العهد الذي هو دأبكم ودأب أسلافكم مع الحسين الشهيد ﷺ.

والمنطق ما ذهب إليه زيد لأنه مهما كانت سيرة الخلفاء الراشدين، والتي لا يمكن أن يقدح فيها قادح، فإنّ الحاضر يتمثّل في بني أميّة في شخص الخليفة هشام بن عبد الملك الظّالم ومحاربته واجبة، ففارقوه وقالوا: «سبق الإمام»[3]، ويعني ذلك أنهم رفضوا إمامته فسمّاهم زيد "الرافضة"، فأصبح اسما يُعرف بهم في رفض إمامة الشيخين أبي بكر وعمر

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 500/5.

2) المصدر نفسه: 498/5 .

3) سبق الإمام: يعنون محمدا الباقر وكان قد مات، وقالوا: ابنه جعفر الصادق هو الإمام حسب وصية أبيه له، لا زيد بن علي [ابن الأثير: التاريخ الكامل: 89/5].

– رضي الله عنهم– وقالوا إنّ الإمام بعد محمد الباقر المتوفى سنة (119هـ/737م) هو ابنه جعفر الصادق المتوفى سنة (148هـ/765م) بوصية من أبيه؛ «وكانوا قد اتصلوا بجعفر الصادق قبل خروج زيد بن علي وقالوا له سائلين في تخابث: إنّ زيدا بن علي فينا يبايع أفترى لنا أن نبايعه؟، فقال لهم: نعم بايعوه فهو والله أفضلنا وسيّدنا وخيرنا، فجاءوا فكتموا ما أمرهم به»[1]، مما يدلّ على تلاعبهم وعدم صدقهم فيما هم عازمون عليه، وكأنّي بهم يحاولون إيجاد تعلّة لنكث البيعة فجعلوا جعفر الصادق كمستشار لعلمهم أنه ينافس زيدا على الإمامة –حسب فهمهم– ولأنه يخاصمه في صحبته لواصل بن عطاء الذي يذهب في القدر على غير ما يذهب إليه أهل البيت، ويجوّز الخطأ على علي بن أبي طالب في حربه لأهل الشام[2]، لأنّ الإمامة في نظر هؤلاء الروافض لا تعدو أن تكون حلية وتشريفا ومحاونة للثأر من خصومهم وليست تكليفا بمسؤولية شاقّة للعدل بين الرعيّة وحماية بيضة الإسلام، فلمّا أشار عليهم جعفر الصادق بعكس ما كانوا يتوقعون ويبغون كتموا ذلك، وكتمانهم علامة على ما بيّتوا من خيانة البيعة وإلاّ فإنّ ما أشار به عليهم جعفر الصادق يطمئنهم أكثر في إمامهم زيد بن علي ولا يكتمون هذه الشهادة الثمينة لرجل يستحقّها بل تزيدهم ثقة فيه وإصرارا على نصرته وخاصة إذا كانت من إمام معروف بالتقوى والفضل والعلم.

هذه رواية الطبري، أمّا البغدادي فيروي هذه الواقعة على النحو التالي: «وكان زيد بن علي قد بايعه على إمامته خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة خرج بهم على والي العراق يوسف بن عمر الثقفي[3] عامل هشام بن عبد الملك على العراقيين، فلمّا استمرّ القتال بينه وبين يوسف بن عمر الثقفي قالوا له: إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في أبي

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 5/498–499.

2) الشهرستاني: الملل والنحل: 1/249.

3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 5/498–499.

بكر وعمر اللّذين ظلما جدّك علي بن ابي طالب، فقال زيد: إنّي لا أقول فيهما إلاّ خيرا[1]، وإنّما خرجت على بني أميّة الذين قتلوا جدّي الحسين وأغاروا على المدينة يوم الحرّة ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار، ففارقوه عند ذلك حتى قال لهم: رفضتموني، ومن يومئذ سمّوا رافضة»[2].

وإذا كان الطبري والبغدادي قد لمّحا تلميحا إلى مذهب زيد في الإمامة (إمامة المفضول مع وجود الأفضل) وقدماء في عرض تاريخي فإنّ الشهرستاني قد صرّح به وهو كما قلنا (إمامة المفضول مع وجود الأفضل) سالكا في ذلك أسلوبا تحليليّا فيقول: «وكان [مذهب زيد]» جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل»، «كان علي بن أبي طالب أفضل الصحابة إلاّ أنّ الخلافة فوّضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها من تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلوب العامة فإنّ عهد الحروب التي جرت في أيّام النبوّة كان قريبا، وسيف أمير المؤمنين علي –عليه السلام– من دماء المشركين من قريش لم يجفّ بعد، والضغائن في صدور القوم من طلب الثّأر كما هي، فما كانت القلوب تميل إليه كلّ الميل ولا تنقاد له كلّ الانقياد، وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللّين والتقدّم بالسنّ والسّبق في الإسلام، والقرب من رسول الله ﷺ، ألا ترى أنّه (أبو بكر) لمّا أراد في مرضه الذي مات فيه تقليد الأمر عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– زعق الناس وقالوا: لقد ولّيت علينا فظّا غليظا، فما كانوا يرضون بأمير المؤمنين عمر لشدّته وصلابته وغلظ له في الدين وفظاظة على الأعداء، حتّى سكنهم أبو بكر –رضي الله عنه– وكذلك يجوز أن يكون المفضول إماما والأفضل قائم، فيرجع إليه في الأحكام ويحكم بحكمه في القضايا. ولمّا سمعت شيعة الكوفة

---

1) يوسف بن عمر الثقفي هو ابن عمّ الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق أيضا سنة (75هـ/694م–95هـ/713م) في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان والد هشام بن عبد الملك، وكان قاسيا على العراقيين (أي الحجاج) ولنا أن نتصوّر كيف أنّ هشاما يجدّد العهد مع الولاة القساة لقهر العراقيين فعيّن يوسف بن عمر الثقفي بعد خالد القسري واستمرّ يوسف بن عمر من (738هـ/745م) حيث قتل في سجن دمشق.

2) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص25.

هذه المقالة منه وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه حتى أتى قدره عليه»[1].

أمّا رواية ابن الأثير في كتابه "التاريخ الكامل"[2] فهي تكاد تكون نسخة من رواية الطبري وقد لمسنا ذلك فيما أخذناه عنه.

أمّا رواية الحافظ بن كثير في كتابه "البداية والنهاية"[3] فهي مختصرة وجامعة.

ومن تلك الروايات جميعا نستنتج ما يلي:

1. براءة الشيعة الروافض من الشيخين وتكفيرهما بسبب استئثارهما بالسلطة دون الأولى بها –حسب زعمهم– وهو علي بن أبي طالب –رضي الله عنهم جميعا–.

2. آل البيت عامّة وزيد بن علي خاصة يتولّون الشيخين منزّهين إيّاهما عن الظلم والكفر لعملهما بكتاب الله وسنّة نبيّه وعدلهما.

3. يرى زيد بن علي أنّ آل البيت أحقّ بسلطان رسول الله ولكن القوم استأثروا عليهم ودفعوهم عنه ولم يبلغ ذلك عندهم درجة الكفر، وقصد بهذا الاستثناء أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، دون غيرهما من خلفاء بني أميّة في عهده.

4. ويرى زيد أيضا أنّ عليّا بن أبي طالب أفضل الصحابة إلاّ أنّ الخلافة فُوّضت إلى أبي بكر للأسباب التالية:

1. سيف علي بن أبي طالب من دماء المشركين من قريش لم يجف بعد، والضغائن في صدورهم من طلب الثأر باقية لم تنس.

2. المصلحة تقتضي أن يتولّى الخلافة من عرف باللّين والتقدّم بالسنّ والسبق في الإسلام والقرب من رسول الله ﷺ، وهي شروط متوفّرة في أبي بكر الصديق –رضي–

---

1) الشهرستاني: الملل والنحل: 1/250-251.

2) ابن الأثير: التاريخ الكامل: 5/89.

3) الحافظ بن كثير: البداية والنهاية: 9/329-330.

وما سُمّي بالصدّيق إلا لأنه صديق الرسول الحميم وصاحبه في الغار (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا)[1]. ومتوفرة في عمر -رضي الله عنهما-.

5. وبذلك يظهر مذهب زيد بن علي -عليه السلام- وهو: جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل.

6. أن البيت غير مسؤولين عن انحراف بعض الشيعة وغلوّهم، لأنّ زيدا بن علي لم يسمع أحدا من آل بيت رسول الله ﷺ ولم يسمع أباه عليا زين العابدين ولا أخاه محمدا الباقر ولا ابنه جعفر الصادق يقول في الشيخين إلاّ خيرا.

وكانت غاية هؤلاء الرّوافض ترمي إلى تقويض المذهب السنّي، لأنه هزمهم سياسيا ولم يهزمهم حضاريا، والثّأر الكامن في نفوسهم ونفوس أبنائهم بعدهم في جعل مفكّريهم ودهاتهم يحاولون في العهود الإسلامية وعند ظهور التشيّع كفرقة مستقلة عن غيرها من الفرق الإسلامية، أن يفرضوا إيديولوجياتهم وعقائدهم على المسلمين بما فيها من ضروب الخيال والإغراق في الغلوّ، وهو أمر لو تحقّق لحصل الانتصار على المسلمين وعلى الدين الإسلامي في ثوبه السنّي، مع الإبقاء على شكله الخارجي إرضاء للعامّة من الشيعة الرّوافض المسلمين الذين لا يمكن أن يطّلعوا على هذا الأمر الخطير الذي جعل الخاصّة والقلّة، وصورة ذلك أنّ الحسين بن علي بن أبي طالب (61هـ/680م) تزوج الأميرة "شهربانو" ابنة آخر ملك كسروي هو "يزدكرد الثاني"[2] فأنجبت له علي بن الحسين المعروف بزين العابدين والد زيد بن علي، وبذلك اجتمع الشرف المحمّدي والدم الكسروي النبيل في الحسين وأبنائه وخاصة في عقبه، ولهذا فالأئمة الاثنا عشرية ينحدرون من الحسين بن علي وفاطمة -رضي الله عنهم- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لمّا تولّى زيد سليل الشرف المحمدي

---

1) نزلت في ذلك الآية الكريمة التالية (سورة التوبة الآية 40) تسجّل حادث الهجرة ونصّها: (إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا) .

2) الدكتور علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة، ص74-75.

والمجد الفارسي الشيخين ترك الشيعة الرّوافض إمامته، وقالوا إنّ الإمامة ليست له وإنّما هي لابن أخيه جعفر الصادق، بوصية من أبيه محمد الباقر الإمام، ممّا يدلّ على أنّ الإسلام عندهم لا يكفي أن يكون من آل البيت الذين اجتمع منهم الشرف المزدوج فحسب، وإنّما يجب أن يكون ذلك مقرونا بعدم تولّي إمامة للشيخين واعتبارهما ظالمين وكافرين -والعياذ بالله- سَلَبا حقّ الإمام علي في الخلافة وهو أوْلى بها. ولا تزال هذه العقيدة راسخة في هؤلاء غلاة الشّيعة ووسائل مواصلاتهم المكتوبة والمقروءة والمسموعة والمرئيّة.

ولقائل أن يقول: إنّ كلّ أئمة أهل البيت يتولّون الشيخين من علي إلى آخر أحفاده فلماذا اعترف الشيعة بإمامتهم ورفضوا إمامة زيد بن علي؟

وللجواب على ذلك نقول: إنّ هؤلاء الأئمة تغلب عليهم التقيّة تجاه حكّام بني أميّة وتجاه أنصارهم، يخشون من بطش أولئك وتخلّي هؤلاء عنهم، فداروهم بدون أن يطعنوا في الشيخين ولو صادفتهم ظروف الخروج شاهرين أسيافهم على الظلم التي صادفت عليّا والحسين وزيدا رضي الله عنهم، لكانت صراحتهم أمرا لا مفرّ منه ولتخلّى عنهم أنصارهم مثلما تخلّوا عن أعظم أئمتهم المذكورين وهم في أحرج المواقف، تخلّوا عن علي وكفّروه لأنه رضي بالتحكيم وطالبوه بالتوبة وإعلان إسلامه من جديد لينصروه على أعدائه فتمسّك -كرّم الله وجهه- بالحقّ حتى قتله الملعون الخارجي عبد الرحمان بن ملجم في 17 رمضان سنة (40هـ/660م)، مع العلم أنّ الذين فعلوا كلّ هذا هم الخوارج وهم من الأعراب ومنهم عدد كبير من الموالي الأعاجم، وبتأثير الشيعة في الخوارج والعكس بالعكس غير خاف حتى أنّ الخوارج اتّصلوا بيحيى بن زيد بعد قتل أبيه، وطلبوا منه أن ينصروه في قتاله لبني أميّة فرضي ولكن يزيد بن عمر وهو أحد المقرّبين إليه نصحه، بعدم قبول مساعدة قوم يبرؤون من علي وآل بيته فتخلّص منهم بلطف وقال لهم قولا جميلا[1].

وتخلّى الشيعة أيضا عن الحسين حتى استشهد في كربلاء سنة (61هـ/680م)، ثم

---

1) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص154.

ندموا على تفريطهم في نصرته حتى سمّوا بـ"التوابين" ممّا اقترفوه تجاهه من الخيانة والخذلان ووجدوا أنفسهم بعد ذلك لقمة سائغة في يد المختار بن أبي عبيد الثقفي (67هـ/686م) –لعنه الله– فسار بهم في الغلوّ أشواطا كريهة ترضي منزعهم الإشراقي.

وتخلوا عن زيد بن علي بعد أن بايعوه حتى قتل سنة (122هـ/740م) وعُلّق رأسه بدمشق وصلب جسده بالكوفة ممّا حدا ببعض شعراء بني أميّة لعنه الله أن يقول ظانّا إيّاه المهدي المنتظر، كما يقول الشيعة المغالون:

صلبنا لكمْ زيدًا على جذْعِ نخلةٍ *** ولمْ أرَ مهديًا عَلى الجذْعِ يُصلَبُ[1]

كما يحتمل أيضا أنّ زيدا بن علي لُقّب بالمهدي، ولكنه لا يرضى أن يكون المهديّ حسب فهم المنحرفين، وإنّما المصلح المهدي الذي يهدي إلى الحقّ ويدكّ عرصات الظلم.

ونحن نحسّ بهذه التقيّة –إن صحّ التعبير– أو المداراة في ردّ زيد على أنصاره عندما قال لهم: «إنّ أشدّ ما أقول فيما ذكرتم إنّي أحقّ بسلطان رسول الله من الناس أجمعين وإنّ القوم استأثروا به علينا ودفعونا عنه...»[2].

فمن أين جاءت هذه الأحقيّة؟

وكيف يعقل أن يكون أبو بكر وعمر استأثرا بحقّ عليّ وآل البيت ودفعاهم عنه؟

ألا ترون أنّه استعمل صيغة الجمع بين "استأثروا" و"دفعوا" ليرضي أنصاره من ناحية ولا يتورّط هو في اتّهام الشيخين من ناحية أخرى، وحتّى يكون بنو أميّة هم المقصودين –أوّلا وقبل كلّ شيء– بهذا الجمع ومعهم ربّما الشيخان وعثمان –رضي الله عنهم– مع الملاحظة أنه لم يصرّح باسم عثمان بن عفان عند ذكر الشيخين، كلّ ذلك لجأ إليه زيد بن علي لإرضاء منزع الشيعة لأنّه في أشدّ الحاجة إليهم في ثورته، وإلاّ فما المقصود بأحقيّة آل

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 498/5.

2) المسعودي : مروج الذهب: 219/1

البيت بسلطان رسول الله دون غيرهم؟ أليس زيد صاحب مذهب "إمامة المفضول مع وجود الأفضل"! وأنّ الغاية هي في تعيين الإمام الأصلح للمسلمين سواء أكان من أهل البيت أم من غير ذلك ولو وُجد من هو أفضل منه؟ على أنه إذا اجتمع إمامان صالحان واحد من عامّة المسلمين وآخر من آل البيت، فالثاني هو المقدّم. حسب قول رسول ﷺ: «الأيمّة من قريش أبرارها أمراء أبرارها، وفجّارها أمراء فجّارها.»[1]

أفلا ترون أنّ هذا المذهب يكاد يكون مذهب أهل السنّة؟ وأنّ زيدا التجأ إلى صيغة "أحقية آل البيت بالخلافة" وأنهم استأثروا بها دونهم ودفعوهم عنها تقيّة لأنصاره –أو على أصحّ تعبير– مداراة لهم (لأنصاره من الشيعة) ولمّا لم يعتمد التقيّة كما يجب عليها الاعتماد لأنها لم تدخل في مذهبه فقد رفضوه وتخلّوا عنه.

والتقيّة أو المداراة لا تكون مع السلطة الحاكمة والظالمة فحسب بل تكون حتى مع الأنصار المغالين أحيانا، ألاترون أنّ محمد بن علي بن أبي طالب الملقّب بابن الحنفيّة كان أنصاره يقولون له: أنت المهديّ المنتظر! –حسب مفهومهم– فيجيبهم: نعم أنا المهديّ! أهدي إلى الحقّ. وأورد الدكتور علي الشابي في كتابه "مباحث في علم الكلام والفلسفة" في هذا ما نصّه: «دعا [المختار بن أبي عبيد الثقفي] إلى مهدية الوصيّ محمد بن علي وربط بينها وبين وفادته عليهم من قبله أمينا ووزيرا ومنتجيا وأميرا... وكانوا يسلّمون على محمد بن الحنفيّة: سلام عليك يا مهديّ! فقال: أجل: أنا مهديّ! أهدي إلى الرشد والخير، اسمي اسم نبيّ الله وكنيتي كنية نبيّ الله! فإذا أسلم أحدكم فليقل: سلام عليك يا محمد، سلام عليك يا أبا القاسم»، ولهذا قال عامر الكناني:

يا إخْوتي! يا شيعتي! لا تبعدوا *** وآزرُوا المَهْدِيَّ كَيْمَا تهتدُو

1] رواه الحاكم عن علي بن أبي طالب، ورواه أحمد والنسائي عن أنس بن مالك في السنن الكبرى، وابن أبي شيبة وصححه الألباني وشعيب الأناؤوط ورواه ابن حجر في كتاب "الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير". ورواه الطبراني والبيهقي من حديث علي وخرّجه الدارقطني، وإسناده حسن. ومتفق عليه عند أبي هريرة، وعن جابر لمسلم متفق عليه، ورواه البخاري والترمذي.

وإسناده

بألفاظ مختلفة

محمّد المُختار! يا محمد! *** أنْتَ الإمامُ الطّاهرُ المسدّدُ (1)

وبذلك استطاع محمد بن الحنفيّة أن يداريهم بدون معارضتهم صراحة في فهمهم المغالي لمعنى المهديّ المنتظر حتى لا يتخلّوا عنه وهو في أشدّ الحاجة إليهم.

أمّا المختار بن أبي عبيد الثقفي فإنه ما دعا لمهدية محمد بن الحنفيّة عن اعتقاد بهذا المبدأ الشيعي وإنّما ليكسب أنصارا جددا يضمّهم إلى أنصاره وهم أنصار محمد بن الحنفيّة، وبذلك استعمل معه التقيّة والمداراة مظهرا له الدعوة، مخفيا له الكراهية، متمنّيا موته، حتى أنه كان يتظاهر بكرامات الأولياء ويدّعي علم الغيب أمام رجاله كعادته في تزهاته، فأخبرهم يوما أنّ من علامة المهدي المنتظر، أنّه سيضرب في سوق الكوفة ضربة بالسّيف لا تحيك فيه لأنه علم بقدوم محمد بن الحنفيّة إليها، فبيّت قتله تخلّصا منه بطريقة ترضي الانحراف الشيعي ولاتثيرهم عليه، لأنه يطمح إلى الحكم والسلطة وهو يقف عقبة في طريقه، فلمّا علم محمد بن الحنفيّة بالمكيدة عدل عن الزيارة! ولو ضرب وقتل وسأله أنصاره: ألم تقل إنّ ضربة السّيف لا تحيك فيها لأجابهم: أعلمني الله بذلك أوّل الأمر، ثم بدا له أن يُقتل! عملا بنظرية "البداء" التي نشرها بين أصحابه، واستغلّها استغلالا فظيعا. ولو قُتل محمد بن الحنفيّة لادّعى أنه وصيّه ووريثه وبذلك يكون أهلا للإمامة في نظر أنصاره (أنصار محمد بن الحنفيّة).

وهذا نصّ القولة كما أوردها الدكتور الشابي: «إنّ في المهدية علامة يقدم بلدكم هذا فيضربه رجل في السّوق بالسّيف لا تضرّه ولا تحيك فيه فبلغ ذلك ابن الحنفيّة فأقام»(2).

7. النقطة السابعة التي نستنتجها من الأقوال السابقة، في تخلّي الكوفيين عن زيد بن علي هو أنه لمّا تولّى الشيخين أجابه أنصاره المتخلّون عنه بأنه إذا كان الشيخان ومن جاء

---

1) الدكتور علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة، ص98.

2) المرجع نفسه: ص99.

بعدهما من الخلفاء لم يظلموه ويفتكوا منه السلطة ومن آل البيت، فإنّ هؤلاء الحكّام من بني أميّة المعاصرين له لم يظلموه أيضا! ولذلك يستغربون في سخرية وتخابث، كيف أنه يدعو إلى قتال قوم ليسوا له بظالمين! وهي مكيدة منهم لمحاولة تبرير نكثهم بيعته في سفسطائية ظاهرة حتى يبدو زيد للناس أنه هو المتسبّب في تخلّيهم عنه، وإلاّ كيف يُعقل أن يبايع القوم على قتال مظلومين؟ وكيف يعقل أيضا أن يجاروه هم في ذلك؟ ولماذا لم يتفطّنوا لهذا الظّلم إلاّ قبل المعركة بيوم واحد؟ أليس ذلك دليلا على تعوّدهم نقض العهد، وعلى جبنهم في القتال؟ وإلاّ كيف نفسّر اندفاعهم لمبايعة زيد بأعداد وافرة بلغت الخمسة عشر ألفا عند البعض والأربعين ألفا عند البعض الآخر، وتراجعهم عن القتال لمّا حلّ موعده؟ أليس ذلك علامة الجبن لعلمهم بإعداد يوسف بن عمر الثقفي لهم جيشا من الرماة عدده ثلاثة آلاف، مدرّبا على قمع الفتن والثورات، وعلامة على حبّهم للانحراف والمغالاة في الاعتقاد تأسّيا بالمذاهب الفارسيّة المغرقة في الخيال والتأويل والغلوّ قبل الإسلام والحالة أنهم في أغلبهم فرس.

ولكن زيد بن علي لم تفحمه السفسطة فقد تفطّن إليها وكان سريع البديهة فردّ عليهم بأنّ هؤلاء الحكّام من بني أميّة ظالمون لي ولكم ولأنفسهم.

ظلموه لأنه يرى نفسه أولى بالخلافة والمصلحة تقتضي تولّيه إيّاها لا لأنه من آل البيت وإنّما لصلاحه وفساد الحاكم آنذاك. وظلموهم لأنهم لم يعدلوا بين الرعيّة، وقد رأينا كيف كانت المحاباة بين الشاميين والعراقيين مهولة في الأعطيات وفي بعوثات الجيش المجمّر وفي قسمة الفيء، ويصل الأمر أحيانا إلى حرمان العراقيين من حقّهم حرمانا تامّا بأسلوب جاهر وبدون تَخَفٍّ مع ما يعقب ذلك من تنكيل وتعذيب لأقلّ شبهة.

وظلموا أنفسهم لأنّ شهوة السلطة أنستهم القيام بالواجب والعدل بين الرعيّة، فكيف سيقابلون ربّهم وقد وُلّوا أمور المسلمين فظلموا وفسقوا وسنّوا الباطل لمن جاء بعدهم كالوراثة في الحكم، وقد قال ﷺ: «من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة،

ومن سنّ سنّة سيّئة فعليها وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» [1]، وأين هم من قولة أبي بكر –رضي الله عنه– حين تولّى الخلافة: «أيها الناس قد وُلّيت أموركم ولست بخيركم فأطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم».

وقولة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– حين تولى الخلافة أيضا: «أيها الناس إن رأيتم فيّ اعوجاجا فقوموني»، فردّ عليه أحد الحاضرين قائلا: «والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناك بحدّ السيف!»، فانبرى له أحد الحاضرين ليؤدّبه فنهره عمر قائلا: «الحمد لله الذي جعل في أمّة محمد من يقوّم عمر بحدّ سيفه إذا اعوجّ!»، وكان عمر يعتبر نفسه مسؤولا عن رقاب كلّ المسلمين وممتلكاتهم حتى لو كانت بغلة لهم عثرت في العراق.

وذلك كلّه تطبيقا لما أمر به الإسلام من حفظ الدين والنفس والمال.

8. يظهر أنّ سبب خروج زيد بن علي لم يكن من أجل استئثار الشيخين ومن جاء بعدهما به بالخلافة دون علي وآل البيت لأنه ربّما يدخل في باب المصلحة التي تقتضي تولّي شخص دون آخر. ولو كان الثاني أفضل من المتولّي وهو مذهب زيد في إمامة المفضول مع وجود الأفضل، وإنّما لأنّ بني أميّة قتلوا جدّه الحسين –رضي الله عنه– وأغاروا على المدينة يوم الحرّة ثم رموا الكعبة بحجر المنجنيق والنار، هذا ما صرّح به زيد بن علي ورواه البغدادي[2] في سبب خروجه، أمّا السبب الثاني والأهمّ والذي لم يصرّح به ولكنه يفهم من سياق السير وعن مكاتبه فهو ظلم بني أميّة وتطبيق زيد من أجل ذلك مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يضاف إليه الأسباب الأخرى لأن أمه أمة، وهو تمييز عنصري.

9. قدّم أبو بكر –رضي الله عنه– للخلافة على عليّ –كرّم الله وجهه– للينه وتقدّمه في السّنّ وسبقه

---

1) رواه مسلم عن أبي هريرة.

2) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 25.

في الإسلام –حسب رواية الشهرستاني– وهي صفات يبدو لي أنّ عليّا يشاركه في اثنين وهما: اللّين والسّبق في الإسلام، فعليّ لم يعرف الفظاظة والغلظة رغم شدّته على الأعداء في ميدان القتال، وللينه وطيبة قلبه رأى بعضهم أنه لا يصلح للخلافة لأنّ الطيّب تسهل مخادعته والطيّب جدّا غير محبّذ في المثل الفرنسي[1] – وحاشا الإمام عليّ من ذلك–.

كما أنّ الإمام عليّ كان أسبق الصغار إلى الإسلام، فقد أسلم وعمره سبع سنوات، ولم يسجد في حياته لصنم قطّ لذلك يكرّم المسلمون وجهه عند ذكر اسمه، ولأنّه لم يتكشّف على عورة غيره قطّ[2]، يقولون (كرّم الله وجهه) بينما أبو بكر وعمر وعثمان –رضي الله عنهم– أسلموا وهم كبار وسجدوا في حياتهم قبل الإسلام للأصنام. ووأد عمر بن الخطاب ابنته، ولكن لا ننسى أنّ "الإسلام يجبّ ما قبله"[3]، كما قال النبيّ ﷺ، وقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾[4]. وما ذكرنا ذلك إلاّ من أجل المقارنة والردّ على الشهرستاني في نقله. ويمتاز أبو بكر على كافّة الصحابة بما فيهم عليّ رضي الله عنهم بالتقدّم في السنّ وصحبته لرسول الله ﷺ وعدم مفارقته له في حلّه وترحاله وجلّ فترات حياته حتى دعي بالصدّيق، وقد نزلت فيه الآية القرآنيّة الكريمة في الهجرة في هذا الشّعب، وهي ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[5] الشكر وهو أمر لم يشر إليه الشهرستاني وإنّما بيّن السّبب في عدم تولّي عليّ للخلافة وهو الأقرب نسبا إلى رسول الله بأنّ سيفه من دماء المشركين من قريش لم يجفّ

---

1) يقول المثل الفرنسي: طيّب جدا رديء جدا "Trop bon, trop con". الطيب جدًّا مُغفَّل جدًّا

2) رُوِيَ أنّ عمرو بن العاص فرّ من الإسلام علي في خروجه ضدّ الشاميين فلحق به الأخير ولمّا اقترب من القبض عليه لأنه من أنصار معاوية كشف عمرو بن العاص عورته خوفا من القتل، لأنّه يعرف عليّا جدا ويعرف تقواه فما كان من الأخير إلا أن تركه وذهب في سبيل حاله ونجا عمرو بن العاص بهذه الحيلة. [أنظر: ابن قتيبة: الإمامة والسياسة].

3) حديث متّفق عليه ورواه مسلم عن عمرو بن العاص لما أسلم أمام رسول الله ﷺ: "أما علمت أنّ الإسلام يهدم ما قبله". صحيح

4) سورة الأنفال، آية 38.

5) سورة التوبة، آية 40. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

بعد، والضغائن في القلوب من طلب الثأر لاتزال كما هي رغم دخول ذوي هؤلاء المقتولين في الإسلام، والسبب -حسبما يبدو لي- في قيام هذه الضجّة من التحمّس -قديما وحديثا- حول الإمام علي وأحقيته بالخلافة بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرّفيق الأعلى وهو الأقرب إليه نسبا هو ما يلي:

- اجتماع الشّرف المحمّدي والمجد الكسروي في أحفاد عليّ من ابنه الحسين الذي تزوّج "شهربانو" بنت آخر ملك كسروي هو "يزكرد" الثّاني، والفرس يقولون بنظرية الحقّ المقدّس في الحكم ونقلوا ذلك إلى المسلمين بإسلامهم.(1)
- الإسلام فتح على الإمبراطورية الفارسية سياسيا رغم قوّتها فعزموا على الانتقام من العرب المسلمين بنشر حضارتهم العظيمة التي استوعبها الإسلام وهضمها حتّى كان أغلب علماء الإسلام من المسلمين الفرس الأعاجم وأعظم بطولاتهم في المعارك والحروب من الأتراك المسلمين الأعاجم، ولذلك قال الرسول ﷺ: " لو كان الدين معلقا بالثريا لتناوله رجال من أهل فارس"، وفي رواية: " لو كان الإيمان معلقا بالثريا لا تناله العرب لناله رجال من فارس"، روايتان شيعيتان وفي رواية سنّية: " لو أن العلم في الثّريا لتناوله رجلٌ أو رجالٌ من أبناء فارس"(2) بتشويه مبادئه السّمحة بدسائسهم ومؤامراتهم وانحرافهم وإغراقهم في الخيال وإنّ شئنا أن نقول: أراد تحطيمه بحضارته فعجزوا عن تحطيمه سياسيا.

---

1) انظر: كتاب آرثر كريستنسن المستشرق الفرنسي، إيران في عهد الساسانيين، تحقيق يحيى الخشاب وعبد الوهاب عزام، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، [د. ت].

2) رواه أبو نعيم، في الحلية عن أبي هريرة ورواه الشيرازي في الألقاب عن قيس بن سعد، وروى البخاري عن أبي هريرة ﷺ في باب قوله تعالى: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(سورة الجمعة، آية 3)، قال: كنّا جلوسا عند النبيّ ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة،:﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ - وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ قلت: " من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتى سأله ثلاثا، وفينا سلمان الفارسي ﷺ وضع رسول ﷺ يده على سلمان، ثمّ قال: لو كان الإيمان عند الثّريا، لناله رجال من هؤلاء". ص 568 من كتاب مختصر صحيح البخاري للزبيدي، دار ابن حزم (سنة 1422هـ/2001م) بيروت، لبنان.

- مطالبة الموالي بتسوية وضعيتهم ومعاملتهم كغيرهم من المسلمين العرب فتمسكوا بأحقيّة علي في الإمامة تمسّك الغريق بخشبة في البحر. وإذا علمنا أنّ أوّل خليفة أمويّ هو معاوية بن أبي سفيان «همّ ذات مرّة بأن يقتل شطرا منهم [من الموالي] على أن يترك الشطر الثاني للحاجة إليه في الأعمال الصغيرة»، كما لام معاوية أيضا الحسن بن علي بن أبي طالب لزواجه بمولاة له[1]، إذا علمنا ذلك أدركنا مدى كراهية الفرس للدولة الأمويّة ووقوفهم مع كلّ ثائر عليها حتى وإن كان الشيعي من غيرهم، ومعهم أغلب المسلمين من محبّي آل البيت والسنيّين عامّة.

- محبّة المسلمين للنبيّ ﷺ وظنّهم أنهم إذا ولّوا عليّا الخلافة يردّون الجميل لرسول الإنسانية قاطبة، بينما لم يطالبهم -عليه السلام- بذلك، بل أمر بطريق غير مباشر أن تكون الخلافة بالانتخاب. (أبي بكر وعمر وصر في عهد عثمان رضي الله عنهم)

- أنّ المتعارف عليه في نظم الحكم في الدنيا قاطبة وحتى في مملكتي العرب الغساسنة والمناذرة هو الحكم الوراثي، وبما أنّ عليّا أقرب آل رسول الله إليه فمنطق العامّة يقتضي تعيينه خليفة له، ولو كان الرسول نفسه يرى ذلك لعيّنه قبل وفاته.

وإذا فرضنا أنّ ما يرويه الشيعة الإمامية من أنّ الرسول -عليه السلام- أوصى لعليّ بالنصّ وبالوصف وما يرويه بعض الزيديّة وهم فرقة الجارودية[2] من أنّه أوصى له بالوصف لا بالنصّ صحيحا، يصبح ما نقله الشهرستاني عن الإمام زيد غير مقبول[3] لأنه كيف يعقل أن يكون عليّا أفضل الصحابة ومستحقّا للخلافة قبل الشيخين بالوصيّة له أو باتّفاق المسلمين، ثم يتنازل عن الخلافة لغيره، وعليّ -كرّم الله وجهه- معروف بأنه لا يخشى في الحقّ لومة لائم فهو لم يتنازل للخوارج ليعلن كفره لقبوله بالتحكيم -كما ادّعوا-

---

1) الدكتور علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة، ص73-74.

2) الشهرستاني: الملل والنحل: 217/1. [هامش الفصل لابن حزم، مع العلم أنّ الإمام زيد بن علي لا يقول لا بالوصف ولا بالنصّ].

3) الشهرستاني: الملل والنحل: 250/1. [نسخة مستقلة بدون كتاب الفصل لابن حزم].

ويُسلم من جديد، وذلك شرط في نصرتهم له على أعدائه؛ ورغم كلّ ذلك لم يحكم عليهم بالكفر مثلما حكموا عليه، بل اعتبرهم أخطأوا في إصابة الحقّ وأوصى بألاّ يقاتلوا الخوارج بعده لأنهم -حسب رأيه- طلبوا الحقّ فأخطأوه، وليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه، ولعلّه يقصد بمن طلب الباطل فأدركه معاوية بن أبي سفيان. وفي رواية أوصى النبيّ ﷺ بقتال الخوارج إن لم يكتفوا بإعلان آرائهم المتطرّفة فحسب وحاربوا المسلمين بالسيف.

ورجل كعليّ معروف بتعصّبه للحقّ، لا يعقل أن يفرّط فيه إذا كان موصى به إليه أو اتّفق المسلمون على أحقيّته دون سائر الصحابة، بل العكس هو الصحيح إذ اتّفق أغلب الصحابة على أحقيّة أبي بكر بالخلافة، واعترف هو بأن الخلفاء الرّاشدين ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

ثمّ ماذا بقي بعد ذلك؟ بقي أنّ هذه الوصيّة لعليّ بالنصّ أو بالوصف لا وجود لها وأنه ليس أفضل الصحابة على الإطلاق، وأنهم لم يتّفقوا على أولويته جميعا بالخلافة دون غيره من الصحابة، وكلّ ما كان من ذلك القبيل فهو من وضع الشيعة الإمامية وفرقة الزيدية الجارودية وبعض فرق الشيعة المغالية.

- والنقطة الأخيرة التي يمكن استنتاجها من تلك الروايات السابقة هي: شهادة جعفر الصادق لزيد عندما سأله الشيعة الروافض عنه قائلين: «إنّ زيدا بن علي فينا يبايع أفترى لنا أن نبايعه؟ فقال لهم: بايعوه فهو والله أفضلنا وسيّدنا وخيرنا! فجاؤوا فكتموا ما أمرهم به»[1]، ومنها يظهر اعتراف جعفر الصادق عليه السّلام بقيمة زيد بن علي فهو:

- أفضل آل البيت -حسب رأيه-.

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 5/499.

- وسيّدهم على الإطلاق.

- وخيرهم.

فهل هذه الشهادة صادقة أم هي مجاملة من جعفر الصادق نحو ابن عمّه؟ خاصة وزيد قد دفعه الغضب عندما اجتمع بواصل بن عطاء وبحضور بعض آل البيت ومنهم جعفر الصادق فقال للأخير ما معناه: ما دفعك إلى مخالفتنا إلاّ الحسد[1] لنا، فلعلّه أراد أن يظهر لابن عمّه أنه لا يحسده وأنه يتمنّى له النجاح في ثورته لأنها ثورة كلّ المسلمين.

تلك فرضيّة لا نقبل منها إصدار هذا الرأي عن طريق المجاملة لأنّ الوقت الحرج – الذي تمرّ به ثورة زيد أمل المسلمين عامّة وآل البيت خاصة– ليس وقت مجاملة، وإنّ اتّهام جعفر قد وقع في وقت سلم واجتماع علميّ من أجل تطارح الآراء في حريّة، وما كان من حقّ زيد أن يتّهم ابن عمّه بذلك لأنّ ردّه يعتبر ردّ العاجز الذي تعوزه الحجّة، وكان واصل بن عطاء ردّ على جعفر ردّا علميّا عقليّا خاليا من العاطفة، ولم يبق إلاّ أن نقبل الجزء الثاني من الفرضيّة، وهو أنّ جعفر الصادق المعروف عند الشيعة وكلّ المسلمين بالفضل ولا خير والإمامة يقدّم زيدا على نفسه رغم أنهما تربان لما عرف به زيد من فضل وتقوى وخيْر، وهي صفات أهلته للثورة على بني أميّة رغم معارض بعض آل البيت لزيد في خروجه خوفا عليه من غدر الكوفيين وبطش الأمويين، ومع ذلك فقد واصل زيد خطواته نحو الثورة ودخلها بمائتين وتيف من خيرة الفقهاء والقرّاء بعد أن تخلّى عنه أنصاره الكوفيون كما توقّع ناصحون وشابة خروجه على بني أميّة خروج جدّه محمد ﷺ يوم بدر– وللرسول المثل الأعلى –[2].

وقفها

كما يظهر من كتمان الشيعة أمر جعفر الصادق لهم بمبايعته عزمهم على نكث العهد

---

1) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: 2/155-165-166، ط3، دار المعارف، مصر، 1385هـ/1965م، ج2، نشأة التشيّع وتطوره.

2) أبو زهرة: الإمام زيد، ص60.

ومحاولتهم أن يعثروا على خيوط عنكبوتيّة يبرّرون بها سبب تراجعهم، فلمّا وجدوا العكس كتموا الأمر وساعدهم على بلوغ مآربهم حيلة والي العراق يوسف بن عمر الثقفي وهي حصر الكوفيين في المسجد الجامع وكلّ من وجد خارجه قُتل، وهي تعلّة كافية -حسب زعمهم- لنكث البيعة، وإلاّ فكيف يعقل أن يخافوا الموت إذا وُجدوا خارج المسجد وهم مقدمون عليه منذ مدّة ولم يبق لهم إلاّ يوم واحد، اتّفقوا مع زيد على الخروج يوم الأربعاء وكان لما ذُكر من استعداد الوالي السابق لهم أنهم قدّموا ذلك إلى يوم الثلاثاء ليلا، ولا نتصوّر أنّ مقدما على ثورة لم يبق لها إلاّ يوم واحد أو أيّام لا يكون مسلّحا ومستعدّا لما عسى أن يحدث -إلاّ أن يكون استعداده للمعركة هو من قبيل لعب الصبيان أو من قبيل استعداد المجانين- لأنه قد يحدث تقديم أجل الثورة -وهو موضوع في حساباتها المخطّطة مسبقا مثلما حدث في ثورة زيد تقديم للأجل بدون استعداد له! اللهم إلاّ إذا افترضنا أنّ التخطيط قد حصل في هذه لاثورة إلاّ أنّ الخيانة حالت دون التطبيق!.

كما يجب أن يوضع في حساب المقدم على الثورة أنه قد يوشى به فيفاجأ في بيته او خارجه والمنطق يقتضي ألاّ يفارقه سلاحه واستعداده الأدبيّ وارتفاع معنوياته في اليقظة وفي المنام حتى لا يفلت زمام الانتصار منه ومن أيديهم. ولم يبق بعد ذلك إلاّ أنّ هؤلاء الشيعة الروافض الكوفيين مجبولون على الخيانة والغدر، ونكث العهد إذا لم يوافق قائد ثورتهم على رغباتهم وميولهم وهرطقتهم واعتقاداتهم المنحرفة التي تهدف قبل كلّ شيء إلى الانتقام من العرب المسلمين الذين هزموهم سياسيّا ولم يهزموهم حضاريّا خاصة وزيد يعتبر في ثورته سنيّا أكثر منه شيعيّا أوقعه سوء حظّه على أنصار كهؤلاء فكان محكوما على ثورته بالفشل الذّريع مسبقا، ولو كان أغلب أنصاره من السنّيين لتغيّر وجه الحكم الإسلامي من عهده! ومن يدري!...؟ أولم هم أيضا مقنّعون وطائفون

محتوى مذهب زيد بن علي

****

إثر النقاش الذي دار بين زيد بن علي، وبين أنصاره الكوفيين حول الشيخين ظهر أنّ زيدا يتولاهما، والشيعة الرافضة يتبرأون منهما، ولاحظنا أيضا أنّ زيدا يعلّل سبب تقدمهما على عليّ بن أبي طالب بالخلافة مع أنه أولى منهما بأمرين:

<u>أوّلهما:</u> استئثارهما ومن جاء بعدهما بسلطان رسول الله ﷺ ودفْعُهُمْ آل البيت عنه وهم أحقّ به من سواهم، وإذا جاز أن يكون هذا الحكم صحيحا فيمن جاء بعد الخلفاء الراشدين، عدا عمر بن عبد العزيز الذي يعتبر الخليفة الراشدي الخامس باعتراف أولي الأمر وأهل الحلّ والعقد، والعامّة من المسلمين، فكيف يصحّ أن يصدره زيد على الشيخين صراحة وعلى عثمان والبقيّة ضمنيّا وهم –أي الخلفاء الراشدون– تولوا فعدلوا –حسب تصريحه– وقد رأينا كيف أنّ زيدا لجأ إلى ذلك مداراة لأصحابه حتى لا يتخلوا عنه. وتأييدا لما ذُكر أسوق قولة سنيّ هو الحافظ بن كثير عن الزيديّة: «وفي مذهبهم: حقّ وهو تعديل الشيخين، وباطل وهو اعتقادهم بتقديم علي عليهما وليس عليّ مقدّما عليهما ولا على عثمان على أصح قولي أهل السنّة الثابتة والآثار الصحيحة الثابتة عن الصحابة»[1].

<u>ثانيهما:</u> أنّ سيف الإمام عليّ لا يزال ملطّخا بدماء المشركين من قريش الذين أسلم أبناؤهم والصغيرة من طلب الثأر لا تزال في قلوبهم.

وتولّي زيد للشيخين بسبب السبق في الإسلام والصحبة واللّين، إضافة إلى حداثة عليّ بالنسبة لهما في السن، وبلائه ضدّ المشركين بلاء عظيما، يجعلنا ندرك مذهب زيد بن علي وهو <u>إمامة المفضول مع وجود الأفضل</u>، وتوضيح ذلك أنه مادامت ظروف علي بن أبي طالب التي ذكرنا وهو أفضل الصحابة –حسب رأي زيد والزيدية والشيعة المعتدلة– على

---

1) الحافظ بن كثير: البداية والنهاية: 330/9.

الإطلاق فمصلحة المسلمين تقتضي تعيين غيره ولو كان أقلّ فضلا منه، أو بعبارة أخرى فإمامة المفضول جائزة مع وجود الفاضل والأفضل، وذلك إذا كانت مصلحة الرعيّة في تولّي المفضول دون الفاضل والأفضل، ألم تروا أنّ عليّا بن أبي طالب أفضل من أبي بكر وعمر وبقيّة الصحابة، ومع ذلك فقد تقدّما عليه لمصلحة راعوها وقاعدة دينية ارتأوها.

ونلاحظ أنّ زيدا بن علي لم يصرّح بالتقديم المصلحي على عليّ إلاّ للشيخين، أمّا عثمان فلم يتعرّض إليه ولم يذكر اسمه البتة وإنّما جمعه ضمنيّا مع بقيّة الخلفاء الذين استأثروا بسلطان رسول الله دون آل البيت وهم أحقّ به منهم.

وإذا كان زيد يرى أنّ الشيخين ومن جاء بعدهما من الخلفاء الراشدين استأثروا بسلطان رسول الله ﷺ دون عليّ وهو أولى به منهم فهل كان عليّ ذاته يرى هذا الرأي؟

وللجواب على ذلك نورد ما ذكره الحافظ بن كثير في صدقات الرسول ﷺ والمصالحة التي وقعت بين أبي بكر وعلي بعد وفاة فاطمة –رضي الله عنهم أجمعين– فنجد أمرين:

<u>أولهما:</u> أنّ عليّا لا يرى نفسه مقدّما عليهما بنصّ أو بوصف من رسول الله ﷺ ولا باتّفاق أغلب المسلمين عليه، وذلك لأنه اعتبر تولية أبي بكر الخلافة خيرا ساقه الله إليه، وفي الحالة التي نفترض فيها وصيّة الرسول له، يصبح تقدّم أبي بكر وغيره مجانبا للخير وإهمالا لركن من أركان الإسلام وهو العمل بالسنّة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنّ عليّا يعترف كما سيأتي بيانه عند إيراد قولة الحافظ بن كثير أنهم كانوا لقرابتهم من رسول الله يظنّون أنّ لهم في خلافته نصيبا، متكلّما (أي زيد) بصيغة الجمع نيابة عن آل البيت وهو مقدّم عليهم بحكم مصاهرته للرسول، وذكره لصيغة 'وكنّا نرى' يفيد أنه مجرّد رأي وليس نصّا أو وصفا من رسول الله أو اتّفاقا من أغلب الصحابة على تولّيه الخلافة.

وهذا هو الرأي الذي يخالف فيه علي وزيد بعض فرق الزيدية كالجارودية الذي يرون أنّ الرسول عيّن عليّا بالوصف لا بالنصّ.

ثانيهما: أنّ عليًا يوافق حفيده زيدا –رضي الله عنهما– في أنّ من تولى الخلافة بعد رسول الله ﷺ يعدّ مستأثرا –حسب عبارة زيد– ومستبدًا –حسب عبارة علي– بسلطان رسول الله دون آل بيته وهم أحقّ به.

وهذه هي القولة كما أوردها صاحب "البداية والنهاية" والتي توجّه فيها علي بالحديث إلى أبي بكر: «إنّا قد عرفنا فضلك وما أعطاك الله ولم ننفس عليك خيرا ساقه الله إليك ولكنكم استبددتم بالأمر، وكنّا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ لنا في هذا الأمر نصيبا»[1]، و"رأى" كما نعلم فعلٌ من أفعال الظنّ، وتبعا لذلك فعليّ يوافق حفيده زيدا في تولّي الشيخين وعليّ ذاته تولّاهما وصلّى خلفهما وشاوراه في المعضلات الفقهيّة والسياسيّة حتى قال فيه عمر بن الخطاب ما معناه: (أقضية ولا أبو الحسنلها؟) وروى البخاري عن عبد الله بن العباس (رضي الله عنهما): «أقرؤها أبيّ، وأقضانا عليّ».[2]

وإذا كان ذلك صحيحا وهو المرجّح فلم يبق للشيعة تعلّة في تقديم علي دون سائر الصحابة –رضي الله عنهم أجمعين–.

بقي أمر آخر لا بدّ أن نشير إليه وهو: لماذا لم يذكر الكوفيون في سؤالهم لزيد عن الشيخين رأيه أيضا في عثمان –رضي الله عنهم–؟ ولماذا لم يشر إليه زيد في جوابه ؟ فما هو سبب هذا التناسي؟

الذي يبدو لي: أنّ زيدا بن علي جانب الحديث عن عثمان بن عفّان، وذلك لأنّ رأيه فيه يقتضي منه الصراحة وهي أنّ عثمان كان ليّنا مع بني أميّة إلى درجة استيلائهم على جلّ مناصب الخلافة الإسلاميّة، وأغدق عليهم الأعطيات بدعوى أنّهم الأقربون، والأقربون أولى بالمعروف وقد ورد ذلك في القرآن وفي السنّة، وهذا ما ردّ به عثمان عندما لِيمَ على تصرّفه

---

1) ابن كثير: البداية والنهاية: 5/286.

2) رواه البخاري في صحيحه (رقم الحديث 1716)، من كتاب: الإمام زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الزّبيدي، مختصر صحيح البخاري، طبعة دار ابن حزم، بيروت –لبنان، 1422هـ/2001م، ص 522،

هذا وأضاف: «لو أنّ بيدي مفاتيح الجنّة (لفتحتها على مصراعيها ليدخلوا بنو أميّة على بكرة أبيهم) لأعطيتها بني أميّة حتّى يدخلوا عن آخرهم»[1].

ثمّ إنّ عثمان لم يكن ليّنا مع بني أميّة فحسب، وإنّما كان ليّنا مع عامّة المسلمين، إلاّ أنّ مساعدته لقرابته من بني أميّة فاقت كلّ مساعدة لغيرهم حتّى سلّطهم على رقاب النّاس، والذي زاد الطين بلّة نفيه للصحابيّ أبي ذرّ الغفاري إلى الربذة بسبب ما ناله من انتقاد لهذا التصرّف، ولم يوافق عليّ على هذا النفي، فرافق أبا ذرّ مشيّعا إلى خارج المدينة، ممّا أغضب عليه عثمان، فلمّا بلغه ذلك الغضب قال عليّ: «لو غضب الخيلُ على اللّجم»[2]، كأنه يقول له: إغضبْ ولن يفيدك ذلك شيئا ما دمتَ مدلّلا لبني أميّة فوق الطاقة. ثمّ إنّ عليّا كان من جملة اللائمين على عثمان في تصرّفه مع أقاربه ومبالغته في إكرامهم.

وإذا أضفنا إلى كلّ ذلك أنّ عثمان بن عفّان –ﷺ– المعروف باللّين والطيبة تولّى الخلافة بعد عمر المعروف بالشدّة في الحقّ، تبيّنت لنا الأسباب التي جعلت الألسن تمتدّ إلى عثمان وتنتقد سلوكه، ولا يعقل أن تنتقل الرعيّة من حالة إلى عكسها دون تمهيد لأنّ ذلك يدخل ضمن السياسة الحكيمة في التقديم والاختيار، وإلاّ لكان الانتقال من العكس إلى العكس قصد منه الضّرر للأفراد أو للأمّة، والنتيجة أنّ صراحة زيد في عثمان لو أشار إليه في حديثه ترضي أنصاره وتغضب أهل السنّة الذين يجلّونه باعتباره أحد الصحابة العشرة الذين بشّرهم الرسول ﷺ بالجنّة.

وقد تحدّث عن عثمان بعد زيد بن علي فرقة زيدية تدعى "الصالحيّة والبتريّة"[3]، وهم يتولّونه قبل خلافته، لأنّه كان –حسب رأيهم– وقتها صالحا ومبشّرا بالجنّة، وبعد خلافته تغيّر وترك أمر المسلمين لأقربائه من بني أميّة ولذلك لم يحكموا عليه بالكفر أو الإيمان

---

1) ناهي حسين: ثورة زيد، ص13.

2) المرجع نفسه، ص14. يعني هل يفيد الخيل غضبها على اللّجام في انطلاقها؟

3) الشهرستاني: الملل والنحل: 216/1 [على هامش كتاب الفصل لابن حزم].

وإنّما تركوا أمره إلى العليّ القدير وهو أحكم الحاكمين، حتّى أنّ بعض المغالين من الزيديّة مالوا إلى تكفيره –أعوذ بالله– وهم "فرقة السّليمانيّة" (1). لعنهم الله

وإذا عدنا إلى مذهب زيد بن علي نجد أنّه مذهبه قائم على المصلحة، فآل البيت أولى بالخلافة لكن إذا اقتضت المصلحة تعيين غيرهم فهو جائز شريطة أن يكون هذا المقدّم عاملا بكتاب الله وسنّة رسوله، عادلا بين الرعيّة، أمّا إذا حاد عن ذلك وأظهر الفسق والفجور مثل بعض خلفاء بني أميّة وجب عزله ولو بالقوّة، كما وجب على أفضل أئمة آل البيت أو فاضلهم أو مفضولهم أو حتّى من غيرهم الخروج عليه أمّا إذا رضي بالتقيّة وفضّل مجاملة الحاكم الظّالم خوفا من بطشه –بعد أن تيسّر له تأييد الأنصار له واستعدادهم للثورة معه– فهو في نظر زيد بن علي لا يُعتبر إماما لأنه يرفض التقيّة مع الجائر من السلاطين، وإن كان يقول بها مع أنصاره ومع أهل السنّة، فهي في الواقع نوع من المداراة وليست تقيّة إلاّ من باب التجوّز لما اصطلح عليه مؤرّخو الفرق وأهلها، وقد التجأ إليها زيد لجلب مزيد من الأنصار، ولاعتداله في آرائه الشيعيّة إلى درجة القرب من أهل السنّة والجماعة، ولذلك نال رضا أغلب الأئمّة السنّيين كأبي حنيفة النعمان، لأنه يرى كما يرون أنّ الخلافة ليست وقفا على آل البيت دون سواهم، وقد يتولاّها أحدهم أو غيرهم مثلما وقع لعليّ بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين، وقد تولاّها قبله ثلاثة من الصحابة: أبو بكر وعمر وعثمان –رضي الله عنهم جميعا–، وقد يتولاّها بعض التابعين أو تابع التابعين مثل عمر بن عبد العزيز –رحمه الله– ويراعى في هذا التولي مصلحة الإسلام والمسلمين.

وإذا اقتضت المصلحة خروج زيد بن علي ثائرا على بني أميّة وتولّيه الخلافة في حالة انتصاره فليس ذلك لأنه من آل البيت فحسب، وإنّما لأنّ المصلحة اقتضت تعيينه، وهو أولى بهذا الأمر من غيره، ولو وُجد فاضل أو مفضول بالنسبة إليه وكانت المصلحة في تقديم الأخير، لتنازل له زيد عن طواعية، أو ليس هو القائل: «يا بابكي أما ترى هذه الثريّا! أترى

---

1) المصدر نفسه: 214/1.

أحدا ينالها؟ قلت: لا: قال: والله لوددت أنّ يدي ملصقة بها فاقع إلى الأرض أو حيث أقع، فانقطع قطعة قطعة، وأنّ الله أصلح بين أمّة محمد ﷺ»[1].

وبذلك يظهر أنّ اشتراط زيد في الإمام النّسب الفاطمي شرط إضافيّ، فإذا كان الفاطميّ أولى من غيره من آل البيت وعامّة المسلمين يتقدّم عليهم وإذا كان غيره من هؤلاء جميعا أولى، يتقدّم هذا الأخير.

ولكن ما هو الشرط الذي توفّر في زيد بن علي وجعله أهلا لتولّي أمور المسلمين شيعة أم أهل سنّة؟

الشرط هو: خروجه شاهرا سيفه على بني أميّة وعدم عمله بالتقيّة مع السلطان الجائر، مع شروط أخرى يرى زيد وجوب توفّرها في الإمام وتُستخرج من أقواله وسيرته.

وشروط زيد في الإمامية هي التالية:

1. الخروج في وجه السلطان الجائر: وقد ردّ زيد على أصحابه لمّا سألوه رأيه في الشيخين بأنه لا يقول فيهما إلاّ خيرا، وما سمع أحدا من آبائه يقول فيهما غير ذلك، وبذلك تولاّهما، فسألوه منتقدين: «فلمَ يظلمك هؤلاء، إذا كان أولئك لم يظلموك، فلم تدعو إلى قتال قوم ليسوا لك بظالمين؟»، فقال: «إنّ هؤلاء ليسوا كأولئك، إنّ هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم، وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه وإلى السّنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ فإن أنتم أجبتمونا سعدتم وإن أنتم أبيتم فلست عليكم بوكيل»[2]، فهي دعوة ملحّة للخروج على الظالم لزيد ولهم كشيعة وكمسلمين عامّة وحتّى لأنفسهم لأنهم يستمرّون في غيّهم ولا يرعوون فيصلحون حالهم إن عجزوا عن إصلاح حال غيرهم، وهم في الواقع قادرون على الإصلاح الجماعي كما جاء في قولة زيد: «قادرون على إصلاح حالهم

---

1) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص129.

2) الطبري: تاريخ الأمم وتعلوك: 5/498.

وحال غيرهم حتى يكونوا خلفاء الرسول ﷺ بحق...».

2. والخروج يقتضي من الإمام أن يكون شجاعا عارفا بفنون القتال وحيله –لأنّ الحرب خدعة– حتى ينصر الحقّ الذي الذي خرج من أجله ودعا إليه وجاهد في سبيله.

3. أن يكون عدلا وعادلا مع نفسه وغيره لأنه ما خرج إلاّ لقتال من لم يعدلوا بين الرعيّة.

4. العمل بكتاب الله عزّ وجلّ.

5. العمل بسنّة نبيّه محمد ﷺ.

6. العودة إلى السنن المأثورة عن السّلف الصالح فتحيا وإماتة البدع التي انتشرت بين المسلمين.

7. كما يجب على كلّ إمام اعتزم الخروج على السلطان الجائر أن يتّصف برغبة ملحّة في إصلاح أمر أمّة محمد ولو ضحّى بنفسه ودمه في سبيل ذلك ليجمع كلمة المسلمين ويوحّدهم ضدّ عدوّهم، وقد لمسنا ذلك في زيد بما قاله –للبايكي– ورواه الأصفهاني في 'مقاتل الطالبيين' [1].

8. أن يكون مطبّقا في خروجه مبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، وليس مدفوعا إلى ذلك بحبّه للسلطة وشهوة الحكم، وتشريفه بذلك لا تكليفه بتولّي أمر المسلمين، لأنّهم في أشدّ الحاجة إليه وإلى أمثاله، ولو لم ير زيد ظلم بني أميّة وتهتّكهم وتركهم العمل بكتاب الله وسنّة نبيّه وإفساحهم المجال للبدع بالظهور والسّنن الحسنة بالانطفاء، لو لم ير كلّ ذلك ما خرج عليهم.

9. أن يكون الإمام عالما بكتاب الله وسنّة نبيّه وبالحلال والحرام وبالتأويل وبالناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والخاص والعام وما تحتاج إليه الأمّة في دينها ممّا لا بدّ

---

1) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص129.

منه[1].

10. أن يكون زاهدا في حطام الدنيا أمّا إذا كان محبّا لها حبّ الحريص عليها المحبّ للجمع والشره للمال فإنّ سعيه للحكم هو سعي الحلية والشهرة للسلطة لا سعي الإصلاح ونشر العدل.

11. ممّا سبق نستنتج أيضا أنّ الإمام زيد بن علي يشترط في الإمام صفة هامّة وهي طرح التقيّة جانبا مع السلطان الجائر وفاء لمبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، وقد استعمل زيد في أوّل حياته وقبل ثورته التقيّة مع الخليفة هشام بن عبد الملك وخاطبه بـ"أمير المؤمنين" خشية أن يتحقّق من التهمة التي وجّهها لزيد وهي الطمع في الخلافة والسّعي إليها، ولكنه لمّا أهانه بأمّه السنديّة لأجل هذه التهمة وأطرده من مجلسه، أجابه بتهديد يُفهم منه أنه سيطرح عنه ثوب التقيّة جانبا وسيعلنها ثورة ضدّ الحكم الأموي، قائلا لمّا أمره بالخروج من مجلسه: «أُخرج ثمّ لا تراني إلاّ حيث تكره» فقال له سالم: «يا أبا الحسن لا يظهرنّ هذا منك»[2]، ولعلّ الخليفة هشام جهل أو تجاهل هذا التهديد وكلّف العيون بمراقبة زيد، ولمّا بلغه أنه عزم على الثورة قبل علم واليه على العراق يوسف بن عمر الثقفي فبعث للأخير يقرّعه على إهماله أمر الولاية، وزيد بن علي غارز ذنبه بالكوفة ويصفه بالغافل وما ينبغي بصاحب أمر جسيم كولاية العراق أن يكون غافلا: «إنّك لغافل وزيد غارز ذنبه بالكوفة، يبايع له فالْجُجْ في طلبه فأعْطِه الأمان فإن لم يقبل فقاتِلْه»[3].

وغيرهم من عموم الناس

لم يكن مبدأ التقية عند الشيعة ضد السلطان الجائر فحسب وإنما كان ضدّ كلّ خائف من ذلك السلطان القاهر، سواء أكان شيعيّا أم سنيّا أو حتى أمويّا طامعا في الخلافة ولم

---

1) ناجي حسن: ثورة زيد، نقلا عن المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص39.

2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 261/8-263.

3) المصدر نفسه: 504/5-505.

ينلها، أو كارها للظلم كما رأينا في موقف [illegible] من نصح زيد بألاّ يجاهر في عداوة بني أمية خوفا عليه، لأنه يمثل أملهم في إزاحة كابوس بني أمية من على صدور المسلمين، أو كما رأينا بالنسبة لمعاوية بن يزيد ﷺ الذي رفض الخلافة وأغلق باب داره على نفسه حتى مات[1]، أو كما فعل أمويّ آخر يدعى عبد الملك بن بشر بن مروان، أخفى يحيى بن زيد في بيته بعد مقتل أبيه وفراره من بطش يوسف بن عمر الثقفي وعامله على خراسان، وتظاهر الأمويّ لمّا سأله الوالي المذكور عن ذلك بأنه كيف يعقل أن يؤوي أحد أعدائه وأعداء أقربائه في بيته وهو يزاحمهم في حقّهم على الخلافة! وقد أورد هذا صاحب 'تاريخ الأمم والملوك' فقال: «... فبلغ الخبر يوسف فأرسل إلى عبد الملك فقال له: قد بلغني مكان هذا الغلام عندك وأعطني عهد الله لئن لم تأتني به لأكتبنّ في ذلك إلى أمير المؤمنين، فقال له عبد الملك: أتاك الباطل والزور أنا أواري من ينازعني ويدّعي فيه أكثر من حقّي، ما كنت أخشاك على قبول مثل هذا عليّ، ولا الاستماع من صاحبه، فقال: صدق والله ابن بشر ما كان ليواري مثل هذا ولا يستر عليه، فكفّ عن طلبه»[2].

وقرابة عبد الملك بن بشر بن مروان من بني أمية يستدلّ عليها بثلاثة أمور من هذا النصّ الذي أورده الطبري وهي:

أولها: الاسم نفسه يدلّ على أنه من بني مروان وهم من بني أميّة. وهو بشر بن عبد الملك بن مروان يعني ابن [illegible] حفيد مروان بن الحكم الخليفة الأموي بعد معاوية بن يزيد المتخلّي عن الخلافة.

ثانيها: أنّ يوسف بن عمر الثقفي لمّا بلغه وجود يحيى لدى ابن بشر هدّده لئن لم يأته به ليكتبنّ في شأنه إلى أمير المؤمنين، ولو كان من عامّة الناس لاستعجل عقابه بكلّ الوسائل حتى يسلّم اللاجئ، وهذه هي بعض الأخطاء التي ارتكبها النظام الأموي بمحاباته

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 7/34.

2) المصدر نفسه: 5/505-506.

الصارخة بين الرعيّة لأسباب متعدّدة، ومهما كانت وجيهة فإنها لا تخوّل له ذلك.

ثالثها: تصريح ابن بشر أنه: كيف يواري في بيته من ينازعه حقّه ويعني به قطعا الخلافة، وهي تقيّة منه.

ممّا سبق ندرك أنّ زيدا بن علي ما خرج على بني أميّة إلاّ بعد طرح ثوب التقيّة جانبا وأنه ارتداه لمّا لم يحن الوقت للثورة حتى أنه اصطدم بأخيه محمد الباقر حول مفهوم الإمامة وشروطها، وهل أنّ الإمام من استعمل ثوب التقيّة مع خصومه الظالمين؟ أم أنّ الإمام الحقيقي من طرح أسلوب التقيّة جانبا عندما يجب الخروج على السلطان الجائر!.

من الطبيعي أنه إذا كان النظام عادلا فلا تقيّة ولا خروج عليه، لكن من جاء من الحكّام بعد الخلفاء الراشدين عدا عمر بن عبد العزيز ومعاوية بن يزيد -رضي الله عنهم- الذي لم يمارس الحكم لأنه توفي بعد توليه الخلافة بوقت قصير لمرضه أو لعزوفه عنها خوفا من الله لأنه رجل صالح، عدا هؤلاء لم يكن الحكّام في الغالب عادلين وإنّما كانوا ظالمين، طلاّب جاه وسلطة يجبرهم موقعهم من أممهم على خدمة مصالحها تظاهرا فيُلفون أحيانا، متهتكين ظالمين! وأخرى يؤمّون المسلمين في الصلاة ويضربون المثل في العدل والتقوى! من النقيض إلى النقيض! ولله في خلقه شؤون!.

وإذا كان هذا هو حال المسلمين فلم يبق للإمام محمد الباقر حجّة في التمسّك بالتقيّة واعتبار من يعمل بها إماما ولو لم يخرج على الحاكم الظالم رغم سنوح الفرصة له للثورة، اللهم إلاّ إذا لم تسنح تلك الفرصة لقوّة السلطان، ولعدم وجود الأنصار الصادقين الذين لا ينكثون البيعة لأتفه الأسباب، فتكون التقيّة وقتها أمرا واجبا لأنها داخلة في أمره تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [1]. ولعلّ هذا هو قصد الإمام الباقر، ولكن أخاه زيدا خالفه ورأى وجوب طرح التقيّة والخروج على السلطان الجائر، ورأينا كيف عرّض نفسه للخطر لمّا تخلّى

---

1) سورة البقرة الآية: 195.

عنه أنصاره الخمسة عشر ألفا أو الأربعون ألفا من الرجال المبايعين له وواجه جيشا أمويا قوامه ثلاثة آلاف من الرماة مدرّبين على قمع الثورات بما لا يزيد على مائتين من الفقهاء والقرّاء إلاّ قليلا، رغم نصيحة الأقرباء والأصدقاء له بعدم الاعتماد على الكوفيين، ولكنه ﷺ أصرّ على طرح ثوب التقيّة جانبا تطبيقا لمبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[1]، وصورة الخلاف بينهما أنّ محمد الباقر يلوم أخاه لأسباب منها:

- أنه كان صديقا لواصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة وهو من يجوّز الخطأ على علي بن أبي طالب أو على أنصاره من أهل الشام وأصحاب الجمل، وذاكره في أصول الدين وفي شروط الإمامة.
- يتكلّم واصل في القدر على غير ما يذهب إليه أهل البيت، تقرّبا من السلطة القائمة.
- يشترط زيد في ثبوت الإمامة خروج الإمام في وجه السلطان الجائر وإلاّ فإنه لا يعتبر إماما، ويردّ عليه أخوه محمد الباقر بأنه على قضية مذهب الأول فإنّ أباهما عليا زين العابدين ليس إماما لأنه لم يخرج قطّ ولا واتاه سبب للخروج لأنه يستعمل التقيّة مع حكّام بني أميّة لبطشهم ولما رآه من قتلهم لأبيه الحسين وصلبهم إيّاه وتمثيلهم به، وسمّوا عمّه الحسن، ولخشيته خذلان العراقيين إذا اعتمدهم أنصارا وتاريخهم شاهد على ذلك، لكن ليس معنى هذا أنّ زيدا بن علي ينفي الإمامة عن عمّه الحسن (عمّ أبيه علي زين العابدين)، ولا عن أبيه علي، وإنّما هو يشترط الخروج بالنسبة لنفسه ومن سيجيء بعده من الأئمة لأنّ جدّه عليّا خرج على معاوية أيضا وأنصاره من الشام وعلى أصحاب الجمل، وجدّه الحسين خرج على يزيد بن معاوية واستشهد، ولم يضرب عن الخروج إلاّ الحسن وابن أخيه الحسين: علي زين العابدين، بسبب الخوف من البطش وخيانة الأنصار، وكثيرا ما يلجم الخوف أو التسامح وترك الأمر لله

---

1) الشهرستاني: الملل والنحل: 1/250-251.

- النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: 2/148.

شخصا موتورا عن طلب الثّأر ويندفع آخر إليه بكلّ ما أوتي من قوة لإشفاء غليله.

ولعلّ ذلك كان رأي زيد بالنسبة لأبيه في عدم خروجه تسامحا وخوفا أن يقع له ما وقع لأبيه الحسين وعمّه الحسن وجدّه عليّ، بينما يحيى بن زيد فقد طبّق مبدأ الخروج واستشهد هو الآخر في عهد الخليفة الوليد بن يزيد (125هـ/743م)، ولذلك اختلف الشيعة حول إمامة الحسن، وقد ترك الخروج على معاوية ووادعه، مع أنّ أنصاره كثيرون ولم يتراجعوا حتى آخر لحظة، بينما الحسين لم يوادع يزيد رغم تفرّق أنصاره عنه[1].

ذلك هو مدار الخلاف بين زيد وأخيه الباقر والذي أورده الشهرستاني في قوله: «وجرت بينه (زيد) وبين أخه محمد الباقر، مناظرة... من حيث كان يتلمذ لواصل بن عطاء ويقتبس العلم ممن يجوّز الخطأ على جدّه في قتال الناكثين والقاسطين، ومن يتكلّم في القدر على غير ما ذهب إليه أهل البيت، ومن حيث أنه كان يشترط الخروج شرطا في كون الإمام إماما، حتى قال له يوما: على قضيّة مذهبك والدك ليس بإمام، فإنه لم يخرج قطّ ولا تعرّض للخروج»[2].

ونلاحظ في قولة الباقر اعترافه بمذهب أخيه –«على قضيّة مذهبك»– ولا يكون مذهبا إلاّ من كان عالما بأمور الدين والدنيا مطّلعا على أسرار العلوم، وقد مرّ بنا أنّ جعفر الصادق وهو ترب لزيد والمعروف على الأتراب غبطة بعضهم البعض التي تصل أحيانا إلى درجة الحسد، ومع ذلك كلّه فعندما سأله الكوفيون أنّ زيدا فيهم يبايع فهل يرى أن يبايعوه أجابهم بنعم معترفا بأنه أفضلهم وسيّدهم وخيرهم[3].

وإذا ربطنا قولة محمد الباقر: «على قضيّة مذهبك» بقولة ابنه جعفر الصادق: «أفضلنا وسيدنا وخيرنا» أدركنا أنّ زيدا بن علي استحقّ الإمامة عن جدارة تطبيقا لمذهبه

---

1) النوبختي: فرق الشيعة، ص...

2) الشهرستاني: الملل والنحل: 252/1.

3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 498/5–499.

'جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل والفاضل'. ألا ترون أنّ جعفر الصادق يتعمّد لفظة 'أفضلنا' في وصف عمّه زيد وكان باستطاعته أن يقتصر على وصفه بكونه 'سيّدهم' و'خيرهم' قصد مدحه أو أن يضيف 'وكان أتقانا'، ممّا يبدو منه أنّ استعمال الأفضليّة في مذهب زيد كان معروفا لدى آل البيت والشيعة وعموم المسلمين، وأنّ جعفر الصادق ما حرّضهم على ذلك إلاّ لأنه يعلم أنّ عمّه زيدا أهلٌ لأن يقود المسلمين إلى نصر مظفّر على بني أميّة بمذهبه الجديد، وأنه يثق في أخلاقه ثقة أبيه محمد الباقر الذي اعترف بأنّ لزيد مذهبا رغم مخالفته له وليس عيبا أن يختلف العلماء مذهبيا ولكن العيب أن يتقاتلوا من أجل هذا الاختلاف، والحالة أنّ كلاً منهم يدّعي الإخلاص لأمّته فيما يرى ويعتقد.

مقيـــاس الفضـــل

****

وإذا أردنا أن نعرف مقياس الفضل لدى الإمام زيد بن علي والزيدية من بعده كان لزاما علينا أن نستشفّه مما مرّ بنا، وممّا يمكن أن يكون مفهومه عامّا لدى المسلمين في كلّ عصر ومصر.

فهل المراد بالفضل: الأكثر ثوابا عند الله ؟ أم الأجمع لمزايا الفضل والخلال الطيّبة؟

يظهر أنّ اجتماع أكبر قدر من الخلال الطيّبة في شخص ما ينتج عنه حصوله على أكثر ثواب، ولذلك فكثرة الثواب مقرونة بكثرة الخلال الطيّبة وديمومتها، ويمكن أن يكون مقياس الفضل عندهم مشتملا على أمور منها:

1. الأسبقيّة في الإسلام حيث لا رغبة ولا رهبة إلاّ من الله وإليه، وقد مرّ بنا أنّ أبا بكر كان أسبق الرجال إلى الإسلام وعلي أسبق الصبيان[1]. وخديجة بنت خويلد –رضي الله عنها– أسبق النّساء إلى الإسلام زوجة سيّدنا محمّد ﷺ.
2. إلى جانب الزّهد في حطام الدنيا والرغبة في الآخرة، وأزهد الناس في الدنيا أرغبهم في الآخرة، أ فلم يقل زيد بن علي: « والله لا يحب الدنيا أحد إلاّ ذلّ»[2].
3. ثمّ التفقه في الدين لأنّ به يعرف الناس مصالح دينهم ودنياهم ولا أدلّ على ذلك من أنه ينسب إليه 'كتاب الجموع'[3] في الفقه الزيدي الذي رواه تلميذه أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي، كما أنّ جدّه علي بن أبي طالب –كرّم الله وجهه– كان مستشارا للخلفاء قبله في المعضلات عندما تطرأ قضيّة ولا حلّ لها حتّى صرّح عمر بن الخطاب بما

---

1) ابن حجر: فتح الباري.

2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 263/8.

3) أبو زهرة: 'الإمام زيد، ص230.

مفاده: «أقضية وليس لها أبو الحسن!».

ورجل كعليّ بلغ درجة الاجتهاد والقياس، لا نستغرب إذا عتبره حفيده زيد أفضل الصحابة على الإطلاق، يسبقه في الإسلام ولم يسجد لصنم قطّ، ولعلمه بشؤون الدّنيا والدّين معا ولأنّه من العشرة المبشّرين بالجنّة، ولكنّ المصلحة اقتضت تعيين أبي بكر[1] لسنّه ولصدقه ومصاحبته للنبيّ ﷺ في الجلّ والارتحال. ثم بعده عمر رضي الله عنهما

4. الخروج على السلطان الجائر، وقد طبّق زيد هذا المبدأ عملا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى قُتل، وقد ذكر الشهرستاني في شروط الأفضليّة والإمامة لدى الزيدية بقوله: «إنّ كلّ فاطميّ عالم، زاهد، شجاع، سخيّ، خرج بالإمامة يكون إماما واجب الطاعة»[2].

هذا وإنّ زيد بن علي إذا طرح التقيّة عن الإمام تجاه الحكام الظالمين فإنه في مقابل ذلك يرفض صفة المهدوية والعصمة والرجعة التي أسبغها الشيعة المغالون على الإمام، كما قال بها أيضا المعتدلون منهم كالإمامية الاثني عشريّة.

فأمّا العصمة فمعناها أنهم ينزّهون أئمّتهم عن الوقوع في الخطأ، وأنّ الله يحميهم مما يقع فيه غيرهم من الأخطاء، وذلك ليس غريبا لأنّ علمهم إلهيّ تلقوه أبا عن جدّ بدون مجهود مبذول، ويرفض زيد بن علي هذه العصمة للأئمّة ويعتبرهم بشرا عاديين يقعون فيما يقع فيه غيرهم من الزلّات أو يحمون أنفسهم إن كانت عزائمهم قويّة مثلما كان هو جامعا بين الأخلاق الفاضلة، وشهد بذلك صاحب "مقاتل الطالبيين"[3].

كما يعتبر زيد الأئمّة بشرا وصلوا إلى الإمامة بالأفضليّة، أو من أجل مصلحة المسلمين التي اقتضت تعيينهم أو وصلوا بالاختيار لا بالوراثة، وعلمهم بشريّ لا غيبيّ،

---

1) الشهرستاني: الملل والنحل: 250/1. وابن خلدون: المقدمة، ط: الشكتبة التجارية الكبرى، مصر، بدون تاريخ، ص197.

2) الشهرستاني: الملل والنحل: 249/1-250. (انظر: مقياس الفضل).

3) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص128-129-130-132.

إلهيّ تلقّوه كغيرهم بالمواظبة والاجتهاد، لأنّ صفة العلم الغيبي تجعلهم وسطاء بين العبد وربّه مثل الديانة المسيحية، والإسلام لا يعترف بهذه الوساطة ويعتبر أنّ العلاقة الرابطة بين العبد وخالقه علاقة مباشرة، كما أنّ هذه الوساطة الشيعيّة تعطّل اجتهاد العامّة وتجعل العلم مقصورا على الخاصة، ولا نستغرب إذا عدّوا بعض أخطائهم من صغائر وكبائر من الذّين.

وكلّ معاصري زيد يشهدون أنه تلقى علمه عن أبيه زين العابدين وعن أخيه محمد الباقر وبالمذاكرة مع واصل بن عطاء، وابن أخيه جعفر الصادق، والإمام أبي حنيفة النعمان، (رضي الله عنهم جميعا) وفي الجملة أخذ علمه عن آل البيت وعن علماء الكلام وعن أهل السنّة والجماعة، ولم يكن علمه إلهيّا كما يزعم المغالون في محبّة آل البيت." بأنّ علمهم نقرّ في الأذن، ونكتٌ في القلب" أي إلهام ووحي من الله تعالى للأئمة الشيعيين.

ويرفض زيد أيضا صيغة المهدية للإمام، وقد قالت بها أهل السنّة والشيعة المغالية والشيعة الإمامية المعتدلة وهم الاثنا عشرية وألصقوها بالإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري وادّعوا أنه لم يمت وأنه غاب في سرداب في مدينة "سامراء" تقيّة من العبّاسيين، وأنّ غيبته غيبتان: غيبة صغرى امتدّت أربعا وستين سنة بدأت سنة (265هـ/878م) وانتهت سنة (329هـ/940م) [1]، وبعدها دخل في الغيبة الكبرى، وسيرجع ليملأ الأرض عدلا وإنصافا كما ملئت ظلما وطغيانا، ولكن زيدا بالرغم من رفضه صفة المهدي للإمام فإنها قد أسبغت عليه غصبا عنه مثلما وقع لأبي هاشم محمد بن علي بن أبي طالب الملقّب بابن الحنفيّة وفرقة الكيسانية[2]، وقد قال شاعر أمويّ – لعنه الله– يهجو زيدا بن علي بعد قتله:

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة *** ولم نر مهديا على الجذع يصلب[3]

ومن الطبيعي أن يرفض زيد صفة المهدية للإمام وأن يرفض رجعته وهو الذي يقول

---

1) الدكتور علي الشابي: الشيعة في إيران، الجامعة التونسية، كلية الحقوق والعلوم الإنسانية والاقتصادية، مركز الدراسات والبحوث والنشر، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، أفريل 1980، ص111.

2) الدكتور علي الشابي: مباحث، ص98-99-103.

3) المرجع نفسه، ص120. وقبله المسعودي: مروج الذهب: 219/1.

بإمامة المفضول مع وجود الأفضل، وأنّها بالاختيار وليست بالنصّ، بينما يردّ محمد الحسين آل كاشف الغطاء –وهو شيعي إمامي اثني عشري– على من لا يقول بنظريّة المهدية والرجعة بأنه: كيف يعقل أن نقبل نحن المسلمين أنّ نوحا عاش ألف سنة إلاّ خمسين عاما بصريح القرآن وأنّ أربعة من الأنبياء اثنان في الأرض وهما إلياس والخضر، واثنان في السماء وهما إدريس وعيسى، لا يزالون على قيد الحياة مع أنّ ولادة الخضر كانت في زمن إبراهيم أبي الأنبياء؟، وأنّ جملة من الأحكام الربّانية لا تزال مجهولة الحكمة في تشريعها كتقبيل الحجر الأسود مع أنه لا يضرّ ولا ينفع، وفرض صلاة المغرب ثلاثا والظهر والعصر أربعا... كيف نقبل كلّ هذه الغوامض! ولا نقبل غيبة المهدي المنتظر، والحال أنّ الله سبحانه وتعالى قد استأثر بعلم جملة أشياء لم يُطلع عليها ملكا مقرّبا ولا نبيّا مرسلا كعلم الساعة: (إنّ الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث) [1].

وإذا نظرنا إلى هذه الحجج تبدو لنا لأول وهلة برّاقة ومقنعة، ولكن إذا أمعنا النظر نجد فيها سفسطة ومغالطة لأنّ الأمثلة التي ذكرها المؤلّف محمد الحسين آل كاشف الغطاء هي أمثلة صحيحة بصريح القرآن الكريم والسنّة الشريفة، أمّا المهدي المنتظر فهو من اختراع الشيعة وأهل السنّة، وليس فيه نصّ من الكتاب ولا من السنّة والنصوص الشيعيّة المدعاة والمنسوبة إلى النبيّ ﷺ هي من وضعهم، حسب مصطلحات علوم الحديث لأنّها تخدم مصلحة فرقة من الفرق ومذهب من المذاهب وكلّ فرقة تحاول أن تؤيّد مذهبها بالأحاديث الموضوعة وبغير ذلك من الأساليب والأسباب، سواء كانوا سنّة أم شيعة. وبعض أهل السنّة يقولون بالمهدي السفياني اختره بنو أمية ليبرّروا افتكاك معاوية ابن أبي سفيان الخلافة من الخليفة الرّاشدي علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، ولعن الله من لعنه على المنابر بـ(أبي تراب).

---

1) سورة لقمان الآية: 34.

– محمد الحسين آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها: ص109–113.

صحيح أننا نجهل الحكمة من عدد الركعات في الصلوات المفروضة، والحكمة من تقبيل الحجر الأسود، مع أنه لا يضرّ ولا ينفع، والحكمة في إخفاء اسم الله الأعظم، والحكمة في إخفاء ليلة القدر، وساعة استجابة الدعاء...! ولكن رغم ذلك فكلّ هذه الأمور مقرّرة بالقرآن والسنّة، أمّا قضيّة المهدي المنتظر وقضيّة رجعته وكلّ ما يتّصل به من علم غيبي هو وبقيّة الأئمّة الشيعيّة أو السنيّة، فهي غير مقرّرة لا بكتاب ولا بالسنّة، ويصبح ما قام به محمد الحسين آل كاشف الغطاء وبعض أهل السنّة، هو قياس مع وجود الفارق وكلّ ما كان كذلك فهو ملغى.

أضف إلى ذلك فإنّ فكرة المهدي المنتظر مستوحاة من التراث الإنساني القديم كالفارسي وديانتهم القديمة وحبّهم للإعجاز والخيال المغرق!... والتقفها بعض أهل السنّة. ويقول العالم المسلم السنّي محبّ الدّين الخطيب في كتابه (منهاج الاعتدال) ناقدا نظريّة المهدي المنتظر عند أهل السنّة والشيعة: ' إنّ المهدي المنتظر فكرة تحتاج إلى إعمال رأي علمي ودينيّ...'[1]

---

1) محبّ الدين الخطيب، المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، وهو مختصر كتاب أهل السنّة تأليف شيخ الإسلام تقيّ الدّين أحمد بن تيميّة رحمه الله تعالى، 661-728هـ/1262-1327م، حقّقه وعلّق حواشيه محبّ الدّين الخطيب، طبعة السعوديّة، 1413هـ/1992م، اختصره الحافظ الذهبي (673-748هـ/1274-1347م).

مقارنــة بين الزيديّــة والفرق الإسلاميّــة

****

1. المعتزلة

ولكي تتجلّى إمامة المفضول مع وجود الأفضل التي يقول بها زيد بن علي والفرقة الزيدية يحسن بنا أن نسوق آراء أشهر المذاهب الإسلاميّة كالمعتزلة والشيعة-الروافض والشيعة الإماميّة وأهل السنّة والخوارج.

والملاحظ أنّ هذه الفرق قد وقع التعرض لبعض آرائها عند حديثنا عن زيد والزيديّة كالشيعة-الروافض، والإماميّة وأهل السنّة، وسبق أيضا أن تعرّضنا إلى علاقة زيد بالمعتزلة عندما تحدّثنا عن الصداقة التي تربط واصل بن عطاء بزيد بن علي وكيف أنه كان يجوّز الخطأ على عليّ، أو على أهل الشام، وأصحاب الجمل، ممّا يظهر منه أنّ رأيهم ينحصر في وجوب تولّي الخلافة لمن يضمن استقرار الحكم العادل للمسلمين، والحفاظ على بيضة الإسلام، وكلّ خلاف حولها يؤدّي إلى سفك الدماء يوجب أن يكون المتسبّب فاسقا، وبالتالي مرتكبا لكبيرة، وكلّ مرتكب لكبيرة فهو في منزلة بين المنزلتين لا هو مسلم ولا هو كافر [1].

ويبدو أنّ هناك فرقا بين الزيديّة والمعتزلة ويتجلّى في أنّ الزيدية يطرحون التقيّة جانبا ولا يعملون بها ويعلنون الخروج على السلطان الجائر فهم عمليّون أكثر منهم نظريّون، بخلاف المعتزلة فهم نظريّون أو إن شئنا فهم في طورهم الأوّل -طور واصل بن عطاء الغزال[2]- كانوا سياسيين نظريين وقفوا موقف الحياد في النّزاع بين أنصار علي ومعاوية [3]، وأظهروا

---

1) الدكتور عبد الرحمان بدوي: مذاهب الإسلاميين، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، كانون الثاني (يناير)، 1971، 1/37- 85- 88.

2) ولد واصل بن عطاء سنة (80هـ/699م او 700م) وتوفي سنة (131هـ/748م او 749م). [د. عبد الرحمان بدوي: مذاهب الإسلاميين، ص81-82، فهو تلميذ ابي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي].

3) المرجع نفسه، ص38.

نوعا من التقية أو المداراة مع حكّام بني أمية، لأنهم حكموا بجواز الخطأ على معاوية وأنصاره أو عليّ وأنصاره، وقد بيّنا سابقا أنّ هذا الجمع في الحكم بالخطأ والفسق هو للهروب من بطش بني أمية إن صرّحوا بظلم بعضهم، وإذا اتّهموا عليّا بالظلم صراحة فإنهم لا يخشون بطش أيّ كان وإنما يخشون نقد أهل السنّة والشيعة فلجأوا إلى مثل هذه المداراة ولسان حالهم ينطق بالحقّ من خلال الجمع، ويكفي بنو أمية هذا الموقف غير الواضح كحلّ للعامّة من المسلمين، أمّا دقيق المعاني فقد جُعل للخاصّة، ولن يتأذّى الحكم الأمويّ أو يهتزّ بحكم الخاصّة لأنّ العامّة هي التي تصنع الثورات سواء أكان ذلك بتوجيه الخاصة، أحيانا أم بدونها أحيانا أخرى.

هذا وإنّ المعتزلة علميّون نظريّون وغايتهم هي محاربة أعداء الدين بسلاح الفلسفة للعثور على مزيد من الأدلّة، وعلى المقنع منها قصد إفحام الخصوم.

ويتجلّى فرق آخر بين الزيدية والمعتزلة وهو أنه إذا كان الزيدية كما قلنا عمليين يشترطون الخروج بالسّيف على الحاكم الظالم، فإنّ المعتزلة يذهبون إلى تحويل نظريّاتهم إلى عمل بطريقة سلميّة إن أمكن، وذلك بمحاولة إقناع العامّة أو السلطة الحاكمة بتبنّي أفكارهم ونظرياتهم، ولذلك أثّروا في الخليفة يزيد بن الوليد فخرج على الوليد لما ظهر من فسقه وفجوره منفّذا الأصل الخامسمن أصول المعتزلة[1] وهو "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، وقتله سنة (126هـ/744م)، متولّيا الخلافة بدلا عنه وبذلك أصبح يزيد خليفة يقول بمذهب الاعتزال، حتى أنّ المعتزلة يفضّلونه على عمر بن عبد العزيز الذي اعتبره أهل السنّة الخليفة الراشدي الخامس[2]. وهو تفضيل معتزلي نزلّفي لمن يتبنّى آراءهم، يستجلي أكثر في خلافة المأمون العباسي، بعد قتله أخاه الخليفة الأمين واستيلاءه على الحكم بإعانة البرامكة الفارسيّين وقوله بمذهب الإعتزال. كما أثّروا في العهد العبّاسي أيضا على الخليفة المعتصم بالله محمد بن

---

1) أصول المعتزلة الخمس هي: 1. التوحيد 2. العدل، 3. الوعد والوعيد، 4. المنزلة بين المنزلتين، 5. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

2) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: 2/175 نقلا عن المسعودي.

هارون الرشيد (177هـ/795م/224هـ-842م)، فمال إلى مذهبهم ونكّل بأهل السنّة. ومذهب الإعتزال محاولة لإقناع المسلمين بأنّ ﴿ الله لا يظلِمُ النّاسَ شَيئًا ولَكِنّ النّاسَ أنفُسَهُمْ يَظلِمُون﴾، ونقد مذهب أهل السنّة الذين أطمعوا الفسّاق في عفو الله -في رأيهم- وهي دعوة إلى العمل ونبذ التطرّف وإصلاح الفساد السياسي تظهر حديثا في قول الشاعر الإنساني العالمي التونسي أبو القاسم الشابي: ' إذا الشّعبُ يوماً أرادَ الحَياةَ فلا بُدّ أنْ يستجيبَ القدر '[1].

2. الشيعة المغالية

وجد الفرس باعتبارهم من الموالي المنبوذين وخاصّة في عهد الخلافة الأموية المتّسمة بالعنصريّة ضالّتهم في قضيّة النّزاع بين علي ومعاوية لينفذوا منه إلى وضع آرائهم ضدّ بعض أهل السنّة العنصريين موضع التطبيق فانضمّوا إلى عليّ في حياته، فلمّا قتل سنحت لهم فرص أحسن، وتتمثّل في وريثه للإمامة الحسن -حسب رأيهم- ثمّ الحسين بن علي بن أبي طالب باعتباره سليل الشّرف النبويّ والمجد الكسرويّ، فهو ابن فاطمة بنت محمد ﷺ وزوج 'شهربانو' بنت آخر ملك كسروي هو 'يزكرد الثاني'، وبذلك انبطقت عليه نظريّة الفرس في الحكم وهي 'الحقّ المقدّس' التي اكتسبها بأصليه النبيلين.

وشعر هؤلاء الموالي من الفرس بخيبة مرّة إثر مقتل الشهيد الحسين سنة (61هـ/680م) وأحسّوا بما يُسمّى بـ'عقدة الذّنب' وتوبيخ الضمير والندم على عدم مناصرة الحسين والتخلّي عنه، في مقاومته للحاكم الفاسق يزيد بن معاوية المجاهر بالمعاصي والمجون، لعنه الله، وصمموا على الثأر من قتلة الحسين وتعاهدوا على ذلك وسمّوا أنفسهم بـ'التوّابين'[2] (تابوا عن ذنوبهم تجاه الحسين) واندلعت ثورتهم سنة (65هـ/684م) بقيادة سليمان بن صرد، ولكنهم انهزموا في النهاية في موقعة عين الوردة وقُتل قائدهم المذكور.

وقيل نكبتهم كان المختار بن أبي عبيد الثقفي دعاهم إلى التخلّي عن قائدهم ابن صرد

---

1) أبو القاسم الشابي: ديوان أغاني الحياة.

2) الدكتور علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة، ص75.

والانضمام إليه[1]، فانضموا إليه رغم ادّعائه التشيّع المقرون بالغلوّ ويظهر في مواضع متعددة منها:

* البداء: الذي استغلّه لجلب الأنصار من ذلك ادّعاؤه أنّ الله أوحى إليه بالنّصر في حربه مع مصعب بن الزبير، فلمّا انهزم سألوه عن النصر الموعود قال لهم: « إنّ الله وعدني ثمّ بدا له»[2]، غير ذلك، واستدلّ بقوله تعالى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[3]. وهي آية كريمة في النّاسخ والمنسوخ القرآني وفي القضاء والقدر، استغلّها هذا اللّعين ليبرّر بها هزيمته النكراء أمام أتباعه.

* كان المختار بن أبي عبيد الثقفي لا يفرّق بين النسخ والبداء فيقول: « إذا جاز النسخ في الأحكام جاز البداء في الأخبار».

* استطاع المختار أن يثأر من قتلة الحسين وأن يخمّد شوكتهم بالدماء وأن يقتل عبد الله بن زياد الذي اختاره عبد الملك بن مروان قائدا للجيش الأمويّ، وأرسل رأسه إلى محمد بن الحنفيّة، ونسجت حول ذلك أسطورة تدلّ على إغراق الشيعة في الانحراف والغلوّ والخيال ومفادها أنّ حيّة تخطّت رؤوس القتلى ودخلت فم ابن زياد وخرجت من منخره ثم أعادت ذلك مرارا... [4].

* اعتبرت الكيسانيّة نسبة إلى كيسان غلام المختار أنّ محمد بن الحنفيّة لم يمت -وهو المهدي المنتظر- بجبل رضوى عن يمينه أسد وعن يساره أسد أو نمر ومن حوله تنفجر عينان من الماء والعسل يتغذّى منهما[5]، وصوّره بعضهم أنّ الأيارى[6] تغدو عليه

---

1) الدكتور علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة، ص75.

2) المرجع نفسه، ص102-103.

3) سورة الرعد الآية: 33.

4) الدكتور علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة، ص91-102.

5) الشهرستاني: الملل والنحل: 196/1 على هامش الفصل لابن حزم.

- الدكتور علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة، ص103.

6) حيوانات وحشية لبؤة من اللبن ترضع صغارها.

فيشرب من لبنها ويأكل من لحومها إلى أوان رجعته، وقال كثير عزّة شاعرهم في هذا:

ألا إنّ الأئمّة مِـنْ قُريــش *** ولاءَ الحــقّ أربعةٌ ســواءُ

علـيٌ والثّلاثـةُ من بنـيـه *** هُمُ الأسباطُ ليس بهمْ خفاءُ

فسَبْطُ سبــطُ إيمـانٍ وبِـرٍّ *** وسبــطُ غـيبــتهِ كرْبـلاءُ

وسبطٌ لا يذوقُ الموْتَ حتّى *** يقُودَ الخيلَ يقْدُمُها اللّواءُ

تغيْبُ لا يرى فيهم زمــانًا *** برضوى عنده عسلٌ وماءُ

* قالت طائفة من الكيسانية بتناسخ الأرواح، لعنهم الله، وطبّقوه في غلوّ وانحراف، وذهب الحمق ببعضهم إلى أن يأخذوا البغل أو الحمار أو العنز فيعذّبونها ويعطّشونها ويجيّعونها على أنّ روح أبي بكر وعمر وعائشة حلّت فيها [1].

3. الشيعة الإماميّة

ذلك بالنسبة لبعض الغلاة من الشيعة، أمّا المعتدلون ففرقة الإماميّة الاثني عشرية، وسمّوا بذلك لأنهم يسلسلون الإمامة في اثني عشر إماما هم:

1. علي، 2. الحسن، 3. الحسين، 4. علي زين العابدين، 5. محمد الباقر، 6. جعفر الصادق،

7. موسى الكاظم، 8. علي الرضا، 9. محمد الجواد، 10. علي الهادي، 11. الحسن العسكري،

12. محمد بن الحسن العسكري (أو المهدي المنتظر).

---

1) الدكتور علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة: ص102.

– هو نوع من التعويض او ما يُعرف بإعادة التوازن إلى النفس المريضة والتي لم تستطع ان تثأر من خصمها تلتجئ إليه بتوجيه من لا شعور مثال ذلك المرأة التي تتخيّل في تمثال أو في صورة لزوجها شخصيته الحقيقية فتنتقم من الصورة سبّا وشتما تأثّه قهرها في حياتهما الخاصّة ولم تتمكّن من النيل منه، والعكس بالعكس، وكذلك الشأن إذا ظلم أحد الأبوين من أحد أولاده فيجدان أحيانا في أطفال الغير أو في الدمية حلا تعويضيّا....

ونختصر هنا بعض آرائهم معتمدين على مرجع اثني عشري هو لمحمد الحسين آل كاشف الغطاء:

أ- أنّ الإمامة منصب إلهي كالنبوّة يختار لها الله ما يشاء عملا بقوله تعالى: (وربّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة من أمرهم)[1] الذين تأوّلوه -حسب فهمهم- فكذلك يختار الله من يشاء للإمامة ويأمر نبيّه بالنصّ عليه. والفرق بين النبيء والإمام الموصى إليه أنّ النبيء يوحى إليه والإمام لا يوحى إليه[2]، ولذلك يرى الشيعة الإثنا عشريّة أنّ النبي محمد ﷺ خاطب الناس عند منصرفه من حجّة الوداع في 'غدير خم' ولذلك عُرف الحديث باسم هذا المكان، (حديث الغدير) فنادى وجلّهم يسمعون: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» فقالوا: «بَلَى!» فقال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه! اللهم والِ من والاهُ وعادِ منْ عاداه! وزيادة في رواية: " وأدِرْ الحقّ معه حَيْثُ دار "»[3]، وبذلك يكون النبيء ﷺ في نظر الاثني عشريّة أوصى لعليّ بالنصّ، ثمّ لمّا انتقل الرسول إلى الرّفيق الأعلى رأى جمع من الصحابة ألاّ تكون الخلافة لعليّ إمّا لصغر منه أو لأنّ قريشا كرهت أن تكون النبوّة والخلافة لبني هاشم.

وجاء في صحيح البخاري وفي باب 'غزوة خيبر' أنّ عليّا لم يبايع أبا بكر إلا بعد ستّة أشهر وتبعه على ذلك جماعة من الصحابة كالزبير بن العوام وعمار بن ياسر والمقداد بن الأسود الدؤلي وغيرهم[4]، ثم بايع خوفا على المسلمين من الاختلاف.

ب- وقد أورد ابن كثير في "البداية والنهاية" أنّ هذه البيعة الثانية تأكيدا للصلح الذي

---

1) سورة القصص الآية: 68.

2) محمد الحسين آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها، ط9، دار البحار، بيروت، 1379هـ/1960م، ص103.

3) محمد الحسين آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها، ص108. وكتاب الأصول من الكافي للكليني، وهو كتاب يعدّ بخاري الشيعة الإمامية.

4) المرجع نفسه، ص92.

وقع بينهما[1]، وربّما أخذا بخاطر زوجته فاطمة التي تأثّرت من أبي بكر لأنه لم يمكّنها من ميراثها من أبيها، معتمدا على قولة محمد ﷺ: «نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»، ولكنه صالحها قبل وفاتها وأقنعها فاقتنعت.

وبايع علي الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وسالمه وصلّى وراءه، وكان مستشاره -كما مرّ بنا- ولكنه قاوم معاوية بن أبي سفيان لمّا تبيّن له الرّشد من الغيّ، وأنّه ظالم وفاسق افتكّ الخلافة الشرعيّة من علي، كرّم الله وجهه، انتقاما لجدّه عتبة وابنه وأخيه قتلى غزوة بدر الكبرى.

الوصية

ويردّ ابن حزم الظاهري على رأي الاثني عشريّة في الوصيّلة لعليّ بالنص أنّ الأخير عُرف بتمسّكه بالحقّ مهما كان وبلاؤه في الإسلام يدلّ على صحّة ما ذكرنا، ولو كان عليّ يعتقد أنّ هذا النصّ -لو صحّ- مقصود به إمامته للمسلمين بعد الرسول ﷺ لتمسّك به وامتنع عن المبايعة لأبي بكر وعمر وعثمان ولقاومهم، «ولا يجوز أن يُظنّ بعليّ -رضي الله عنه- أنه أمسك عن ذكر النصّ عليه خوف الموت وهو الأسد شجاعة، وقد عرّض نفسه للموت بين يدي رسول الله ﷺ مرات ثم يوم الجمل، فما الذي جنّبه بين هاتين الحالتين وما الذي ألّف بين بصائر الناس على كتمان حقّ علي ومنعه ما هو أحقّ منه مذ مات رسول الله ﷺ إلى أن قُتل عثمان رضي الله عنه»[2].

ويتساءل ابن حزم كيف يرضى عليّ -كرّم الله وجهه- أن يبقى المسلمون بلاخليفة مدة ثلاثة أيام بعد موت عمر بن الخطاب وهو يعلم أنّ رسول الله ﷺ أوصى إليه بالإمامة؟ ثم كيف تخفى الوصيّة على كلّ المسلمين إلاّ على الشّيعة؟، ولو كانت صحيحة لما طالب الأنصار في سقيفة بني ساعدة بالخلافة لزعيمهم سعد بن عبادة!. ثم ما الذي يمنع عليّا من محاربة مغتصبي الحقّ الموصى به إليه -إذا كان ذلك كما يظنّ الشيعة- خاصة وأنّ أبا

---

1) ابن كثير: البداية والنهاية: 286/5.

2) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل: 97/3-100 وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني.

بكر لا عائلة له تحميه وعليّ معزّز ومحميّ في عائلة بني هاشم العريقة والماجدة والعزيزة في قبيلة قريش بين العرب.

ومما يؤيّد رأي ابن حزم الأخير، أنّ أبا بكر لمّا أراد الذّهاب إلى عليّ في بيعة الصّلح الثانية التي أوردها الحافظ بن كثير، نصحه عمر بن الخطاب بعدم الذهاب خوفا عليه[1]، ولست أدري -إن صحّت الرواية- كيف يشكّ عمر في نزاهة علي -رضي الله عنهم جميعا- إلاّ أن يكون داخله الشكّ من طلب علي لأبي بكر أن يأتيه وحده إلى بيته -بعد وفاة فاطمة- ولا يصطحب معه عمرا لشدّته!.

أمّا الشهرستاني فيرى أنّ المقصود من حديث "غديرخم" هو أنّ عليّا أصبح مولى كلّ مؤمن ومؤمنة وأنّ مكانته في الإسلام ازدادت علوا لبلائه في سبيله وذلك ما فهمته الصحابة أيضا، وهذا نصّ قولته: «فادّعت الإماميّة الإماميّة أنّ هذا النصّ صريح فإنا ننظر من كان النبيّ ﷺ مولى له وبأيّ معنى فتطرد ذلك في حقّ عليّ، وقد فهمت الصحابة من التولية ما فهمناه حتى قال عمر حين استقبل عليّا: طوبى لك يا عليّ أصبحت مولى كلّ مؤمن ومؤمنة»[2].

ج- ويستمرّ الشيعة الإماميّة في تأويل النصوص حسب مذهبهم ووضع البعض منها -مثل بعض أهل السنّة في العهد الأموي وما بعده-، فيروون أنّ الرسول ﷺ أوصلى لعليّ بالإمامة، وعليّ أوصى للحسن، والحسن أوصلى للحسين، والحسين أوصلى لعليّ زين العابدين... وهكذا دواليك حتى يصلوا إلى الإمام الثّاني عشر وهو محمد بن الحسن العسكري، الذي يعتبرونه لم يُقتل وهو المهدي المنتظر غاب في سرداب في مدينة "سامراء"[3*] وسيرجع فيملأ الأرض عدلا وإنصافا كما مُلئت جورا وطغيانا.

ومن الأحاديث التي رووها عن الزمخشري في كتابه "ربيع الأنوار" أنّ رسول الله ﷺ

---

1) ابن كثير: البداية والنهاية: 5/285-286.

2) الشهرستاني: الملل والنحل: 3/220، هامش كتاب الفصل لابن حزم.

*) مدينة سامراء اختصار لمدينة وكلمة (شز من رأى) العامية.

قال: «يا عليّ! إذا كان يوم القيامة أخذتُ بحجزة الله تعالى وأخذتَ أنت بحجزتي، وأخذ وُلْدُك بحجزتك وأخذ شيعة وُلْدك بحجزتهم فترى أين يؤمر بنا»[1].

ومن الأحاديث الموضوعة أيضا ما ينسبونه إلى الرسول عليه السلام:

– قوله في صحة إمامة الاثني عشرية: «إنّ هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة... كلّهم من قريش»[2].

– ويؤوّلون الآية القرآنية الكريمة التالية في هذا المعنى وهي قوله تعالى: (إنّي جاعلك للنّاس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين)[3]، والمقصود بها –حسب زعمهم– هو علي وأبناؤه وهم الأئمة الاثنا عشرية، ومن صفاتهم أنهم غير ظالمين، فهم أئمة والأئمة معصومون من الخطأ، وقد نزلت الآية الأنفة الذكر لتثبت هذه العصمة. والصّحيح عند أهل السنة أنّ أيمة أهل البيت أولياء صالحون وغير ظالمين، ولكن غير معصومين لأنّ العصمة خاصة بالأنبياء والمرسلين وخاتمتهم محمد ﷺ.

د– وبذلك يتّضح أنّ الاثني عشرية يقولون بالعصمة والتقيّة والرّجعة والغيبيّة والمهديّة لأئمّتهم.

4. رأي أهل السنّة الظاهريّة في إمامة المفضول

ونسوق الآن رأي أهل السنّة الظاهريّة وهم يعتمدون دائما على الظاهر، ويتجلّى ذلك في رأي أحد أقطابهم وهم ابن حزم الأندلسي الظاهري المتوفى سنة (456هـ/1063م) الذي يكشف عن مذهبه في الحادثة التالية المرويّة في كتابه 'طوق الحمامة'، ذكر ابن حزم أنه مرّ يوما هو وأبو عمر بن عبد البرّ صاحب "الاستيعاب" بسكّة الحطّابين بمدينة إشبيلية،

---

1) محمد الحسين آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها، ص88. مع الملاحظ أنّ كلمة "أين" في الحديث ليست عربية فصيحة والصحيح أن يقال حيث ، وهذا من علامة وضع الحديث لأنّ الرسول عليه السلام من أفصح العرب لسانا.

2) المرجع نفسه، ص104.

3) سورة البقرة الآية: 124.

فلقيهما شابّ حسن الوجه فقال أبو محمد بن حزم: «هذه صورة حسنة! فقال له أبو عمر: لم نر إلاّ الوجه فلعلّ ما سترته الثّياب ليس كذلك»، فقال ابن حزم ارتجالا:

وذي عذلٍ فيمن سبائي حُسنُهُ *** يطيلُ ملاَمي في الهوى ويقولُ

أمِنْ أجْلِ وجْهٍ لاحَ لمْ ترَ غيرَهُ *** ولم تدْرِ كيف الجسمُ أنتَ عليلُ

فقُلتُ له أسْرَفْتَ في اللّوم فانتدِ *** فعندي ردٌّ لوْ أشاءُ طويلُ

ألمْ تَرَ أنّي ظاهريٌّ وأنّني *** على ما أرى حتّى يقُومَ دليلُ [1]

وابن حزم يقرّ بإمامة المفضول مع وجود الأفضل ويردّ على القائلين بأنه «لا يجوز إمامة من يوجد في الناس من هو أفضل منه» [2]، وهم «طوائف من الخوارج وطوائف من المعتزلة، وطوائف من المرجئة منهم محمد بن الطيّب الباقلاني ومن اتّبعه وجميع الرافضة من الشيعة» [3]، وهم الذين رفضوا إمامة زيد بن علي كما مرّ بنا.

ويصرّح ابن حزم أنّ أهل السنّة جميعا يقولون بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وأنهم أقرب المذاهب إلى أهل السنّة المعتزلة[4]، ويورد حججا على ذلك ومنها:

أ- الردّ على الشيعة الرافضة الذين قالوا: إنّ الإمامة بالنصّ والوصف لعليّ بن أبي طالب، أنّ هذه الوصيّة لو كانت موجودة لما كان تنازل عليّ للخلفاء الراشدين الثلاثة قبله أبو بكر وعثمان -رضي الله عنهم جميعا- ولكان هذا الأمر غير خاف على أحد ولم ينفرد الشيعة بالعلم به دون غيرهم.

---

1) ابن حزم: طوق الحمامة، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، حقّقه كامل الصيرفي، قدّم له إبراهيم الأبياري، بدون تاريخ، ص9.

2) ابن حزم: الفصل: 163/4 وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني.

3) المصدر نفسه: 163/4.

4) المصدر نفسه: 163/4.

ب-أنّ من قال «إنّ الإمامة لا تجوز إلاّ لأفضل من يوجد» [1]، ليست لهم حجّة من قرآن ولا من سنّة ولا من إجماع، ولا من قياس، ولا من عقل، ولا من قول أحد أصحاب رسول الله ﷺ. ومن هذا القبيل:

ج- قدّم أبو بكر يوم السّقيفة عمر بن الخطّاب وأبا عبيدة عمرو بن الجرّاح على نفسه ليكون أحدهما خليفة رسول الله قائلا: «قد رضيت لكم أحد هذين الرّجلين» وأبو بكر أفضل منهما -رضي الله عنهم جميعا- فما قال أحد من الحاضرين ولا من بقيّة المسلمين إنّ هذا مجانب للإسلام[2].

د- طالبت الأنصار يوم السّقيفة أن يكون زعيمها سعد بن عبادة هو الخليفة ويوجد من بين الصحابة من هو أفضل منه.

هـ- عهد عمر قبل موته إلى ستّة الشورى، وفيهم من هو أفضل من الآخر، وأجمع المسلمون بلا خلاف على أنه إن بويع أحدهم فطاعته واجبة «فصحّ بما ذكرنا إجماع الصحابة رضي الله عنهم على جواز إمامة المفضول»[3]، مع وجود الأفضل والفاضل...

و- لمّا قُتل عليّ بايع المسلمون الحسن، فسلّم الأمر لمعاوية «وفي بقايا الصحابة من هو أفضل منهما ممّن أنفق قبل الفتح وقاتل»[4]، ومع ذلك فقد أجمعوا على مبايعة معاوية بن أبي سفيان المغتصب للخلافة والظالم لعلي ولأهل البيت وجعلها وراثيّة بينما هي بالانتخاب الشّوروي. وتردّ على ابن حزم بأنه إجماع أهل الشام وبعض الصحابة فقط، أمّا الخوارج والعراقيون فكانوا مع عليّ وأبنائه، وكذلك أغلب الصحابة وما لجأ ابن حزم إلى ذلك إلاّ لأنّ له ميولا أمويّة، وقد اتّهم بذلك -حسب ادّعائه- وذكره في كتابه "طوق الحمامة" فقال:

---

1) ابن حزم: الفصل: 163/4 وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني.

2) المصدر نفسه: 163/4.

3) المصدر نفسه: 163/4-164.

4) المصدر نفسه: 164/4.

«وبويع عليّ بن حمودة الحسيني المسمّى بالناصر بالخلافة... وفي إثر ذلك نكّبني جيران صاحب المريّة ممّا إذ نقل إليه عنّي وعن محمد بن إسحاق صاحبي أنّا نسعى في القيام بدعوة الدولة الأمويّة»[1]، واعتباره أنّ المسلمين أجمعوا على مبايعة معاوية بالخلافة يرجّح هذه التّهمة. وما كان ذلك إجماعا بل اغتصابا بالحقّ دون أهله وهو علي بن أبي طالب – كرّم الله وجهه– وأبناؤه –رضي الله عنهم–.

ز– الردّ على المرجئيّ المبتدع –في زعمه– محمد بن الطيّب الباقلاني في دعواه بعدم جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل والحال أنه «قد جوّز النبوّة والرسالة لمن غيره أفضل منه»[2]، فكيف يجيزها في هذا وهو امر مهول يصرّح به من يدّعي الإسلام والفقه والعلم والإمامة، ولا يجيزها في الخلافة وهي تعتبر في الدرجة الثانية بعد النبوّة، أوليس الإمام خليفة الرسول ﷺ، وهذا نصّ ردّ ابن حزم عليه: «والعجب كلّه كيف يجتمع قول الباقلاني أنه لا تجوز الإمامة لمن غيره من الناس أفضل منه وهو قد جوّز النبوّة والرسالة لمن غيره من الناس أفضل منه، فإنه صرّح فيما ذكره عنه صاحبه أبو جعفر السمناني الأعمى قاضي الموصل بأنه جائز أن يكون في الأمّة من هو أفضل من رسول الله ﷺ من حين بعث إلى أن مات»[3]. ونستغفر الله العظيم من قوله.

ح– أنّ الرسول ﷺ عيّن ولاّة من الصحابة مع وجود من هو أفضل منهم من هؤلاء، فقد ولّى على اليمن: معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري وخالد بن الوليد، وعلى عمان: عمرو بن العاص، وعلى نجران: أبا سفيان، وعلى مكّة: غياث بن أسيد، وعلى الطائف: عثمان بن أبي العاص، وعلى البحرين: علاء بن الحضرمي؛ ولا خلاف فإنه يوجد من بين الصحابة من هو أفضل من هؤلاء كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعمار بن

---

1) ابن حزم: طوق الحمامة، ص (ز)، تقديم الأبياري [وانظر دائرة المعارف الإسلامية: 142/1، مادة (ابن)].

2) ابن حزم: الفصل: 164/4 وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني.

3) المصدر نفسه: 164/4.

ياسر وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمان بن عوف وأبي عبيدة عمرو بن الجرّاح، وعبد الله بن مسعود وبلال بن رباح وأبي ذرّ الغفاري –رضي الله عنهم جميعا– ومع ذلك فقد قدّم – عليه السلام– الفاضل والمفضول على الأفضل لمصلحة رآها[1]، وقضيّة مفصديّة اقتضاها.

وقد شعر ابن حزم بوجود مأخذين على أقواله وردوده في أنّ خلافة أبي بكر بنصّ من رسول الله ونصّ من القرآن الكريم[2] –لأنه ظاهريّ– وهذان الماخذان هما:

- كيف يقدّم أبو بكر على نفسه عمر بن الخطاب وأبا عبيدة عمرو بن الجرّاح وهو يعلم أنّ خلافته بنصّ من القرآن ونصّ من السنّة ؟
- كيف يقدّم الأنصار زعيمهم سعد بن عبادة للخلافة وهم يعلمون بهذه النصوص؟

وقد حاول ابن حزم أن يزيل هذا الغموض بأنّ إمامة المفضول مع وجود الأفضل جائزة في حدّ ذاتها، ولكن تقديم الأنصار لزعيمهم سعد خطأ وقعوا فيه لأنّه ليس قرشيّا، لأنّ من شروط الإمامة لدى ابن حزم أن يكون الإمام صليبةً من قريش وهم ليسوا قرشيين[3].

وكأني بابن حزم يحاول أن يجد التعلاّت في أنّ خلافة أبي بكر بنصّ من القرآن والسنّة، حتى لا يتناقض مع نفسه وأدائه، فبيّن الخطأ الذي وقع فيه الأنصار بتقديم سعد بن عبادة وهو أنصاريّ، دون مرتبة المهاجرين، وبيّن الصواب في تقديمهم هذا وهو: «جواز تقديم من غيره أفضل منه وهذا صواب وافقهم عليه أبو بكر وغيره فصار إجماعا فقامت به الحجة، وليس خطأ من أخطأ في قول وخالفه فيه من أصاب الحقّ بموجب، ألاّ يحتجّ بصوابه الذي وافقه فيه أهل الحقّ وهذا ما لا خلاف فيه وبالله تعالى التوفيق»[4].

والمقصود من كلّ ذلك أنّ موقف الأنصار فيه وجهان: خطأ، وحقّ، فالخطأ في

---

1) ابن حزم: الفصل: 165/4.

2) المصدر نفسه: 107/4–110.

3) المصدر نفسه: 164/4.

4) المصدر نفسه: 164/4.

تقديمهم زعيمهم وهم يعلمون بوجود النصّ القرآني والسنّي لاستخلاف أبي بكر – إن كانا موجودين–، ووجه الحقّ أنّ إمامة المفضول مع وجود الأفضل جائزة في حدّ ذاتها، وكلّ ذلك يكشف مقدرة ابن حزم في الجدل، فقد قال فيه ابن حيان: «يصكّ معارضه صكّ الجندل»[1].

وقال أبو العبّاس بن العريف فيه أيضا: «كان لسان ابن حزم وسيف الحجّاج بن يوسف شقيقين، وكان كثير الوقوع في العلماء المتقدّمين لا يكاد يسلم أحد من لسانه»[2].

ونحن إذ نوافق ابن حزم في جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل والأفضل لا يفوتنا هنا أن نشير إلى أنّ خلافة أبي بكر –ﷺ– لم تكن بنصّ من القرآن أو من السنّة وإنّما بالاختيار والانتخاب ونسوق لذلك بعض الأدلّة:

أ– أنّ ابن حزم سنّي ظاهريّ ومذهبه يقتضي الاعتماد على الحجج الظاهرة للعيان لإثبات صحّة ما يقولون، فوجدوا من الروايات نصوصا تنسب إلى الرسول ﷺ في خلافة أبي بكر وآيات قرآنية أوّلوها في هذا المجال تأويل المتعسّف.

وقد روى البعض من هذه النصوص الحافظ بن كثير المتوفى سنة (744هـ/1249م) في كتابه "البداية والنهاية" والتمسها من صحيح البخاري ومسلم ومن مسند أحمد بن حنبل مرويّة عن عائشة وعن أبي سعيد الخدري الذي روى عن رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه فقال: «خطب رسول الله الناس فقال: إنّ الله خيّر عبدا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله قال: فبكى أبو بكر قال: فعجبت لبكائه أن يخبر رسول الله عن عبد فكان رسول الله هو المخبر، وكان أبو بكر أعلمنا به، فقال رسول الله إن أمن الناس

---

1) نقلا عن دائرة المعارف الإسلاميّة: 142/1 مادة (ابن). أي يضرب معارضه بالجدل كأنه يصكّه بحجر ضخم وصلب كصكّ الحيوان بحدّه.

2) ابن حزم: طوق الحمامة، ص (هـ)، تقديم الأبياري.

– صرّح ابن حزم في رسالته الأخلاقية أنّ حدّته كانت ترجع إلى مرض كان يلازمه، ولم يكن من طبعه أن يتعمّد اختلاق التهم الواهية على خصومه [دائرة المعارف الإسلامية: 142/1 مادة (ابن)].

عليّ في صحبته وماله أبو بكر، لو كنت متّخذا خليلا غير ربّي لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن خلّة الإسلام ومودّته لا يبقى في المسجد باب إلاّ سدّ إلاّ باب أبي بكر....»، وهكذا رواه البخاري ومسلم، وأحمد، وعلّق ابن كثير على هذه الرواية بقوله: «قوله عليه السلام: سدّوا عنّي كلّ خوخة -يعني الأبواب الصغار إلى المسجد- غير خوخة أبي بكر إشارة إلى الخلافة، أي ليخرج منها إلى الصلاة بالمسلمين»[1]. واعتبروها إشارة غير مباشرة في خلافة أبي بكر، ولو كانت واضحة، لما اختلف الصّحابة من مهاجرين وأنصار في سقيفة بني ساعدة حول من يتولّى الخلافة وأنهى عمر الخلافة بقوله: " مُدّ يدك أبايعك بالخلافة يا أبا بكر"، فبايعوا جميعا إلاّ عليّا (رضي الله عنهم جميعا).

وهذا التعليق هو من فهم الصّحابة واجتهادهم، ونصّ التولية لا يظهر صريحا في هذا الحديث، وما هو إلاّ ثناء على أفضل أصحاب رسول الله ﷺ، كثنائه على عليّ، بأن يوالي من والاه ويعادي من عاداه، وبذلك أصبح مولًى كلّ مؤمن ومؤمنة كما قال له عمر بن الخطاب: «طوبى لك يا عليّ»[2]، ويحتمل أن تكون التولية فيه بصيغة غير مباشرة لحكمة أرادها عليه السلام أو أنه مجرّد تحريض له على الصلاة بالمسلمين في مرض النبيّ.

وإذا اعتبرنا هذا نصّا في تولية أبي بكر الخلافة فلماذا لم يقع التذكير به يوم السّقيفة؟ وهل من المعقول أن يسكت عنه صحابيّ جليل متعمّدا والحال أنه لما ناقشوه قبل إقدامه على حروب المرتدين بيّن أنه «والله لو منعوه عقالا كانوا يؤدونها لرسول لحاربهم عليها».

أفيُعقل أن يسكت صدّيق كهذا عن تنفيذ سنّة رسول الله ﷺ وموقفه وموقف عامّة المسلمين منها واضح؟.

وروى ابن حزم والحافظ بن كثير حديث المرأة التي جاءت إلى رسول الله وهو التالي: «وفي صحيح البخاري ومسلم عن محمد بن جرير عن مطعم عن أبيه قال: أتت امرأة إلى

---

1) ابن كثير: البداية والنهاية: 5/229-230.

2) المصدر نفسه: 3/220 هامش كتاب الفصل لابن حزم.

رسول الله ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: أرأيت إن جئتُ ولم أجدك -كأنها تقول الموت- قال: إن لم تجديني فأتي أبا بكر»[1].

وهذا أيضا ليس نصا صريحا في التولية، وإذا كان أبو بكر فهم منه ما أشاره إليه ابن حزم فلماذا لم ينكر به المسلمين يوم السقيفة؟ ولماذا يُقدِّم عمر وأبا عبيدة دونه للخلافة؟ أمن أجل أن يقول للمسلمين بأسلوب خفيّ -كما ادعى ابن حزم- إنّ إمامة المفضول مع وجود الفاضل والأفضل جائزة؟ وإذا كان ذلك صحيحا فلماذا لم يعلم به أحد غير أبي بكر كما يزعم ابن حزم؟ وإذا كان ذلك صحيحا أيضا فلماذا قال عليّ بن أبي طالب لأبي بكر عند مبايعته له بيعة المصالحة: «إنا قد عرفنا فضلك وما أعطاك الله ولم ننفس عليك خيرا ساقه الله إليك ولكنكم استبددتم بالأمر، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ أنّ لنا في الأمر نصيبا»[2]، ولم يقل عكس ذلك بأنه أوْلى بالخلافة للنصّ المذكور فيه! وإذا كان النص موجودا فعلاً فكيف يصحّ أن يصف عليّ مطبّقه أبا بكر ومن اتفق على توليته من الصحابة بالاستبداد؟ ولا يمكن بحال وصف من يطبّق السنّة النبويّة الشريفة بالاستبداد، إلاّ أن يكون النص موضوعا أو مؤوّلا تأويلا متعسّفا، أو أنّ عليّا لم يفهم المقصود منه! وهذا الأخير مردود نظرا لما عرف به علي من الاجتهادات الفقهيّة في المسائل المعضلة وهو المقصود بالمقولة: «أقضية ولا أبو حسن لها».

ثمّ الأخطر من هذا كلّه أن تؤول بعض الآيات القرآنية الكريمة، ليصبح سبب نزولها في استخلاف أبي بكر وعمر وعثمان -رضي الله عنهم- وهي قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[3].

---

1) ابن كثير: البداية والنهاية: 228/5. - وابن حزم: الفصل: 108/4 وبهامشه الملل للشهرستاني.

2) ابن كثير: البداية والنهاية: 286/5.

3) سورة الفتح الآية: 16.

ووضح ابن حزم هذا التأويل قائلا: «... فأخبرنا سبحانه وتعالى أنه سيدعوهم غير النبي ﷺ إلى قوم يقاتلونهم أو يسلمون، ووعدهم على طاعة من وعدهم إلى ذلك بجزيل الأجر العظيم وتوعّدهم على عصيان الداعي لهم إلى ذلك العذاب الأليم، وما دعا أولئك الأعراب أحد بعد رسول الله ﷺ إلى قوم يقاتلونهم أو يسلمون إلاّ أبو بكر وعمر وعثمان – رضي الله عنهم– فإنّ أبا بكر دعاهم إلى قتال مرتدي العرب من بني حنيفة، وأصحاب الأسود وسجاح وطليحة والروم والفرس وغيرهم، وعمر دعاهم إلى قتال الروم والفرس، وعثمان دعاهم إلى قتال الروم والفرس والترك، فوجبت طاعة أبي بكر وعمر وعثمان بنصّ القرآن الذي لا يحتمل تأويلا»[1]. ولكن نسي ابن حزم أنه لو امتدّت خلافة علي سنوات، لحارب هؤلاء أيضا، ولله في خلقه شؤون وقضاء وقدر.

ونردّ على ابن حزم بأسلوبه فنقول له: إذا كان الله سبحانه وتعالى يتنبّأ للمسلمين في عهد نبيّه ﷺ أنهم سيدعون إلى فتوحات في غير البلاد العربيّة ويأمرهم بطاعة من سيدعونهم، فليس معنى ذلك أنّ من سيدعونهم هم أبو بكر وعمر وعثمان –رضي الله عنهم– لأنه لو فرضنا أنه تولّى الخلافة ثلاثة من الصحابة غير الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول لكانت طاعتهم أيضا واجبة في هذه الدعوة.

وما دام ابن حزم ظاهريا فأين الدليل المادي الصريح في نزول الآية السابقة في أبي بكر وعمر وعثمان؟ ثمّ إذا كان ذلك صحيحا فلماذا لم يقع التذكير به يوم اختلف المسلمون في سقيفة بني ساعدة؟

وكيف يعيّن عمر –وهو الشديد في الحقّ– ستّة الشورى وهو يعلم أنّ الخليفة بعده عثمان بن عفان بنصّ قرآني؟ وكيف لا يصرّح أبو بكر بهذا؟ وهو الذي أدّى به حماسه لتطبيق السنّة الشّريفة إلى إغضاب فاطمة بنت محمد حين طالبت أبا بكر بميراثها عن أبيها، فامتنع عن ذلك مذكّرا إيّاها بقول النبي ﷺ: « نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه

1| ابن حزم: الفصل: 4/109–110 وبهامشه الملل للشهرستاني.

صدقة»[1]، وكأنه أحسّ بها تريد أن تقول: "ومن أين نعول عيالنا؟" فأخبرها أنه يعول من كان رسول الله يعولهم، وترضّاها في مرضها الذي ماتت فيه.

فما الذي منع أبا بكر من التصريح بالمقصود من هذا النص القرآني؟ وهل يمكن أن نفترض أن أبا بكر وعمر وعثمان لم يعلموا بنزول هذه الآية فيهم، أو أنهم نسوا ذلك مثلما نسي عمر بن الخطاب يوم انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى الآية الكريمة التالية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[2]، فقال: «من قال إنّ محمدا قد مات ضربته بسيفي!»، فذكّره أبو بكر الصديق بالآية السابقة.

فلماذا لم يذكّر أحدهم الناسي منهم بآية الاستخلاف -كما يزعم ابن حزم-؟

وقضيّة النسيان هذه لا يمكن قبولها بسهولة لأنه قد ينسى شخص أو اثنان على أكثر تقدير، وهو أمر ربّما يبدو أحيانا مقبولا أما أن ينسى خمسة[3] معا ذلك فشيء يكاد يكون مستحيلا! وبقيّة الصحابة وخاصّة العشرة المبشرين بالجنّة (رضي الله عنهم جميعا) سيذكّرونا الناسي. سيذكّرون الناسي

ونفس الدليل الصالح للردّ على النسيان يصلح للردّ على عدم العلم بنزول الآية الكريمة في الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول، أو عدم العلم بوصيّة الرسول ﷺ في استخلاف أبي بكر، مثلما خفي على عمر بن الخطاب حديث الاستئذان[4]، ولكنه لما خفي عليه ذلك شهد كثير من الصحابة ومنهم عليّ أنهم سمعوه من الرسول ﷺ ، ومن المحال أن يخفى حديث هامّ من

---

1) الحافظ بن كثير: البداية والنهاية: 5/285-291.

2) سورة آل عمران الآية: 144.

3) الخمسة هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة بن الجراح.

4) ابن حزم: الفصل: 4/109 وبهامشه المثل للشهرستاني. ومعناه عن رسول الله ﷺ: " من طرق بابا ثلاثا، ولم يجب يرجع ، في خصوص صحابي جاء لعمر ثلاثا فلم يأذن له فرجع، فطالبه بشهود على الحديث وإلاّ عقب بحدّ الكذاب أو الكذب.

عوقب

أحاديث الرسول أو سبب نزول آية في أمر عظيم يتعلّق بمستقبل المسلمين كالخلافة على خمسة من أشهر صحابة رسول الله ﷺ.

وإذا صحّ ما روي عن عائشة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ممّا يفيد أنّ رسول الله لم يستخلف أحدا قبل موته يكون ذلك دليلاعلى ما ذكرنا، ولكن ابن حزم ردّ على هذين الأثرين بأنهما موقوفان على عمر وعائشة ولاتقوم بهما حجّة إلى جانب ما رواه من الحديثين الصحيحن المسندين إلى رسول الله ﷺ[1].

والأثران الموقوفان هما:

أ- ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لو كان رسول الله ﷺ مستخلفا لاستخلف»[2].

ب-والأثر الثاني مرويّ عن عبد الله بن عمر عن أبيه: «قال عمرو بن ميمون إنّ عمر بن الخطاب لمّا طعن قيل له: يا أمير المؤمنين لو استخلفت! قال: لو كان أبو عبيدة حيّا لاستخلفته وقلت لربّي إن سألني إنّي سمعتُ نبيّك يقول: إنه أمين هذه الأمّة!، ولو كان سالم مولى أبي حنيفة حيّا استخلفته وقلت لربّي سمعت نبيّك يقول: إنّ سالما شديد الحب لله تعالى!، ثم قال: فإن استخلفُ فقد استخلف من هو خير منّي، وإن أترُكْ فقد ترك من هو خير منّي»[3]، ويعني أنّه إن عيّن خليفة فهو لم يات ببدعة فقد عيّنه أبو بكر قبل موته وهو أفضل منه، وإن أمسك عن التعيين فقد أمسك من هو خير منه وهو الرسول ﷺ فلم يعيّن أحدا.

ومن هذا الأثر الثاني المرويّ عن عمر لاحظ ابن حزم تناقضا بين ما جاء في شروط الخلافة لديه وأوّلها أن يكون صليبة من قريش لإخبار الرسول -حسب زعمه- (أنّ الأئمّة

---

1) ابن حزم: الفصل: 4/108-109 وبهامشه الملل للشهرستاني.

2) المصدر نفسه: 4/108.

3) ابن الأثير: تاريخ الكامل: 3/32، وبهامشه تاريخ الواقعي.

من قريش) [1]، وبين قولة عمر بن الخطاب: «ولو كان سالم مولى أبي حنيفة حيًا لاستخلفته»، وسالم مولى وليس قرشيا فأورد حديثا للرسول هو: «مولى القوم منهم ومن أنفسهم»[2]، وبذلك يصبح سالم مولى أبي حنيفة منزلا منزلة القرشي.

ولكن اشتراط القرشيّة في الخليفة وتدعيمها بحديث منسوب إلى الرسول ﷺ، يكون متناقضا مع حديث أخر ورد في كتاب 'الصحاح' وهو قوله عليه السلام: «اسمعُوا وأطيعوا وَإنْ استُعمِلَ عليكمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كأنَّ رأسهُ زَبيبةٌ»[3]، وهو حديث أصحّ من الأوّل ويوثّق به أكثر منه.

وهذا الحديث الثاني موافق لما ذهب إليه الخوارج، من أنّ الخلافة يتولاّها كلّ مسلم عادل مطيق لكتاب الله وسنّة نبيّه مهماكان جنسه ولونه، ولذلك اعتبروا أوّل فرقة ديمقراطيّة في الإسلام مع العلم أنهم أخلّوا بمبدئهم هذا عندما مارسوا الحكم في إفريقيّة والدّولة الرّستميّة[*] وجعلوه وراثيًا بعد أن نادوا بالشّورى في اختيار الإمام؛ ثمّ إنّ ديمقراطيتهم محدودة في المسلمين من الخوارج، أمّا غيرهم فهم كفرة، وبالتّالي لا يجوز توليهم الخلافة. أوّل خلفائهم عبد الرّحمان بن رستم، ثمّ ابنه عبد الوهاب بن رستم وعاصمتهم في مدينة "تاهرت" بالجزائر.

وقد ردّ ابن حزم أيضا على القائلين بعدم جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل، بصعوبة معرفة الأفضل وذلك أنه:

---

1) ابن حزم: الفصل : 165/4 وبهامشه الملل للشهرستاني.

2) المصدر نفسه، 89/4-90.

3) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: 186/2- 54 باب "إمام العبد والمولى"، كتاب الأذان، تحقيق عبد العزيز باز، وتم كتبه وأبوابه وأحاديثه واستقصى أطرافه محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفيّة، القاهرة، ج2، ص186.

* نسبة لمؤسسها عبد الرّحمان بن رستم، وجعلها بعد في أبنائه، (وتمتّ الدّولة الرّستميّة على المغرب العربي وشمال إفريقيّة)، وهو من الخوارج الأباضيّة.

▪ لا سبيل إلى معرفة الأفضل إلاّ بنصّ أو إجماع أو معجزة، وكلّها ممتنعة بلا خلاف[1]، ولعلّه يقصد أنّ النصوص لم ترد إلاّ في الخلفاء الثلاثة الأول الذين أجمعوا على إمامتهم، أمّا من جاء بعدهم فلم تجمع عليهم الأمّة عدا عليّ بن أبي طالب، ولكنه في الواقع وردت فيه نصوص في كتب الصحاح منسوبة إلى الرسول ﷺ وهي قد تعتبر أحاديث صحيحة ولكنها لاتدلّ على الاستخلاف، وإنّما تدلّ على الامتداح، وهذا الحكم يصلح للتطبيق على النصوص التي أوردها ابن حزم في أبي بكر الصديق -رضي- وفي الخليفتين بعده، وقد تكون هذه النصوص وقع تأويلها بتعسّف، أو قد تكون ضعيفة أو موضوعة.

▪ يمتنع معرفة الأفضل لأنّ من شروط الخلافة عند ابن حزم القرشيّة، والقرشيّون افترقوا في البلاد بعد انتشار الإسلام «من أقصى السّند إلى أقصى الأندلس، إلى أقصى اليمن، وصحاري البربر إلى أقصى أرمينيا وأذربيجان، وخراسان، فما بين ذلك من البلاد، فمعرفة أسمائهم ممتنع، فكيف معرفة أحوالهم؟ فكيف معرفة أفضلهم»[2].

بالحسّ والمشاهدة نعرف أنه لا يدري أحد فضل إنسان على آخر إلاّ بالظنّ، والظنّ لا يغني من الحقّ شيئا كما قال الله تعالى: (إن يتّبعون إلاّ الظنّ وإنّ الظنّ لا يغني من الحق شيئا)[3]، وقال أيضا: (إن نظنّ إلاّ ظنّا وما نحن بمستيقنين)[4]. وقال ﷺ: «إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث»[5].

▪ تباين الفضائل من شخص إلى آخر «فيكون الواحد أزهد، والواحد أورع، ويكون الآخر أسوس، ويكون الرابع أشجع، ويكون الخامس أعلم، وقد يكونون متقاربين في التفاضل لا يبين التفاوت بينهم، فبطل معرفة الأفضل، وصحّ أنّ هذا القول فاسد وتكليف ما لا يُطاق

---

1) ابن حزم: الفصل: 165/4. وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني.

2) المصدر نفسه: 165/4.

3) سورة النجم الآية: 28.

4) سورة الجاثية الآية: 32.

5) ابن حزم: الفصل: 165/4. وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني.

وإلزام ما لا يستطاع وهذا باطل لا يحلّ والحمد لله ربّ العالمين»[1]، أي القول بعدم جواز إمامة المفضول مع قيام الفاضل والأفضل.

- الفضائل كثيرة ومنها الورع والزهد والعلم والشجاعة والسّخاء والعفّة والصّبر والصّرامة والتّقوى والصّلاح وغير ذلك، وقد نجد شخصا بائنا في بعض هذه الصفات ومتأخّرا في بعضها الآخر، ويمتنع أن تتوفّر جميعها في شخص واحد، «ففي أيّها يراعي الفضل من لا يجيز إمامة المفضول فإن اقتصر على بعضها كان مدّعيا بلا دليل، وإن عمّ جميعها كلّف من لا سبيل إلى وجوده أبدا في أحد بعد رسول الله ﷺ، فإذ لا شكّ في ذلك فقد صحّ القول في إمامة المفضول وبطل قول من قال غير ذلك وبالله تعالى التوفيق»[2].

إمامة الفاسق في نظر ابن حزم

- ولزيادة إيضاح رأي ابن حزم في إمامة المفضول مع وجود الأفضل والفاضل وصعوبة معرفة الأفضل من بين كلّ الناس فإنه يجيز إمامة الفاسق[3] الذي اقتضت المصلحة تعيينه أو فرض نفسه بالقوّة على المسلمين، وقد يكون هذا الفاسق عنيدا قويّ الشكيمة، له من الأنصار الأقوياء ما يجعل مقاومته ضربا من المستحيل أو مؤدّية إلى فرقة المسلمين واختلافات دمويّة تؤدي بالظالم والمظلوم والمحايد إلى الهاوية... هذا الفاسق يحسن إبقاؤه في الحكم للمصلحة المذكورة، لكن يشترط فيه أن ينتهي عن الكبائر ولا يجاهر بالصغائر، والصّلاة خلفه صحيحة باتّفاق أهل السنّة والجماعة، وتولّيه حكم المسلمين مكروه إلاّ للضّرورة، وطاعته واجبة فيما أطاع الله فيه، ومنعه ممّا لم يطع فيه واجب[4].

والسؤال المتبادر: لماذا قال ابن حزم بإمامة الفاسق؟

---

1) المصدر نفسه.

2) ابن حزم: الفصل: 4/165-166. وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني.

3) المصدر نفسه: 4/176-179.

4) المصدر نفسه: 4/166-167.

1. أ لأنه كان أموي النزعة -كما أتّهم بذلك- فأراد أن يثبت صحة خلافة بني أميّة رغم فسق بعضهم العلني كيزيد بن معاوية، والوليد بن يزيد، ويزيد بن عبد الملك، وغيرهم؟.

2. أم لأنّ المصلحة والضرورة تجبران المسلمين أحيانا على تحمّل حكّامهم الفاسقين المتهتكين، خشية انتشار الخلافات وما يتبعها أحيانا من حروب أهلية وماضي العالم الإسلامي وحاضره شاهدان على ذلك 'وربّ ضارّة نافعة' وكما يقولون (إمام عادل خير من فتنة تدوم)، وهذا هو الرأي الأقرب إلى الصواب؛ ولكن لا ننسى أنّ التعوّد على السكوت عن ظلم الحكّام ومجونهم بدعوى الحفاظ على الاستقرار لأنه نعمة لا تنكر، يؤدّي إلى قتل كلمة الحق، وإلى قتل صفة الاعتداد بالنفس، والثقة فيها وهي أمور تؤول بأصحابها إلى وخيم العواقب كانعدام الاختراع والاكتشاف والنبوغ الذي كان سبب تقدّم المسلمين في عصورهم الذهبيّة، فلمّا ألجمهم الخوف عن قول الحقّ وعن حرية الكلمة وصلوا إلى ما وصلوا إليه من التأخّر عن ركب الحضارة، وأعانهم الغرب والشرق على ذلك لينعموا بحضارتهم وتقدّمهم على حساب غيرهم.

5. المقارنة بين الزيديّة وأهل السنّة والخوارج

رأينا سابقا أنّ الزيديّة فرقة شيعية اسما ولكنها في الواقع تكاد تكون سنيّة وذلك لأسباب منها:

- اعتدالها الذي يظهر في قولها بإمامة المفضول مع وجود الأفضل والفاضل.
- تولّيها للشيخين وعدم تكفيرهما وقولهما بالمصلحة والشورى، والاختيار في خلافة رسول الله ﷺ عدا بعض الزيدية المتطرفين الذين ساروا سيرة الشيعة الرافضة المغالية وصحّ أن يكونوا من الأخيرين لا من الأوائل الزيديّين في عهد زيد بن علي ﷺ.
- حاز زيد بن علي رضا الأئمة سنين كثيرة وأشهرهم أبو حنيفة النعمان الذي أعان زيدا ماديا وأدبيّا[1] وكانوا معه يقاتلون لما تخلّى عنه أنصاره الكوفيّون وهم عبارة عن مائتين

---

1) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص145-146.

ونيف من خيرة الفقهاء والقرّاء: كسلمة بن كهيل، ويزيد بن أبي زياد، وهرون بن سعد، وهاشم بن البريد، وأبو هاشم الرماني، والحجّاج بن دينار، وأبو خالد عمرو بن خالد الواسطي تلميذه الذي روى عنه كتاب "الجموع في الفقه".

- وقف إلى جانبه عبد الله بن عمر بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب[1] وهو من أحفاد عمر بن الخطاب لمّا أهانه الأنصاري بتحريض من عامل المدينة في قضية صدقات فاطمة التي استغلّها بنو أميّة لإنزال الفرقة بين آل البيت (آل الحسين وآل الحسن) وأهان الأنصاري الذي شتم زيدا بأنه "ابن أبي تراب" (يقصد عليّا) وابن حسين السّفيه -حسب زعمه لعنه الله- بأنّ زيدا أفضل منه نفسا وأبا وأمّا ومحتدا... ثمّ رمى كفّا من حصى على الأرض وقال غاضبا: «والله مالنا على هذا من صبر!»، متحدّيا الأنصاري وعامل المدينة وبني أميّة عامّة، لكن زيد والزيديّة يختلفون عن أهل السنّة فيما يلي:

أ. إعلان الخروج على السّلطان الجائر

ب. عدم القول بالتقيّة بينما أهل السنّة يجيزونها حتى وصل الأمر ببعضهم إلى أن يجيز إمامة الفاسق في الصلاة وفي الخلافة، ويسكتون عن مجون الخلفاء وظلمهم ومخالفتهم للشريعة بدعوى الحفاظ على اتحاد المسلمين، وبالأمس القريب كان مالك بن أنس يقول -لمّا طلب منه خليفة عباسي أن يفتي في طلاق المكره-: «من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس لا أقول بطلاق المكره»، وقد أُركب على أتان في وضع معكوس والسياط تلهبه ومع كلّ ذلك فلم يتزحزح عن الحق... ولا نستغرب بعد ذلك إذا لم نجد في المسلمين نوابغ أمثال: مالك والشافعي وابن حنبل وأبي حنيفة وجعفر الصادق وزيد بن علي (رضي الله عنهم جميعا) الذي وقف إلى جانب زيد والزيديّة إلى الحدّ، الذي أوصله إلى السّجن حتى مات في الحبس، في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، لا لشيء إلاّ لأنه وقف إلى جانب الحقّ وأفتى أنه: يجب نصرة زيد والزيدية من بعده على اللّص

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 8/262-263.

المسمّى بالخليفة[1].

ج. يسعى زيد بن علي مثل أهل السنّة إلى توحيد كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم ويضحّي في سبيل ذلك بنفسه[2]، ولكنه مع هذا يعمل على تطبيق مبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وهو مبدأ لا يتلاءم مع التقيّة أحيانا إذا وجب الخروج على الحاكم الجائر وتوفّرت شروط نجاح الثورة.

ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسوق إلى ذكر علاقة زيد بن علي والزيديّة بالخوارج، وهم الذين خرجوا على الإمام علي لرضائه بالتحكيم في حروبه مع معاوية بن ابي سفيان، وطلبوا منه أن يعلن إسلامه من جديد ليتصروه على أعدائه، فامتنع، وبذلك يظهر رأيهم وهو تكفير مرتكب الكبيرة، بينما يقول الزيدية أنه مؤمن عاص مثل أهل السنّة وأمره إلى الله إن شاء عفا وإن شاء عاقب. أمّا المعتزلة فهم يرون أنه في منزلة بين المنزلتين لا هو مؤمن ولا هو كافر.

والعلاقة بين زيد والزيدية من جهة والخوارج من جهة أخرى تتجلى في عدة نقاط منها:

- يقول الخوارج بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويقول به زيد والزيدية.
- تحريم التقيّة قولا وعملا، وكان الخوارج لذلك يندفعون في أحكامهم أحيانا بدون تروّ بدعوى عدم التقيّة ويحكمون على أطفال مخالفيهم قبل البلوغ بالكفر[3]، ممّا يدلّ على مذاجتهم البدويّة التي ساقتهم إلى اعتبار هؤلاء قياسا على آبائهم كفارا لأنهم مخالفون لهم ودارهم دار كفر ويحلّ قتالهم وسبي نسائهم وذراريهم وغنيمة أموالهم.

بينما لم يتورّط زيد بن علي فيما تورّطوا فيه إذ اعتمد مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كأساس للخروج على السلطان الجائر، وطرح التقيّة جانبا واعتمادها في حالات ضروريّة، وقد خاطب في يوم هشام بن عبد الملك: "يا أمير المؤمنين!" واحتكم إليه في

---

1) أحمد أمين: ضحى الإسلام: 3/274.

2) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص129.

3) الدكتور علي الشابي: مباحث، ص145.

خصومته مع آل الحسن حول صدقات فاطمة -رضي الله عنها- وهو يعلم في قرارة نفسه أنه لا يستحق الخلافة لا حسدا له وإنما لما ظهر من ظلمه وقسوته على الرعيّة...

ولذلك لم يقحم زيد نفسه في خلافات مع الفرق الإسلامية -مثل الشيعة والروافض- وإنما كان خلافه مع أهل السنّة والمعتزلة وحتى الخوارج لا يتعدى الخلاف المذهبي العلمي البحت الذي لا يصل إلى سفك الدماء.

- يقول الخوارج بالعدل والمساواة والشورى في اختيار الإمام، وهذه هي المبادئ التي ثار من أجلها زيد بن علي، وقد رأينا أنّ اشتراطه للفاطميّة في الإمامة هو شرط ظاهريّ شكليّ، لأنّه إذا اقتضت المصلحة تعيين غير الفاطمي فلا حرج من تقديم الأخير عليه بل ويجب ذلك إذا لزم الأمر[1].

- اعتبر الخوارج أوّل فرقة إسلامية نادت بالديمقراطية في الخلافة خاصة الإباضيون منهم، وثارت لإلغاء النظام الوراثي الذي ابتدعه معاوية بن أبي سفيان في الحكم الأموي وأعلنت أنّ الإمامة ليست وقفا على أحد سواء أ كانوا بني أميّة أو آل البيت أو من قريش، مما يدلّ على أنّ الحديث الذي أورده ابن حزم (الأئمة من قريش)[2] حديث فيه نظر أو لأنّه من حالة خاصّة لأنّ القرآن بلغة قريش، فلو كان سمع به الخوارج لما توانوا في الاعتراف به خاصة وهم معروفون بتطبيقهم للإسلام تطبيقا حرفيا كتابا كان أم سنّة.

واعتبر الخوارج أنّ الخلافة حقّ يتولاّه كلّ مسلم يعمل بكتاب الله وسنّة رسوله، وأجمع المسلمون على اختياره بالشورى لا بالوراثة وبالرضاء لا بالتعيين والجبر عملا بالحديث الوارد في كتب الصحاح وهو قوله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، ولو وُلّي عليكم عبد حبشي كأنّ رأسه زبيبة»[3] ما أقام فيكم كتاب الله وسنّة رسوله.

---

1) الشهرستاني: الملل والنحل: 1/250-251.

2) ابن حزم: الفصل: 4/165 . وبهامشه الملل للشهرستاني.

3) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح الإمام البخاري، 54 باب إمامة العبد والمولى" كتاب الأذان، 2/186.

ولكن الخوارج تناقضوا مع مبدئهم هذا عندما مارسوا الحكم وعدّة ما كان يطالبون به نظريّات لم تدخل حيّز التطبيق حين كوّن الإباضيّة منهم الدولة الرستميّة سنة (161هـ/776م) بالمغرب وعاصمتها (تاهوت بالجزائر) وكان أوّل خليفة لها هو عبد الرحمان بن رستم اختاره الخوارج الأباضيون بالشورى مطبقين أول الأمر ما ثاروا من أجله فاستمرّ في حكمه عادلا محمود الفعال والذكرى إلى أن توفي سنة (169هـ/784م) فاتّفق الأباضيون على اختيار ابنه عبد الوهاب بن رستم نظرا لسمعة أبيه الطيّبة، فانتقل بهم من حال الخلافة إلى حال الملك... ثم جاء بعده ابنه أفلح بن عبد الوهاب (توفي سنة 281هـ/894م) فابنه أبو حاتم[1] وهكذا انتقل الخوارج من مبدأ الاختيار الشوروي للإمام إلى النظام الوراثي الملكي، ممّا قد يتبادر إلى الذّهن أنّ المبدأ شيء وتطبيقه شيء آخر عند البعض من هؤلاء الخوارج المسلمين وغيرهم[2]، والديمقراطية فيما بينهم فحسب، حتى ولو ظهر عدل الخليفة عمر بن عبد العزيز فإنهم يشترطون عليه لعنة آبائه الخلفاء قبله من بني أميّة حتى يبايعوه، وهذا ما كان. ولكنّه رفض اللعنة فقتلوه بعد تسعة أشهر من خلافته.

- أنّ الخوارج حكموا بكفر القعدة منهم كفر شرك، لأنّهم تخلّوا عن ركن الجهاد[3] وكلّ من يحكم عليه الخوارج بالكفر قدمه يصبح حلالا وكذلك ماله وعائلته...

أمّا زيد بن علي فرغم تخلّي الكوفيين عنه، ونكثهم لبيعته وهو في أشدّ الحاجة إليهم فلم يحكم عليهم بكفر وإنّما أقصى ما قال فيهم: «ما أخلفكم! قد فعلتموها! الله حسيبكم!»، وقال أيضا لأحد أنصاره: «يا نصر بن خزيمة! أتخاف أن يكونوا فعلوها حسينيّة»[4]، يعني أنهم تخلوا

---

1) ابن الصغير: تاريخ الدولة الرستمية، أعمال المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين بباريس سنة 1902 من ص8 إلى ص28 فما بعدها.

- الدكتور علي الشابي: مباحث، ص127-128.

2) ويمكن أن نفهم أيضا أن الخوارج ديمقراطيون فيما بينهم فقط فلو قلت لهم تعالوا نعين خليفة من غير الخوارج لامتنعوا لأنّ غيرهم من المخالفين لهم في حكم الكفّار.

3) الشابي: مباحث، ص145.

4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 501/5.

عنه كما تخلوا عن جدّه الحسين شهيد كربلاء.

وبذلك يظهر الإمام زيد بعيدا عن تطرّف الخوارج لا يحكم بكفر القعدة عن الجهاد لأنّ مرتكب الكبيرة في نظره مؤمن عاص يعاقب بالنار على قدر فسقه ثم يدخل الجنّة بعد ذلك، بينما الخورج اعتبروه كافرا كما قدّمنا ولا يتزوّج من المسلمين ولا يتزوّجون منه ولا يدفن في مقابرهم وهذا منطبق على كلّ مخالفيهم.

وممّا يدلّ على الصّلة الرابطة بين الخوارج والزيديّة، ما رواه أبو الفرج الأصفهاني من أنّ يحيى بن زيد بن علي لمّا فرّ بعد قتل أبيه: « أتاه ناس من المحكّمة [الخوارج] يسألونه أن يخرج معهم فيقاتلون بني أميّة فأراد لما رأى من نفاذ رأيهم أن يفعل، فنهاه يزيد بن عمرو وقال: كيف تقاتل بقوم تريد أن تستظهرهم على عدوّك وهم يبرؤون من عليّ وآل بيته، فلم يطمئنّ إليهم غير أنه قال لهم جميلا»[1].

---

1) الأصفهاني: مقاتل الطالبين: ص134.

فـــرق الزيديـــة وأئمّتهـــم

****

يتحدّث ابن خلدون في "المقدمة"[1] عن الزيديّة فيذكر أنهم يجيزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل وينسبون إلى زيد بن علي بن الحسين السّبط[2] الذي تولى الشيخين وقال بإمامتهما ولم يتبرّأ منهما ولأجل ذلك رفضه الشيعة وساقوا الإمامة من محمد الباقر إلى جعفر الصادق حتى سموا 'رافضة' وإنّ منهم غلاة ألّهوا الأئمّة، حرّق بعضهم الإمام علي وسخط ابن الحنفيّة على المختار بن أبي عبيد الثقفي لغلوّه وصرّح بلعنته والبراءة منه وكذلك فعل جعفر الصادق.

وذكر ابن خلدون أئمة الزيديّة وهم: علي، والحسن، والحسين، وعلي زين العابدين، وزيد بن علي، ويحيى بن زيد، ومحمد بن عبد الله بن الحسن السّبط المعروف بـ(صاحب «صاحب النفس الزكيّة») وأخوه إبراهيم، وعيسى بن زيد بن علي، ومحمد بن القاسم الطّالقان...

وسنحاول تقديم هؤلاء الأئمة والتعريف بهم على النحو التالي:

1. علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: قتله عبد الرحمان بن ملجم –لعنه الله وفي جهنّم وبئس المصير– في 17 رمضان (سنة 40هـ/660م).
2. ابنه الحسن بن علي ﷺ: سمّه معاوية بن أبي سفيان –لعنه الله تعالى، إن صحت الرّواية– (سنة 49هـ/669م) بعد أن تنازل لمعاوية عن الخلافة وبايعه. وقيل سمّه الأخير إسطة زوجة الحسن التي وعدها معاوية أنّ يزوّجها ابنه يزيد لعنه الله
3. أخوه الحسين بن علي ﷺ: قتله يزيد بن معاوية –لعنه الله وفي جهنّم وبئس المصير– في كربلاء فسمّي "الحسين الشهيد" لدى الشيعة ولدى أهل السنّة وكان ذلك (سنة

---

1) ابن خلدون: المقدمة، ص197–198–200.

2) السبط: ولد البنت ولذلك يطلق على "السبطين" الحسن والحسين ابني علي من فاطمة.

61هـ/680م).

4. ابنه علي بن الحسين المعروف بزين العابدين ﷺ السجّاد وذُو الثّفنات لكثرة عبادته وسجوده: توفي سنة (110هـ/728م).

5. ابنه زيد بن علي الشهيد ﷺ وصاحب قولة جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل والأفضل): قتله هشام بن عبد الملك سنة 122هـ/740م، كما مرّ بنا.- لعنه الله وخلّده في الجحيم-.

6. ابنه يحيى بن زيد ﷺ: فرّ إلى خراسان بعد قتل أبيه زيد وثار على الخليفة الأموي الوليد بن يزيد الذي تولى الخلافة بعد هشام فقتله .- لعنهما الله وخلّدهما في الجحيم- سنة (125هـ/743م) وصلب على باب مدينة الجوزجان ثم أُنزل وأُحرق، وذري نصف رماده في الفرات ونصفه الآخر في الزرع، وقال يوسف بن عمر الثقفي -لعنه الله وخلّده في نار جهنّم- والي العراق: « والله يا أهل العراق لأدعنكم تأكلونه في طعامكم وتشربونه في مائكم»[1]، وذلك حسب أمر الوليد بن يزيد له «إذا أتاك كتابي هذا فانظر عجل العراق فأحرقه ثمّ إنسفه في اليمّ نسفا»[2]، -لعنه الله وخلّده في السّعير-.

7. محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن السبط ويُقال له صاحب «صاحب النفس الزكيّة»: خرج على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (سنة 145هـ/763م-166هـ/775م) فقتله (سنة 145هـ/763م)، وكان أبوه عبد الله -خصيم زيد على صدقات فاطمة كما مرّ بنا- أعدّه لهذه المهمّة وغرس في ذهنه جذور المبدأ الزيدي.

8. أخوه إبراهيم: خرج على أبي جعفر المنصور أيضا ومعه عيسى بن زيد بن علي بمدينة

---

1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 538/5 .
- الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص158.
- ابن خلدون: المقدمة، ص200.
- النشار : نشأة الفكر الفلسفي: 152/2.
2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 538/5 .

البصرة فقتلهما المنصور سنة (سنة 145هـ/763م) في نفس التاريخ الذي قُتل فيه صاحب «صاحب النفس الزكيّة»، – لعن الله الظالمين وخلّدهم في نار الجحيم، ورضي الله عن الشهداء الأبرار.

وكان جعفر الصادق ﷺ أخبرهم بكلّ ذلك وهي معدودة في كراماته[1] «بل وأنّ آباءه – عليهم السلام– أخبروه بذلك كلّه، وأنّ بني أميّة يتطاولون حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها، وهم يستشعرون بغض أهل البيت، ولا يجوز أن يخرج واحد من أهل البيت حتى يأذن الله تعالى بزوال ملكهم»[2].

ممّا يُفهم منه أنّ جعفر الصادق يرى رأي أبيه محمد الباقر في عدم اشتراط الخروج كأساس في صحّة الإمامة وأنّ الخروج يجب أن يتمّ عندما يأذن الله بزوال ملك الحاكم الظالم، ولذلك فاستعمال التقيّة مع السلطان الجائر واجبة والمعروف عن الأئمة المستعملين للتقيّة أنهم بينما كانوا يغرقون في الدعاء والتوسّل إلى الله أن ينصرهم على عدوّهم، تاركين له المجال فسيحا كي يقتل وينكّل كيفما شاء منتظرين المدد من السماء، كان هذا العدو – عفا الله عنه مقدما على تنفيذ مخططاته غير آبه لدعائهم ولا لتوسلاتهم ولا حتى لتقواهم، قتلا وحرقا وتنكيلا وصلبا.

ومن المعلوم أنّ الإمامين الأخوين خرجا على خليفة واحد هو أبو جعفر المنصور، الأول بالحجاز، والثاني بالبصرة تطبيقا لمذهب الزيدية (بعد زيد) والذي يجيز خروج إمامين في قطرين على خليفة واحد وفي وقت واحد بسبب:

- اتساع رقعة البلاد الإسلامية
- للتعاون على الإطاحة بالسلطان الجائر

---

1) ابن خلدون: المقدمة: ص200.

2) الشهرستاني: الملل والنحل: 1/251.

ولذلك تتفق الفرقة الخارجيّة الحمزيّة مع الزيديّة حول هذا المبدأ «وجوّز حمزة إمامين في عصر واحد، ما لم تجتمع الكلمة وتقهر الأعداء»[1].

وذهب آخرون أنّ الإمام بعد محمد صاحب «صاحب النفس الزكيّة» هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر، وعمر هو أخو زيد بن علي، وقد خرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق إلى المعتصم (177هـ/795م-224هـ/842م) فحبسه ومات في حبسه[2].

وزعم آخرون أنّ الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى بن زيد الذي خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بالبصرة على أبي جعفر المنصور «ونقلوا الإمامة في عقبه وإليه انتسب دعيّ الزّنج»[3] (في ثورة الزّنج).

وقال آخرون من الزيديّة إنّ الإمام بعد محمد بن عبد الله أخوه إدريس الذي فرّ إلى المغرب ومات هنالك وقام بعده ابنه إدريس وبنى مدينة فاس وكان من عقبه الأدارسة ملوك ملوك بالمغرب[4]، يرجع نسبهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم جميعا).

وبقي أمر الزيديّة بعد ذلك غير منتظم إلى أن كان منهم:

9. الإمام الداعي إلى الحقّ الناصر الأطروش الذي ملك طبرستان (من سنة 250هـ/864م إلى سنة 270هـ/884م) وهو إمام مجتهد نبغ في الفقه وله فيه كتاب يُسمّى 'الجامع في الفقه'[5] لعلّه تأسّى كزيدي بكتاب زيد الفقهي 'المجموع' الذي رواه تلميذه أبو خالد الواسطي.

---

1) الشابي: مباحث، ص128-129.

2) ابن خلدون: المقدمة، ص200.

3) ابن خلدون: المقدمة، ص200.

4) المصدر نفسه: ص200.

5) أحمد أمين: ضحى الإسلام: 3/276.

وينتسب الناصر الأطروش إلى أبناء زيد بن علي وقد ظهر بخراسان بين زيدية أرض الخزر[1] ولمّا حاول خصومه قتله اختفى واعتزل في بلاد الديلم فعُرف بـ'الديلمي' وأسلم على يديه سكّان الديلم ودعاهم دعوة الإسلام على مذهب الإمام زيد بن علي وكانت لهم دولة بطبرستان واستطاعوا أن يستبدّوا على الخلفاء ببغداد[2] وقتل الناصر الأطروش سنة (447هـ /1055م) في الحرب التي جرت بينه وبين الصليحيين[3].

10. الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط

11. وأخوه محمد بن زيد (رضي الله عنهم جميعا).

12. القاسم بن إبراهيم العلوي الرّسي: الذي تولّى على مدينة 'صعدة' باليمن (من سنة 246هـ/860م إلى سنة 280هـ/990م) «وهو الذي ينسب إليه كتاب 'الردّ على ابن المقفّع'»[4].

ونلاحظ أنه من تاريخ قيام إمام طبرستان الناصر الأطروش (250هـ/864م – 270هـ/883م) وقيام الإمام القاسم بن إبراهيم العلوي على مدينة 'صعدة' باليمن (246هـ/860م – 280هـ/990م) التزام الأئمة الزيدية لمبدأ قيام إمامين في قطرين (طبرستان واليمن) على حاكم واحد في زمان واحد، فإمام طبرستان خرج سنة 250هـ/864م وإمام اليمن خرج سنة 246هـ/860م واستمرّ كلّ منهما حاكما لجهته، ممّا يُفهم منه أنّ مذهبهم الزيدي يجيز لإمامين أو أكثر عند الخروج والنجاح في الدعوة أن يبقى كلّ منهم يحكم جهته ولا يتنازل للآخر، فإذا عارض أحدهم الآخر واستطاع خلعه أو قتله وحلّ مكانه

---

1) دائرة المعارف الإسلامية: 18/11 مادة الزّاي ، والملل للشهرستاني: 254/1.

2) ابن خلدون: المقدمة، ص200–201.

3) أنظر كتاب 'الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن في سنة 268هـ/882م، إلى سنة 626هـ/1228م': تأليف حسين بن فيض الهمداني اليعبري الحرازي بالاشتراك مع د. حسن سليمان محمود الجهني، ج.ع.ي وزارة الإعلام والثقافة، ط. دار المختار، دمشق، (غير مؤرخ).

4) أحمد أمين: ضحى الإسلام: 276/3.

اعتبر ذلك أمرا مشروعا، وإذا حدث أن جمع المخلوع أنصاره وتقوى بهم على خالعه وتمكّن من عزله أو قتله اعتبر ذلك أمرا واقعا[1]. وكان ذلك نتيجة وفائهم الأجوف:

- لما اتّصف به زيد والزيديّة الحقيقيين من واقعيّة واعتدال.
- لجواز خروج إمامين أو أكثرعلى حاكم واحد في زمان واحد وفي قطر واحد، للتعاون ضدّ أعدائهم خلفاء أهل السنّة.

وأنظر ما آل إليه أمرهم بعد ذلك من فوضى وخبط عجيبين وفلكور ديني شعبوي. وإلى حوالي سنة (520هـ/1126م) ظهر عند بحر الخزر ما يقرب من عشرين إماما زيديا في أزمان متفاوتة في طولها وكانوا متنازعين[2]. بسبب الطمع في الحكم والذي ظهر للنّاس وكأنه تطبيق لمبدئهم الذي ذكرناه، لأنّ الشعوب الإسلاميّة في العصور المتأخرة يعمّها الجهل، في الأرياف عدا المدن والقرى، حيث توجد المساجد وتعليم النّاس شؤون دينهم ودنياهم... فكان يسهل استقطابهم لهؤلاء الدّعاة الطّامعين في السلطة والحكم لا غير...

13. الإمام المؤسس للدولة الزيديّة باليمن وهو الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين[3] من أبناء القاسم الرّسيّ، ولد بالمدينة سنة 245هـ/859م وهو زيدي المذهب معتزليّ العقيدة، بايعه أهل اليمن سنة 284هـ/897م وحارب التشيّع الغالي ومذهب القرامطة، واشتبك معهم في حروب منذ سنة 292هـ إلى سنة وفاته (298هـ/904م). وقد استمرّت هذه الدولة الزيدية اليمنيّة إلى ما بعد سائر دول اليمن، ولكنها اضطرّت في كثير من الأحيان إلى الارتداد إلى المدينة التي بدأت منها وهي مدينة "صعدة" باليمن[4]، ولعلّها سُمّيت بذلك لأنها واقعة في مرتفع جبلي، لأنّ «معظم بلاد اليمن من الزيدية إلى اليوم

---

1) دائرة المعارف الإسلامية: 16/11 –17 مادة الزيدية.

2) المرجع نفسه: 17/11.

3) النشّار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: 186/2.

4) دائرة المعارف الإسلامية: 17/11.

ولاسيما في البلاد الجبلية»[1].

وتبعا لذلك استمرّ حكام اليمن يلقّبون بالإمام دأبيا بالمذهب الزيدي حيث يزعمون أنهم من نسل زيد بن علي ﷺ.

وآخرهم الإمام البدر الذي أطاحت به ثورة اليمن في الستّينات من القرن العشرين بقيادة العسكري عبد الله السلاّل وما لبث هو ذاته ان أطاحت به ثورة مضادة.

ولعلّي لا أجانب الصواب إذا قلت إنّ تقسيم اليمن الحالي إلى شمالي وجنوبي هو نتيجة رغبة العملاقين الأمريكي والروسي(*) في تقسيم العالم وخلق منطق نفوذ وجدت صداها في زيدية اليمن الذين يجيزون قيام إمامين أو أكثر في قطر واحد وفي زمان واحد وعلى حاكم ظالم.

وبما أنّ كلا من اليمن الشمالي واليمن الجنوبي يدّعي أنه على حقّ فلم يبق إلاّ أن نعتبر أنّ هذا تطبيق خطأ لمبدأ أسلافهم، وهي فوضى عجيبة عاشها الزيدية قديما عندما تخلّوا عن جوهر مذهبهم، وهو يكاد يكون مذهبا سنيّا[2]، ويعيشونها حديثا في القرن العشرين في فوضى واضحة وتطاحن على السلطة والحكم، اشتعلت حربا أهليّة، بفعل تدخّل جيرانهم العرب المسلمين من جهة مباشرة وتدخّل مؤيّدهم من الشيعة المسلمين من جهة أخرى بصفة غير مباشرة تأييدا لحكمين قائمين كلّ منهما مؤيّد من أحد الطّرفين المذكورين، وهو لم يكن تطبيقا لتجويزهم قيام إمامين في جهتين ووقت واحد، وإنّما هو صدى لأجندات أجنبيّة تُريد خلق نزاعات حربيّة في غير بلدانها، لاستمرار معامل أسلحتها في الإنتاج، وخلق مناطق نفوذ في العالم.

---

1) أحمد أمين: ضحى الإسلام: 275/3.

*) وكان ذلك زمن وجود الاتّحاد السوفياتي، وكان اليمن الجنوبي تابعا يدّعي مذهب الزيديّة ويتبع نظاما ملحدا لا يعترف بالأديان وكلها. مما يدلّ على أنّ الأمر سياسي قبل أن يكون دينيا.

2) أحمد أمين: ضحى الإسلام: 276/3.

وإذا شئنا أن نذكر أهمّ فرق الزيديّة فإننا نجدها قديما:

- الفرقة الجارودية والسليمانية والصالحيّة أو البترية لأنهما على مذهب واحد[1]...

I / الفرقة الجارودية

هي على ما يظهر أوّل فرقة زيدية وسُمّيت بالجارودية نسبة إلى مؤسسها أبي الجارود، وكُنّي أبا النجم زياد بن المنذر الهمذاني الخرساني العبدي، ويُقال له أحيانا النهدي والثقفي الكوفي توفي ما بين سنة (150هـ/767م و160هـ/776م) [2]، تعلّم أوّل الأمر على الإمام محمد الباقر، أخي زيد بن علي، ولقّبه الباقر "سرحوبا"، وفسّر ذلك بأنّ معناه "شيطان أعمى يسكن البحر" لأنه كان مكفوف البصر وخبيث الرأي، ولعنه جعفر الصادق – ابن الباقر – قائلا: «إنه أعمى القلب، أعمى البصر»[3]، وقد وصف بذلك لأسباب منها: بدلك

- اعتبره أهل السنّة شيعيّا رافضيّا يضع الأحاديث في ذمّ الصحابة –رضوان الله عليهم جميعا– ويغالي في حبّه لآل البيت[4]، ويرى في ذلك أشياء لا أصول لها.

- يرى أنّ النبيّ ﷺ أوصى لعليّ –كرم الله وجهه– بالوصف دون التسمية، والإمام بعده، والصحابة قصّروا ولم يطبّقوا الوصية ونصبوا أبا بكر –رضي– باختيارهم فكفروا بذلك جميعا[5] –لعنه الله–.

- علّم آل الحسن والحسين إلهيّ[6]، كعلم النبيّ ﷺ مع أنّ النبي رجل أمّي وذلك يعتبر معجزة أن يؤدي رسالة الإسلام العظيمة وهو أمّي، وعلم آل البيت يحصل لهم قبل التعلم فطرة وضرورة، وهي فكرة متسرّبة من الفلسفة اليونانية حيث يرى بعض أعلامها

---

1) الشهرستاني: الملل: 1/254-255.

2) النشار: نشأة الفكر الفلسفي: 2/187.

3) المرجع نفسه: 2/187.

4) المرجع نفسه: 2/187.

5) الشهرستاني: الملل: 1/212 .على هامش الفصل لابن حزم.

6) المصدر نفسه: 1/214 .

ومنهم (أفلاطون) أنّ "العلم تذكّر والجهل نسيانٌ"، ورفض ابن سينا هذه النظرية وقال في قصيدته الفلسفيّة في النّفس الإنسانيّة، أنها تنزل روحا من الأزل والبرزخ كالورقة البيضاء، والحياة في المجتمع تخطّ عليها ما يصبح تجارب لها:

نزلَتْ إليك من المحلِ الأرفعِ *** ورْقاءُ ذاتُ تَدَلُّلٍ وتمنّعِ

ونرى علماء النّفس حديثا، أنّ هذه النّفوس نزلت أرواحا مزوّدة ببرمجة عامّة كبرمجة الحاسوب، يتصرّف فيها صاحبها الإنسان بثقافة وعقل، وهذا يؤيّده قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] ويرى بعضُ المعتزلين من الجارودية «أنّ العلم مشترك فيهم وفي غيرهم وجائز أن يؤخذ عنهم وعن غيرهم من العامّة»[2]، وهي نظريّة زيد في علم آل البيت، ولا أدلّ على ذلك من اتّصاله بواصل بن عطاء الغزّال المعتزلي، اتّصال مذاكرة علميّة ووافقه على منهجه العقلي للقضاء على الغنوصيّة وعلى كلّ ما يتّصل بتقديس الأئمّة والارتفاع بهم عن حدود البشريّة من حيث علمهم الإلهي والمهدية والرّجعة والغيبة.

والغريب في الأمر أنّ أبا الجارود اتّصل بزيد بن علي في الكوفة وثبت معه في المعركة عندما تخلّى عنه أنصاره الكوفيون، وقاتل معه رغم عماه هو أتباعه[3]، ومع ذلك يتبرّأ من الشيخين ويكفّرهما هو وأتباعه أيضا – لعنهم الله تعالى–، ولكن هل يُستغرب هذا التصرّف من رجل لعنه الباقر وجعفر الصادق ووصفه الأخير بأعمى البصر والقلب؟، طبعا لا يُستغرب ذلك منه ومن أنصاره!.

– عرّض أبو الجارود بكلّ من محمد الباقر وابنه جعفر الصادق لعدم تطبيقهما للخروج شرط زيد والزيديّة في الإمام، ضمن حكمه على كلّ متخلّف عن نصرة الإمام علي كرّم

---

1) سورة النحل، آية 78.

2) الشهرستاني: الملل: 214/1 .على هامش الفصل لابن حزم 214/1.

3) النشار: نشأة الفكر الفلسفي: 187/2–188.

الله وجهه بالكفر فقال: «من تخلّف عنه في قيامه ودعائه إلى نفسه من جميع الخلق فهو كافر... ومن ادّعى منهم الإمامة وهو قاعد في بيته مُرْخٍ عليه ستره فهو كافر مشرك، وكلّ من اتّبعه على ذلك، وكلّ من قال بإمامته فهو كذلك كافر مشرك»[1]، والعياذ بالله من هذا الكفر والشرك، وإنما هو خيانة لعهد وفسق.

- بعد موت أبي الجارود ازداد الجارودية تطرّفا وغدت شيعة رافضيّة مغالية واختلفوا في 'التوقّف والتسوق'[2] فيمن يسوقون الإمامة وعند من يتوقّفون...وقالوا بالمهدية ... والرّجعة... وادّعى أحد أنصار «صاحب النفس الزكيّة» وهو المغيرة بن سعيد النبوّة – لعنه الله–، وأنّ الوحي يأتيه وقال بتناسخ الأرواح، وظلّت دعوته –لعنه الله– قائمة إلى أوائل القرن 4هـ/10م[3].

II/ الفرقة السليمانيّة

سُميّت بالسّليمانية نسبة إلى مؤسّسها سليمان بن جرير، ومن آرائه:

- الإمامة شورى بين الخلق ويقع تعيين الإمام بالاختيار لا بالوراثة وهو مبدأ إمامهم زيد.
- «يصح أن تنعقد [الإمامة] بعقد رجلين من خيار المسلمين»[4].
- «تصحّ إمامة المفضول مع وجود الأفضل»[5] والفاضل.
- تمّت إمامة الشيخين باختيار الأمة الإسلامية، وهي حقّ اجتهادي وقد أخطأت [الأمّة] خطأ اجتهاديا لا يوجب الفسق باختيارها لأبي بكر وعمر مع وجود علي – رضي الله عنهم جميعا–.
- كفّر سليمان –لعنه الله– عثمان بن عفّان لتساهله مع أقربائه كما كفّر أيضا عائشة

---

1) المرجع نفسه: 188/2.

2) المرجع نفسه: 191/2.

3) الشابي: الشيعة في إيران، ص92.

4) الشهرستاني: الملل: 214/1 . على هامش الفصل لابن حزم.

5) المصدر نفسه: 216/1.

وطلحة والزبير بإقدامهم على قتال علي[1] -رضي الله عنهم جميعا-.

- طعن على الرافضة بسبب قولهم بالبداء وبالتقيّة.

وسبب نشوء "مذهب البداء"، أنّ الشيعة الرافضة زعموا أنّ الإمام جعفر الصادق أعلن ولاية ابنه إسماعيل من بعده فلمّا مات الأخير في حياة أبيه «سُئل جعفر الصادق: أو من عقائد الإماميّة أنّ الإمام يعلم غيب السماوات والأرض؟ قال: إنّ الله عزّ وجلّ بدا له في إمامة إسماعيل»[2]، يعني أنّ الله تعالى بدا له أن يموت إسماعيل، وقد استغلّ الشيعة المغالون كالمختارية زعمهم رأي جعفر الصادق في البداء، استغلالا فاحشا، وهو لا يعدو أن يكون تفويضا لأمر الله تعالى ومشيئته[3]، وقضاء وقدر.

- أمّا بالنسبة للتقيّة فيرى سليمان، أنّ قول الإماميّة بها جعلهم يسكتون عن ظلم الحكّام ويتركون العمل بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هذا من ناحية، أمّا من ناحية أخرى فقد سألهم أتباعهم (أتباع الإمامية) عن العبادات والمعاملات وما وقع لهم من إشكالات، فأجابوا أجوبة مختلفة حسب كلّ عصر ومصر، ولم يحفظ الأئمّة تلك الأجوبة لتقادم العهد، ودوّن أنصارهم أجوبتهم، فلمّا سألوهم عن التناقض البادي فيها أخبروهم: أنهم أجابوا بذلك التناقض عن قصدٍ تقيّةً، وأضافوا: «ولنا أن نجيب بما أجبنا وكيف شئنا، لأنّ ذلك إلينا ونحن نعلم بما يصلحكم وما فيه بقاؤنا وبقاؤكم وكفّ عدوّكم عنا وعنكم»، ويتساءل سليمان بن جرير: «فمتى يظهر من منّ هؤلاء على كذب؟ ومتى يُعرف لهم حقّ من باطل؟»[4]، ولذلك أنكر سليمان التقيّة واتّبع الزيديّة التي ترفضها وترفض العصمة والمهديّة والرجعة والبداء.

---

1) الشهرستاني: الملل: 214/1 ، على هامش الفصل لابن حزم.

2) النشّار: نشأة...: 197/2.

3) الشابي: مباحث، ص102-103.

4) النشار: نشاه... : 198/2.

ووافق سليمان بن جرير جماعة من المعتزلة و(كُثَيِّر النوى الأبتر) صاحب "الفرقة البترية" من الزيدية، وهو من أهل الحديث وقالوا جميعا بما يلي:

- الإمامة من صالح الدين ولا يُحتاج إليها لمعرفة الله تعالى لأنّ ذلك يقع التدليل عليه بالعقل.
- يُحتاج إلى الإمامة لإقامة الحدود والقضاء بين المتخاصمين وولاية الأيامى واليتامى، وحفظ البيضة، وإعلاء الكلمة، ونصب القتال مع أعداء الدين.
- حتى يكون المسلمون جماعة ولا يكون الأمر فوضى بينهم.
- تسدّ الحاجة بقيام المفضول مع وجود الفاضل والأفضل.
- مالت إليهم جماعة من أهل السنّة حتى أنهم أجازوا أن يكون الإمام غير مجتهد وغير عارف بمواطن الاجتهاد وإنّما هو عالم بشؤون الاعيب السياسة، وعليه أن يستشير أهل الذكر، ويستفتيهم عن الحلال والحرام، ولا بدّ أن يكون الإمام ذا رأي متين «وله بصر في الحوادث نافذ»[1]، وهم -حسبما يبدو- يشيرون إلى أفضلية علي ومقدرته في القضاء، واعتماد الشيخين عليه في كثير من الاستشارات الفقهية، رغم عدم سبقه في الإمامة عليهما. وهذا الرّأي يؤيّده ما وجد في كتب الأحكام السلطانية، إذ تقدم لإمامة المسلمين عالم بالسياسة وعالم بالدّين يختار أهل الحلّ والعقد، العالم بالسياسة على أن يكون مستشاره في الحكم العالم بالدّين والذي راجحه على السلطة[2].

1) الشهرستاني: الملل: 1/216 . على هامش الفصل لابن حزم.

2) انظر: كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدّينية للماوردي أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (450هـ/1058م)، بيروت لبنان، غير مؤرخ، من (ص 5 إلى ص 25)؛ وانظر ما بعدها من مواضع مختلفة.
وانظر أيضا: كتاب الأحكام السلطانية، للقاضي ابي يعلى محمد بن الحسين الفرّاء الحنبلي (458هـ/1066م)، ط-3، (1394هـ/1974م)، سروبايا-أندونيسيا، من (ص 19 إلى ص 53)، وما بعدها من مواضع مختلفة.

III/ الفرقة الصالحيّة والبتريّة

الصالحيّة والبتريّة فرقتان متفقتان مذهبيا ولذلك أرّخوا لهما معا، فالصالحيّة أصحاب الحسن بن صالح بن حيّ، والبتريّة أصحاب (كُثَيِّر النوى الأبتر)، ويرى أنصارهم ما يلي:

- جواز إمامة المفضول مع تأخير الفاضل والأفضل، إذا كانا راضيين بهذا التقديم على أحد منهما أوعليهما معا، وقد اقتبسوا ذلك من الإمام عليّ فهو أفضل الصحابة وأفضل المسلمين بعد رسول الله ﷺ، ولكنه رضي بتسليم الأمر إلى أبي بكر ومن جاء بعده، ولو لم يكن راضيا لكان أبو بكر هالكا، فهم لذلك «راضون بما رضي، مسلّمون لما سلّم»[1].

ولنا أن نتساءل إذا كان عليّ رضي بذلك وسلّم لهم الخلافة فهل يكون الرسول أوصى له بالخلافة؟

طبعا لا! فلو كان أوصى له كما تدّعي الشيعة الرافضة لما رضي، ولما سلّم!

- قولهم في الإمامة متّفق مع السليمانيّة ولا يختلفون عنهم إلاّ في الحكم على الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفّان، فالسليمانيّة كفّرته – لعنهم الله–، أمّا الصالحيّة والبتريّة فقد توقّفوا في أمره: أهو مؤمن أم كافر؟ لأنهم إذا نظروا إليه باعتباره أحد الصحابة العشرة المبشّرين بالجنّة حكموا بصحّة إسلامه وإيمانه، ثم قالوا: «وإذا رأينا الأحداث التي أحدثها من استهتاره بتربية بني أميّة وبني مروان واستبداده بأمور لم توافق سيرة الصحابة قلنا: يجب أن يُحكم بكفره، فتحيّرنا في أمره وتوقّفنا في حاله ووكّلناه إلى أحكم الحاكمين»[2].

ونشتمّ في رأي السليمانية والبتريّة هذا تأثيرين:

1. تأثير مرجئة السنّة الذين يرجئون الحكم في مرتكب الكبيرة إلى الله تعالى، لا مرجئة البدعة الذين أطمعوا الفسّاق في عفو الله.

---

1) الشهرستاني: الملل: 217/1 . على هامش الفصل لابن حزم.

2) المصدر نفسه: 217/1 .

2. تأثير المعتزلة بمبدئهم "المنزلة بين المنزلتين" الذين حكموا على مرتكب الكبيرة بأنه ليس كافرا، وليس مسلما، ليس كافرا لأنّ له جزء من الإيمان، وليس مؤمنا لأنه ينقصه العمل «وهو مخلّد في النار إذا لم يتب، وليس لله أن يعفو عنه حتى يصدق وعيده، ويمكن أن يوصف بكونه مسلما على أساس تفريقه عن الوثني الذمّي لاتشريفه»[1].

وممّا سبق ذكره من مبادئ الصالحيّة والبتريّة ندرك اعتدالهما، وهذا ليس غريبا إذا علمنا أنّ الحسن بن صالح بن حيّ الكوفي (100هـ/168هـ) [2] كان فقيها متكلّما، معروفا بالعبادة والزّهد والإتقان «وقد طُلب منه أن يصف غسل الميت، فما قدر عليه من البكاء»[3]، وكان هو وأخوه عليّ وأمّهما من العبّاد قسموا اللّيل بينهم ثلاثة أجزاء للقيام فماتت الأمّ فاقتسموا اللّيل بينهما نصفين، ولمّا مات علي أصبح الحسن بن صالح يقوم الليل كلّه[4].

قال فيه عابد الشام الشهير سليمان الداراني: «ما رأيت أحدا الخوف أظهر على وجهه من الحسن، قام ليلة بعمّ يتساءلون فغشي عليه فلم يختمها»[5].

وقد ذمّه الفقيه سفيان الثوري قائلا: «ذاك رجل يرى السّيف على الأمّة»[6] لأنه يشترط الخروج في الإمامة، خشية من افتراق كلمة المسلمين، وقد أكون مصيبا إذا استنتجت من قولة سفيان الثوري هذا السبب في عدم بلوغه الشهرة التي بلغها أئمة المذاهب الأخرى مالك وأبو حنيفة والشافعي وابن حنبل، وقد ذكرنا النزر اليسير من شجاعة مالك وأبي حنيفة في قول الحق لأنّ الشجاعة في قول الحق تكسب صاحبها ثقة في النفس بها يزكو العمل وينبع المجد...[7].

---

1) الشابي: مباحث: ص130.

2) النشار: نشأة...: 2/192.

3) المرجع نفسه: 2/192.

4) المرجع نفسه: 2/192.

5) المرجع نفسه: 2/192.

6) المرجع نفسه: 2/192.

7) ابن حزم: الفصل: 4/175-176. وبقيته: المنح للشهرستاني. [أنظروا ص130. 132 من هذا البحث المتواضع].

وقد اعتبر أهل السنّة أنّ الحسن بن صالح أقرب الناس إليهم، ووثّقوه كمحدّث وروى عنه البخاري[1].

وقد خرج هو وآل بيته مع زيد بن علي، وبعد مقتل الأخير لازم ابنه عيسى بن زيد محرّضا إيّاه على الخروج، ولكنه لم يخرج مستقلاً -كما أراد ملازمه- بل خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن على أبي جعفر المنصور بالبصرة وقتلهما كما ذكرنا سنة (145هـ/763م).

ويُعدّ الحسن بن صالح من أخطر رجال الحركة الزيديّة، أخلص هو وأبناؤه لزيد بن علي وأبنائه، وأحد أبناء الأوّل خرج مع جماعة من أهل الكوفة الزيدية البتريّة ومع يحيى بن عبد الله بن الحسن المعروف بـ"صاحب الطالقان"[2].

أمّا كثير النوى الأبتر فهو محدّث ومن رجال العدل والصّدق ولذلك كانت فرقته البتريّة هي نفسها الفرقة الصالحيّة، ومن رجالها فقهاء مشهورون كشريك بن عبدا لله وابن أبي ليلى ومحمد بن إدريس الشافعي، ومالك بن أنس[3]، لأنّ الزيديّة المعتدلة أقرب إلى أهل السنّة منها إلى الشيعة.

ومن فرق الزيديّة الصالحيّة والبتريّة من اشترط في الإمام (إلى جانب الفاطمية والخروج، والعلم، والزّهد، والشجاعة) شرطا آخر يبدو غريبا أوّل الأمر وهو "صباحة الوجه"[4].

وهذا الشّرط ليس غريبا في الواقع إذا علمنا أنّ المظهر الخارجي لصاحب السلطة له تأثير على نجاحه في التّسيير سواء أكان مكتسبا أم فطريّا، ويخلق له جوّا من المهابة

---

1) النشار: نشأة...: 193/2.

2) المرجع نفسه: 193/2-194.

3) النشار: نشأة...: 194/2.

4) الشهرستاني: "الملل: 217/1 . على هامش الفصل لابن حزم.

والشخصيّة ولذلك نرى أغلب الرؤساء والملوك يحاولون تطبيق هذا الشرط في اختيارهم لأولي الأمر من وزراء ورؤساء وغيرهم، ويحاولون ما أمكنهم أن يوفّقوا بين المقدرة والكفاءة وبين الهيبة والوقار والشخصيّة الفطريّة والمكتسبة، وبين الخَلْق والخُلُق.

وروى الدكتور علي سامي النشّار في كتابه "نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام"[1] أنّ الحسن بن صالح توفي بعد إمامه عيسى بن زيد بشهرين (سنة 167هـ/783م أو 168هـ/784م)، وإذا علمنا أنّ عيسى بن زيد خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بالبصرة وخرج أخوه محمد "صاحب النفس الزكيّة" بالحجاز (بالمدينة)، وأنّ الخليفة العبّاسي أبا جعفر المنصور قتلهما سنة (145هـ 762م) -حسب رواية الدكتور علي الشابي في كتابه "الشيعة في إيران"[2] -إذا علمنا ذلك- أدركنا الفارق بين الروايتين حوالي ثلاث وعشرين سنة؛ وبما أنّ محمد بن عبد الله "صاحب النفس الزكيّة" كان يعدّه أبوه عبد الله للإمامة من عهد زيد وأنه كان يتمنّى خروجه عوضا عنه فلم يوفّق إلى تحقيق أمنيته، ورغم ما وقع بينهما من خصومات بسبب صدقات فاطمة -رضي الله عنها- أدّى بهما إلى تبادل الإهانات، فإنّ عبد الله أنشأ ابنيه محمدا وإبراهيم على اعتناق المذهب الزيدي، وطبقا ما استوعباه بخروجهما معا في وقت واحد وعلى خليفة واحد هو أبو جعفر المنصور وفي مكانين من البلاد الإسلاميّة هما المدينة والبصرة، وقتلهما الخليفة المذكور في سنة واحدة. وبذلك يكون ما ذكره الدكتور الشابي أقرب إلى الصواب باعتبار معاصرة زيد بن علي، وعبد الله بن الحسن -وابنيه محمد وإبراهيم- وعيسى بن زيد، وجعفر الصادق، والحسن بن صالح بن حيّ، والمنصور لبعضهم البعض وتقاربهم من حيث التاريخ.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنّ محمدا "صاحب النفس الزكيّة" وأخاه إبراهيم أضافا إلى المذهب الزيدي مبدأً جديدا هو جواز خروج إمامين في قطرين في زمان واحد

---

1) النشار: نشأة...، 2/192-193.

2) الشابي: الشيعة في إيران، ص92.

وعلى خليفة واحد وطبقاه بخروجهما على أبي جعفر المنصور[1]، فلا يُعقل والحالة هذه أن يكون مقتلهما سنة (167هـ/783م أو 168هـ/788م) وإنسان قد يكون سنة (145هـ/762م) لأنها أقرب إلى المعقول، وفي مقابل ذلك فرواية الدكتور سامي النشّار مشكوك فيها.

وقبل أن أختم بحثي المتواضع، أودّ أن أشير إلى العلاقة الرابطة بين زيد والزيديّة من جهة وبين فرق أهل السنّة والجماعة، والمعتزلة، والخوارج، والمرجئة، والشيعة الرافضة، والإمامية الاثني عشرية من جهة أخرى، وهي علاقة تختلف قربا وبعدا من فرقة إلى أخرى، كما بيّنا سابقا، وأريد أن أدعّم رأيي بوثيقتين:

* الأولى: أوردها الدكتور علي سامي النشار حول الاجتماع العلمي الذي انعقد بين زيد بن علي وواصل بن عطاء، وجعفر الصادق، ومن معهم من آل البيت حين زار المعتزليّ المذكور المدينة، فقال جعفر الصادق منّهما إيّاه بالتفريق بين آل البيت والطعن على أئمّتهم: «أمّا بعد فإنّ الله تعالى بعث محمدا نبيّا بالحقّ والبيّنات والنّذر وأنزل عليه: (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتابه الله)[2]، فنحن عترة رسول الله وأقرب النّاس إليه وإنّك يا واصل أتيت بأمر يفرق الكلمة! وتطعن به على الأئمّة! وأنا أدعوكم إلى التوبة»[3].

فردّ عليه واصل بن عطاء: «الحمد الله العدل في قضائه، الجواد بعطائه، المتعالي عن كلّ مذموم، والعالم بكلّ خفيّ مكتوم، نهى عن القبيح ولم يقضِه وحدّث عن الجميل ولم يحل بينه وبين خلقه، وإنّك يا جعفر وابن الأئمّة، شغلك حبّ الدنيا فأصبحت بها كلِفًا، وما أتيناك إلاّ بدين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبيه وصهريه ابن أبي قحافة وابن الخطاب وعثمان وعلي بن أبي طالب وجميع أئمة الهدى، فإن تقبل الحقّ تسعد به، وإن

---

1) ابن خلدون: المقدمة، ص200. والشهرستاني: الملل: 251/1.

2) سورة الأحزاب، الآية: 06.

3) النشار: نشأة...: 165/2.

تصدف عنه تبؤ بإثمك»[1].

ووقف في هذا الاجتماع زيد بن علي إلى صفّ واصل بن عطاء مغلظا القول لجعفر الصادق: «أمّا ما منعك من اتّباعه إلاّ الحسد لنا»[2]، ويُعتبر جعفر الصادق محايدا في ثورة زيد. وجعفر الصادق صاحب المذهب الجعفري الفقهي الشهير، اقتبست منه (مجلّة الأحوال الشخصيّة التونسيّة) جواز أن ترث الابنة الوحيدة لأبويها كامل التركة عوض النّصف والنصف الثاني يذهب للعمّ أو الأعمام.

* أمّا الوثيقة الثانية: فأوردها الشهرستاني كخاتمة لحديثه عن الزيديّة، وما آلت إليه في عهده، مع العلم أنّه توفي سنة (548هـ/1153م) فيكون بذلك قد صوّر حالتهم في القرن السادس الهجري/القرن الثاني عشر الميلادي بما يلي:

« وأكثرهم في زماننا مقلّدون لا يرجعون إلى رأي واجتهاد»، وهم في الأصل يقلّدون المعتزلة تقليدا حرفيّا، « ويعظّمون أئمّة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمّة آل البيت، وأمّا في الفروع فهم على مذهب أبي حنيفة إلاّ في مسائل قليلة يوافقون فيها الشافعي، رحمه الله»[3].

وعلى المسلمين في العصر الحاضر (القرن 15هـ/21م) أن يتّحدوا في مواجهة أعدائهم بقطع النّظر عن خلافاتهم المذهبيّة التي ليست من أركان الإسلام، بل جزئيّات من أصول المذاهب، وما دام خصومنا السياسيّون في العالم متّحدون ضدّنا ليلا نهارا. فلماذا لا نتّحد نحن العرب والمسلمين في مواجهتهم لحماية ثرواتنا من طمعهم؟ ولهم أن يستفيدوا منها بحق العمل والاستخراج، وعلينا تكوين إطارات لاستخراجها والمحافظة عليها كإيران، ولهم أن يأخذوا بحقّها بالعدل الذي تقرّ به القوانين والتشارع الأمميّة والإنسانيّة.

---

1) النشار: نشأة...: 166/2.

2) المرجع نفسه: 166/2.

3) الشهرستاني: الملل: 218/1 . على هامش الفصل لابن حزم.

قائمة المصادر والمراجع

1) القرآن الكريم.

2) ابن الأثير (ت. 630هـ/1231م أو 1234م)، وبهامشه: تاريخ مروج الذهب، ط. التربير 1303هـ/1885م:

I/ هذه نسخة أولى،ج5.

II/ النسخة الثانية بهامشها تاريخ الوذعي: اعتمدتها في قضية عمر بن الخطاب وسنة الشورى، ط1، ج3، المطبعة الأزهرية، مصر، 1301هـ/1883م.

3) ابن حزم (ت. 456هـ/1063م): الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج4، ط1، مصر، ط. التمدن 1321هـ/1903م.

4) ابن خلدون (ت. 808هـ/1406م): المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى، [دون تاريخ].

5) ابن قتيبة (توفي سنة 270هـ أو 276هـ): الإمامة والسياسة ج2، تحقيق محمود الرافعي، ط. النيل- مصر، سنة 1322هـ/1904م.

6) أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي الماوردي (ت. 450هـ/1085م)، الأحكام السلطانية، بيروت-لبنان، غير مؤرخ.

7) أبو يعلي القاضي محمد بن الحسين بن الفرّاء الحنبلي (ت. 458هـ/1065م)، الأحكام السلطانية، دار الفكر، سروبايا – أندونيسيا، 1394هـ/1974م.

8) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج3، 1933، ط3. 1362هـ/1943م.

9) الأصفهاني: (ت.356هـ/966م): مقاتل الطالبيين، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1368هـ/1949م.

10) البخاري: الصحيح، شرح ابن حجر العسقلاني، ج2، المكتبة السلفية، القاهرة، [دون تاريخ].

11) البغدادي (ت.429هـ/1037م): الفرق بين الفرق، تحقيق الكوثري، [دون تاريخ].

12) الحافظ بن كثير (ت. 774هـ/1382م): البداية والنهاية، ج5، ج9، ج10، ط2. مكتبة المعارف، بيروت.

13) دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرين، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الأولى، ج11، 1351هـ/1933م، [مادة زاي]، ج1، [مادة ابن].

14) الدكتور عبد الرحمان بدوي: مذاهب الإسلاميين، ج1: المعتزلة والأشاعرة، دار العلم للملايين، بيروت، 1971.

15) الدكتور علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة، ط1. دار بوسلامة، تونس، تاريخ مقدمة المؤلف، 1977/11/28.

16) الدكتور علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، مصر، ج2، ط3. 1385هـ/1965م.

17) الشهرستاني (ت. 548هـ/1153م): الملل والنحل: نسختان:

أ- نسخة مستقلة، ج1، تحقيق أحمد فهمي محمد، مكتبة الحسين التجارية، القاهرة، ط1، 1368هـ/1948م.

ب-نسخة على هامش كتاب الفصل لابن حزم،ج1.

18) الطبري: (ت. 310هـ/922م): تاريخ الأمم والملوك، ج8، المطبعة الحسينية المصرية، مطبعة الأستانة، [بدون تاريخ].

19) علي الشابي: الشيعة في إيران، الجامعة التونسية، كلية الحقوق والعلوم السياسية والاقتصادية، مركز الدراسات والبحوث والنشر، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، أفريل 1980.

20) كتب السنة النبوية الشريفة: محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري. وأبو الحسين مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، وكتب السنن والمسانيد.

21) محمد أبو زهرة: الإمام زيد: حياته وعصره، آراؤه وفقهه، طبع دار الفكر العربي، دار العهد الجديد للطباعة، بدون تاريخ.

22) محمد الحسين ال كاشف الغطاء (ت. 1373هـ/1954م): كتاب أصل الشيعة وأصولها، دار البحار، بيروت، 1397هـ/1960م.

23) المسعودي: (ت.346هـ/957م): مروج الذهب، محيي الدين عبد الحميد، ج1، ط. السعادة، مصر، 1367هـ/1948م.

24) ناجي حسن: ثورة زيد بن علي، مطبعة الآداب، بغداد-النجف، ط1. 1386هـ/1966م.

25) اليعقوبي (ت.284هـ أو 292هـ/897م): التاريخ الكبير، ج3، دار الفكر، بيروت، 1376هـ/1956م.

فهـــرس الموضـــوعات

تمهيد 4

حياة زيد بن علي 6

ثورة زيد بن علي 15

1/ علمه: 15

2/ فصاحته: 16

3/ تديّنه: 18

4/ فراسته: 19

5/ صبره: 21

6/ شجاعته: 23

7/ صباحة وجهه: 25

عصر زيد بن علي وثورته 27

1. الأسباب الاقتصادية: 27

2. الأسباب الاجتماعية: 28

3. الأسباب السياسية: 33

4. الأسباب الدينيّة: 40

5. الأسباب الشخصيّة : 46

الأسباب المباشرة لقيام ثورة زيد بن علي 53

1. أفضليّة علي وأحقيّته بالخلافة دون سائر الصحابة لكن المصلحة اقتضت تعيين غيره : 54

2. استعمال بني أمية أساليب التفرقة والفتنة بين آل البيت مستغلين قضية صدقات فاطمة..... 55
3. الرواية الثالثة في سبب خروج زيد هي تهمة الأموال التي تسلمها ومن معه من خالد القسري:..... 61
إمامة المفضول مع وجود الأفضل 68
محتوى مذهب زيد بن علي..... 94
مقياس الفضل 107
مقارنة بين الزيدية والفرق الإسلامية 112
1. المعتزلة 112
2. الشيعة المغالية 114
3. الشيعة الإمامية 116
4. رأي أهل السنة الظاهرية في إمامة المفضول 120
5. المقارنة بين الزيدية وأهل السنة والخوارج 134
فرق الزيدية وأئمتهم..... 140
I / الفرقة الجارودية 147
II/ الفرقة السليمانية..... 149
III/ الفرقة الصالحية والبترية 152
قائمة المصادر والمراجع..... 158
فهرس الموضوعات 160